WHO IS HE OF THE TWO

A Novel

By Ilham Mansour

First Published in July 2003

Copyright © Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com

. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21139 8

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by anymeans, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: تموز/ يوليو ٢٠٠٣

توطئة

حين ينقر اسم أحدهم باب ذاكرتها، تفتح ذاكرة ليال بابها ليخرج منه اثنان، رجلان لا يشبه أحدهما الآخر. تنظر ليال إليهما بدهشة كبيرة وتتساءل بصمت: «ترى أيُّهما هو؟». ينظران إليها ويبتسمان معاً كأنهما سمعا صمتها، ثم يعودان من حيث أتيا. يُغلق الباب وراءهما وتعود ليال إلى الإحساس بالخفة التي ألفتها وأصبحت تنعم بها وتتمتع برخائها كأنها نوع من الخدر اللذيذ وتقول لنفسها: «إنها خفة محتملة جداً وممتعة جداً، على عكس ما قال صاحب كتاب «خفة الكائن التي لا تحتمل» l'insoutenable légèreté de l'être.

الفصل الأول

كنا معاً في مكان لا أعرفه، غرفة صغيرة فيها سرير كبير وعلى الحائط قبالة السرير سجادة، رسومها تمثِّل ولادة المسيح حيث الطفل في مغارة بين مريم ويوسف ويظهر من بعيد المجوس الآتون على ظهور جمالهم يحملون الهدايا للوليد الذي أشارت إلى مكانه نجمة مذنبة في السماء. ما كنت أعرف هذا المكان، إلا أن السجادة فلطالما شاهدت مثيلتها وراء المقعد الذي تجلس عليه والدتي باستمرار لدرجة أنه أصبح محلها الذي لا يحاول أحد منا منافستها عليه. تلك السجادة القديمة هي هدية من جدتي إلى ابنتها في يوم زفافها.

وجدت نفسي مع والدي في تلك الغرفة الغريبة. كان يضع يديه وراء ظهره، ينظر إلي ويبتسم. بعد قليل مدّ أحد ذراعيه إلى الأمام وإذ به يحمل مسدساً صغيراً: «ليال خذيه». قال:

— لا أجرؤ على حمل السلاح.

— لا يؤذيك، خذيه، اخرجي به إلى الشرفة وأطلقي النار في الهواء.

بالفعل ما كنت أجرؤ حتى على لمس السلاح، أي سلاح، لكني أخذت المسدس من يد والدي وخرجت إلى الشرفة. فجأة وجدت نفسي في بلدتي على مدخل دارتنا هناك في منتصف الساحة. «أطلقي النار» قال والدي. فعلت. ردد: «أطلقي بعد». فعلت. ثم ردد:

«أطلقي بعد». فعلت ومن دون أن أسمعه من جديد لأنه صمت، حاولت أن أطلق النار من جديد، لكن المسدس كان قد فرغ من الرصاص.

لم أنتبه إلا بعد لحظة أن ثلاث طلقات رصاص متقطعة تعني في بلدتنا أن أحدهم قد توفي. لم أنتبه إلى ذلك إلا حين رأيت الناس يتراكضون وهم يسألون: «من مات؟».

نظرت إلى داخل الغرفة ورأيت شيئاً غريباً، رأيت أحد الجمال على السجادة يخرج من مكانه، رأيت والدي يسحبه بالرسن إلى أن أدناه من عتبة الدار حيث كنت لا أزال واقفة. طوى الجمل قوائمه وبرك على الأرض. أتى أحدهم ووضع على ظهره هودجاً، وهو المقعد الذي يزين به ظهر الجمل كي تجلس عليه العروس. «اصعدي» قال والدي. صعدت. كانت المرة الأولى التي أعتلي فيها ظهر جمل. قلت لنفسي: «هل تذكر والدي ما تمنيته يوم عرس أخي؟». جلس والدي بالقرب مني على الهودج، انتصب الجمل ورفعنا معه. دفعه والدي للسير نحو الساحة. هناك أداره نحو الشرق نحو الجبّانة في طرف البلدة. حشود غفيرة كانت تملأ الطريق، موكب مهيب، تتقدمه ثلاثة نعوش.

— لمن هذه النعوش الثلاثة؟ سألت.

— الأمر لا يهم. أجابني والدي.

— كيف لا يهم، وكل البلدة تشيعهم؟

تهيأ لي أني بدأت أسمع ندباً على لحن ما قيل لجدي حين توفي وبدأت أردد ما سمعت في ذلك الوقت. كانت البلدة كلها تقول له: «مالك يا زعيم القوم مالك، رايح وتارك رجالك، والناس تبكي وتنوح، منين تجيب زعيم بدالك».

— أسمع ندباً، من هم هؤلاء؟ سألت من جديد.

— ستعرفين لاحقاً. أجابني وهو يضحك بصوت عالٍ.

صمت قليلاً ثم قال بكل جدية: «ليال يا ابنتي، لحظة الفراق النهائي هي لحظة تكثُّف الزمن وتحوّله إلى بعد واحد هو الحاضر. أنا الآن في الحاضر الذي هو الزمن كله، لهذا السبب تكشّفت أمامي كل غوامض المستقبل وابيضَّت كل الثقوب السوداء في الذاكرة. في

زمن كهذا حيث الغابر والآتي يندمجان بالحاضر، في زمن كهذا حيث اللحظة الهَروب تستوعب كل الزمن، في هذه اللحظة بالذات يرى المرء أن الآتي ليس بأهم من الماضي، فيرحل بسلام آخذاً معه كل الزمان». ابتسم ابتسامة عريضة، ابتسامته الجميلة قبل أن يضمني إليه ويقبلني.

استيقظت مذعورة. هل مات والدي؟ لماذا تكلم عن لحظة الفراق النهائي؟ كان آنذاك مريضاً جداً وأصبح الممرض يلازمه ليلاً ونهاراً لأنه رفض الذهاب إلى المستشفى. لكنني تلك الليلة شعرت أن وضعه كان جيداً نسبياً، فعدت للنوم في مكتبي الذي هو بيتي في الوقت نفسه.

استيقظت مذعورة وبسرعة توجهت إلى بيت أهلي الذي يبعد مسافة قصيرة عن بيتي. صمت الصباح يخرقه بكاء ونحيب أمي وهي تقول بصوت إنسى(*) فاجع: «يا حسرتي، يا ضيعانو». كانت تبكي بالقرب من سرير والدي يطوقها أخي بذراعيه. حين دخلت الغرفة قال لي الممرض: «العوض بسلامتك». انحنيت على وجه والدي، قبلته وغسلته بدموعي.

هل أتاني في الحلم ليقول لي إنه راحل؟ هل كان ذلك وداعه لي؟ لكن لماذا التوابيت الثلاثة؟ يا إلهي هل سيرحل معه أحد؟ خفت جداً، خفت على أمي وأخي وأولاده الذين كانوا في ذلك الوقت مع أمهم في فرنسا. سكنني القلق لمدة طويلة كنت أذعر خلالها كلما علمت أن أحداً من أحبائي مريض. الحمد لله، مرت سنون ولم يمت أحد ممن أحب. لكني ظللت أذكر ذلك الحلم من دون أن أفهمه، أنساه أحياناً وأحياناً أخرى وبخاصة في مراسم جنازة ما، يعود ويمثل أمامي.

حين عُلم في البلدة أن والدي قد توفي، أطلق أحد الأقارب ثلاث طلقات نارية متقطعة في الفضاء بعدها أمت الجموع دارتنا واشتعلت البلدة بالرصاص.

لم يظهر في الموكب الذي رافق والدي إلى مثواه الأخير سوى نعش واحد، نعش والدي. ووري الثرى ورحل إلى حيث لا ندري، إلى حيث لا أحد يدري. رحل ليبقى معي، يرافقني ويسكن ذاكرتي ويعود إلي في أحلامي الليلية وأحلام اليقظة. في كل تلك الأحلام

كنت طفلة أسير إلى جانب والدي في حديقة بيتنا في البلدة، أو أمسك بيده ونسير معاً في أزقة البلدة قبل أن نصل إلى أحد المقاهي، تلك المقاهي البدائية التي لم يُسمح للنساء بدخولها حين كنت طفلة. أرى نفسي معه في تلك المرحلة من حياتي التي قضيتها في لبنان قبل السفر إلى فرنسا، تلك المرحلة التي توزعت بين مدرسة الراهبات في الأشرفية في فصل الشتاء والضيعة صيفاً.

لماذا استفاقت تلك المرحلة في أحلامي، في لاوعيي؟ هل استفاقت لأنها تحمل معاني وانفعالات كبتّها في حينه؟ استيقظت البلدة في داخلي، سكنتني، أحببتها من جديد بعد أن ابتعدت عنها لفترة. موت والدي ردني إلى بلدتي، «الضيعة» كما أسميها عادة وكما سأسميها من الآن وصاعداً. موته ردني إلى تلك المشاعر الملتبسة واللذيذة في الوقت نفسه. لم يكن لي أصحاب أو أصدقاء في الضيعة سوى بعض الأقارب، أقارب والدي. الشخص الغريب الوحيد الذي دخل حياتي في تلك المرحلة، هو شاب تعرفت إليه في إطار المدرسة في بيروت. كان اسمه الأستاذ كامل.

بعد وفاة والدي وانتهاء فترة التعازي في الضيعة، عدنا إلى بيروت. والدتي لا تحب الضيعة وفي أغلب الأحيان كانت إقامتها فيها، في فصل الصيف، مجرد مسايرة لوالدي الذي هو على العكس منها يعشق الضيعة. ربما كان يشعر فيها بوجوده وبقيمته وبتميزه، بينما في بيروت هو رجل، صحيح ثري، لكنه مثل الكثيرين من أصحاب الثروات والمراكز المميزة. على العكس من والدي، كانت أمي تحب بيروت لأنها ولدت فيها، تعشق التسكع في أسواقها وشراء الملابس والمجوهرات. ظلت هكذا طوال حياتها حتى أن والدي في آخر سني عمره، وكلما اشترت والدتي ثوباً جديداً أو قطعة مجوهرات، كان يبتسم ويقول لي وهو يشير إليها: «تظن نفسها ما زالت في سن العشرين». فترد عليه بين المزاح والغضب: «وهو كذلك، هل يزعجك الأمر؟» ويجيبها: «لا، على العكس، أحب أن أراك دائماً أنيقة ومسرورة». هل كان يحب فعلاً ذلك أم أنه كان يحاول شراء سكوتها وتلافي فجورها فقط؟

عدنا إذاً إلى بيروت. بعد فترة التعازي في العاصمة، سافر أخي مع ثلاثة من أولاده وزوجته الذين كانوا قد عادوا إلى لبنان لتلك المناسبة. رافقتْ والدتي أخي وعائلته إلى

باريس وبقيتْ معي في بيروت ابنته ليال الصغيرة، بقيت معي لتمضية بعض الوقت في لبنان قبل أن يبدأ العام الدراسي في فرنسا. حين غادروا، شعرت برغبة في العودة إلى الضيعة، كنت أحب أن تتعرف ليال الصغيرة إلى ضيعة والدها، إلى ضيعتها.

كانت ليال الصغيرة في الرابعة عشرة من عمرها. حين عدنا إلى الضيعة أخذ الشبان الصغار يحومون حولها واستأثر باهتمامها واحد منهم. وهو شاب لطيف رافق ليال في نزهاتها وعرّفها إلى كل معالم الضيعة. في المساء كان يأتينا بالعنب والتين من كروم أهله، يأتينا أيضاً بالـ«عرانيس» التي نشويها على الفحم في السهرات. فرحت بذلك الشاب الذي أظهر اهتماماً كبيراً بليال. لقد أيقظ في ذاكرتي أيام حبي الأول، أيقظ في داخلي الضيعة وحبي للضيعة.

أهل الضيعة أصحاب نخوة. لم يتركونا لحظة واحدة لأننا كنا وحدنا، أنا وليال الصغيرة. شعروا أنهم مسؤولون عنا. لذا أحاطونا بعطف واهتمامٍ كبيرين. بين الذين ترددوا علينا شاب كان من أقارب الأستاذ كامل وهو شاب مندفع جداً حاول تلبية كل رغباتنا. ذات يوم من أيام إقامتنا القصيرة تلك في الضيعة، سألته عن أخبار قريبه الأستاذ كامل. ابتسم ابتسامة معبرة، أخرج من جيبه مفكرة وطلب من ليال ورقة وقلماً. سجل على الورقة عنوان الأستاذ كامل ورقم هاتفه ثم قال وهو يعطيني الورقة: «تستطيعين أن تعرفي أخباره مباشرة منه». أخذت منه الورقة ولم أعلق على الموضوع..

كان لي آنذاك من حياتي، صديق سويسري زارني بعد وفاة والدي، قدم لي تعازيه ودعاني إلى تمضية عطلة صغيرة في «كان» في جنوب فرنسا. كنت قد زرت ذلك الصديق مراراً وأقمت عنده في البيت وبدأت تنمو بيننا علاقة عاطفية من النوع الحر خارج قالب الزواج التقليدي. كان هو يعيش في عالمه وتجارته في سويسرا وأنا أعيش في بيروت في عالمي واهتماماتي ونلتقي حين نقرر ذلك، فنمضي معاً أوقاتاً ممتعة في كان أو نيس أو باريس أو ماربايا أو روما أو فنيز أو.... نمضي عطلة أسبوع أو أكثر ويعود كل منا إلى عالمه.

بعد وفاة والدي اتصل بي ذلك الصديق عدة مرات لكني لم ألبِّ دعوته إلا بعد فترة طويلة خلالها كان ينمو في داخلي شعور بضرورة الاتصال بالأستاذ كامل الذي يعيش وحده في مدينة ليون الفرنسية. قرابة عيد الميلاد وبعد اتصالات عديدة من صديقي السويسري قررت أن نلتقي فاتصلت به وأعلمته أنني آتية لتمضية العطلة بصحبته وأجابني: «نلتقي إذاً في «كان» ونذهب إلى مونتي كارلو و...الجنوب الفرنسي جميل جداً في الشتاء».

اتفقنا، وفي اليوم المحدد سافرت. حطت الطائرة في مطار شارل ديغول حيث كان علي الانتظار أكثر من ساعتين قبل أن تقلع الطائرة إلى نيس. تمشيت في المنطقة الحرة لفترة ثم خطر ببالي أن أتصل بكامل.

— ألو. .. سمعت صوته. لم يتغير هذا الصوت، لا زال صوت ذلك الشاب الوسيم.

— أنا ليال، كيف حالك؟

— ليال؟ هل هذا صحيح أم أنني أحلم؟ أين أنت؟

— أنا في باريس وخطرت ببالي، هل أزعجك؟

ضحك بصوت عالٍ متوترٍ وقال: «أنت تزعجينني! هيا تعالي إلى ليون».

— لا شكراً فقط أردت الاطمئنان إليك.

— إذاً آتي أنا إلى باريس، كم تبقين هناك؟

— لا، لا تعذب نفسك فأنا مسافرة الآن إلى كان.

— وكم تبقين في كان؟

— أبقى لأسبوع تقريباً.

— هل تعودين إلى باريس؟

— لا، أعود إلى روما ومنها إلى بيروت.

— متى تزورينني؟

— متى تزور أنت لبنان؟

— ما كنت أرغب في ذلك وبخاصة بعد أن توفي والداي، لكن الآن وقد سمعت صوتك سأذهب حتماً إلى لبنان خلال فصل الصيف عندما أنهي عملي في الجامعة.

— إذاً أراك في الصيف.

— حتماً. لكن ما هو رقم هاتفك في بيروت؟ سأتصل بك حين تعودين.

أعطيته رقم هاتفي، أقفلت الخط وركبت الطائرة إلى نيس حيث وجدت صديقي ينتظرني.

حياتي في الضيعة كانت حياة شقاء لكنه شقاء لذيذ شاركني فيه غالبية رفاقي. كنا في حالة فقر لا نحسد عليها. ثيابنا كانت رثة، من صنع وحياكة أمهاتنا. في الصيف كنا نحتذي «شاروخاً» وهو كناية عن قطعة مطاط أسود سميكة تُربط القدم إليها بواسطة حبال رفيعة تسمى «خيطان مصيص». أما في الشتاء فيتحول الحذاء إلى جزمة من المطاط الأسود أيضاً يؤتى بها من مدينة حمص حيث الأسعار رخيصة أو من بعض أسواق بعلبك الرخيصة أيضاً.

في فصل الشتاء كنت أذهب إلى مدرسة الضيعة خلال النهار وأساعد أمي في الطبخ وتنظيف البيت في المساء. أنا صغير أخوتي وتعطف علي والدتي بشكل مميز. لذا كنت دائماً ملازماً لها وأنام بالقرب منها في فراشها الدافئ الممدود على الأرض بالقرب من فراش أبي. أخوتي وأخواتي كانوا كلهم ينامون في غرفة واحدة على فرشٍ ممدودة على الأرض أيضاً. هذا ما كان يحصل في فصل الشتاء، أما في فصل الصيف فتنتقل الفرش إلى

السطوح ونرقد تحت النجوم التي، وبسبب جفاف الطقس، تبدو كثيرة جداً، بحيث تتحوّل السماء إلى ثريّا فخمة تتلألأ أينما وجهنا نظرنا إليها.

لكن الصيف بالنسبة إلي كان يعني أموراً أخرى لأنني أتحول إلى راعٍ لقطيع الماعز الصغير الذي يملكه والدي. في كل صباح أخرج من البيت بعد أن أكون قد ساعدت والدتي في المطبخ وأكلت بيضة مقلية أتيت بها من خم الدجاج بالقرب من البيت. أحمل في خرج صغير رغيف خبز وبعض حبات الزيتون، أخرج الماعز من الزريبة وأسرح بها نحو البساتين. نمر أولاً على بحيرة ماء في منتصف ساحة الضيعة. تتوقف الماعز لتشرب، فأشرب معها، أغسل وجهي بتلك المياه العذبة ونتابع مشوارنا إلى خارج الضيعة. أحياناً كنا نصل إلى منطقة بعيدة يسمونها النهر حيث الأرض خصبة لأنها بالضبط على ضفاف نهر صغير هو أحد روافد نهر العاصي الذي لا يبعد كثيراً عن «العين الزرقاء» والمغارة التي هرب إليها مار مارون.

ترعى الماعز العشب وآكل معها بعضاً من هذه الأعشاب مثل السلق البري والهندباء البرية والخبيزة والحميضة وغيرها، وآكل بعض الخضار. أحياناً أسرق من بعض البساتين حبة بندورة أو خيار أو باذنجان، أسرق أيضاً الفاكهة كالمشمش والتين والعنب وأجرح يدي وأنا أحاول الوصول إلى كبش توت من ذلك العليق الذي يسيج كل البساتين التي نسميها «الكروم». الطرقات إلى تلك الكروم كانت مفروشة بالحصى الملساء وتتحول في أغلب الأحيان إلى أنهر صغيرة لأن مياه الري تجري فيها قبل أن يحولها أحدهم إلى كرومه ليروي زرعه. لهذا السبب كنا في أغلب الأحيان، أنا والماعز، نغوص في الماء وأحياناً ألتقي بعض الرفاق ونمضي وقتاً ممتعاً محاولين السباحة في تلك المياه. للسباحة تلك لم يكن علينا سوى خلع الأثواب التي نرتديها وهي كناية عن «توب» كما يسمونه في الضيعة والـ«توب» يعني نوعاً من فستان طويل، لونه من لون التراب كي لا يظهر الوسخ عليه. كنا نرتدي ذلك الـ«توب» ليل نهار ولفترة طويلة حتى تصبح رائحته لا تطاق من كثرة العرق والوسخ، حينذاك نخلعه وتغسله لنا أمهاتنا بالماء الذي يسخن في صحائف سوداء من كثرة الاستعمال والموضوعة فوق لبنتين من الطين بينهما غصن يابس يحترق.

كنت أملك «توباً» واحداً. حين يتسخ، كانت والدتي تغسله في الليل وأرتدي في تلك الليلة شيئاً من ملابسها التي أحببت رائحتها. في الصباح أجد الـ«توب» جافاً بسبب جفاف الهواء وبخاصة أن بيتنا كان على باب الوادي الذي يأتينا بنسمة من أنعش النسمات ونسميها الشرقية، تلك الشرقية التي تشكّل دواءً لنا في أيام الحر. حين كنا نصعد على السلم الخشبي إلى السطح للنوم لم نكن نغفو قبل أن تنسّم الشرقية التي ترعى أحلامنا وأحياناً، حين تكون باردة، تؤذي بطوننا فنصاب بالإسهال في الصباح. لست أدري لماذا رافق دائماً هذا الإسهال شعور بالتهيج الذي يزداد كلما راقبت الماعز تتناكح أو كلما رأيت حمار الجيران يشب على حمارة أبي، أو حين كنت أرى الكلاب والقطط تقوم بالعمل ذاته. أهتاج وأحياناً أمارس ما تعلمت لاحقاً أنها العادة السرية.

كنت ورفاقي في الضيعة من الفقر لدرجة أننا لم نعرف ما هي لعب الأطفال. تسليتنا الوحيدة تسلق الأشجار أو صيد العصافير «بالنقيفة» أو اللعب بالـ«طابة» التي لم نرها على حقيقتها إلا حين أتى يوماً جهاد ابن الشيخ فارس ليلعب معنا. كان يحمل طابة من المطاط إذا ضربنا بها الأرض قفزت عالياً. في حينه طابتنا كانت كومة من القماش العتيق الملفوف بشكل بيضة كبيرة نتراشق بها، وأحياناً تؤذينا لأنها مرصوصة وثقيلة. حين أتى جهاد مع طابته رمينا طابتنا جانباً وتمتعنا بما هي كرة فعلية. أمام دهشتنا بلعبته، تحمس جهاد وقال: «سأتركها لكم، لدي غيرها في البيت». فرحنا جداً بكلامه وأصبحنا نجتمع كل يوم لنلعب بالطابة وبخاصة أن جهاد علمنا ألعاباً كثيرة، منها كرة السلة والـشولي بول والغولف أو كرة القدم، كلها ألعاب ما كنا نعرفها ولا سمعنا بها. أما الأطرف من كل ذلك فهو يوم أتانا جهاد وبيده طابة بيضاء صغيرة جداً وخفيفة جداً. مع الطابة تلك حمل قطعتين من الخشب بشكل راحة اليد. أعطاني إحداهما وأبقى الأخرى معه، ثم رمى بالطابة عالياً وضربها بالقطعة الخشبية نحوي وهو يقول: «هيا اقذفها باتجاهي، يجب ألا تقع الطابة على الأرض». هذه اللعبة استهوتنا بشكل مميز وأثارتنا أكثر حين دعانا جهاد يوماً إلى بيته ولعبنا بتلك الطابة الصغيرة على طاولة خضراء تقسمها شبكة بيضاء قليلة الارتفاع إلى نصفين. وقف جهاد في طرف من تلك الطاولة ووقف قبالته واحد منا وبدأ اللعب. في نهاية ذلك الصيف أصبحنا ماهرين بلعبة الـ«بنغ بونغ».

علمنا أن لجهاد أختاً صغيرة، لكنها كانت في أغلب الأحيان مع أمها في بيروت. جهاد وحده يرافق والده باستمرار إلى الضيعة، وأحياناً يأتينا ولونه أسمر داكن. نستغرب الأمر ونتساءل هل هو أيضاً يذهب مثلنا إلى الحصاد؟ ويأتينا جوابه: «إنه البحر». كم كنت أرغب برؤية البحر. أما نحن فسمرتنا الغامقة هي بفضل أيام الحصاد وما يتبعها من درس القمح وغيره.

في أيام الحصاد تلك، كنا نذهب كلنا إلى الكروم، كلنا، الصبيان والبنات ويرافقنا أولاد الجيران أو بعض الأقارب. نذهب إلى كروم واسعة مزروعة بالقمح أو الشعير وهي بالطبع ليست لنا، بل لأحد وجهاء الضيعة. كان والدي وأخي البكر يحملان المناجل التي يقطعان بها نبتة القمح على مسافة قريبة جداً من التراب. أما نحن الصغار فنلملم ما يقطعانه من سنابل ونجمعه في مكان حدده لنا والدي سابقاً. بعد عدة أيام تتحول الكروم إلى تلال صغيرة من السنابل الذهبية. وتبدأ مهمة نقل المحصول إلى البيادر. نأتي بحمارة والدي ونستعين ببغلة الجيران، نحمِّل على ظهريهما ضمات القمح وننتقل معهما إلى مكان محدد في سفح ذلك الجبل الذي تعلوه كنيسة قديمة. في ذلك السفح يوجد مساحات مسطحة وكبيرة نسبياً نرمي في جانب منها القمح. حين تنتهي مهمة النقل نستعد للدراسة وهي عملية نزع القشرة عن حبة القمح لتصبح صالحة للطحن أو للسلق لتصير بعد التجفيف والجرش، برغلاً للمؤونة في فصل الشتاء ولتحضير الكشك الذي شكّل العماد الأساسي لفطورنا كل يوم.

في فترة الدراسة تلك كانت بنت الجيران ترافقني إلى البيادر، نركب معاً في الصباح الباكر على ظهر بغلة أبيها ونتسلق الجبل إلى أن نصل إلى البيدر حيث كومة القمح اليابس تنتظر. بعد قليل يتبعنا والدي على ظهر حمارته. حين يصل، كان يربط بالبغلة قطعة خشبية مسطحة تسمى المدرج، نقف عليها مداورة أنا ورفيقتي وتجرنا البغلة فوق القمح الذي نكون قد رميناه على أرض البيدر والذي تُنزع القشرة عنه بسبب الضغط الممارس عليه. تنزع القشرة لكنها تظل مختلطة بالقمح ولذلك كنا ننتظر هبوب نسمة هواء قوية نسبياً لنقوم بالدراية وهي عملية ينجزها والدي، يرمي القمح عالياً في الهواء فيتطاير القش ويسقط القمح على الأرض. جمع القمح بعد ذلك في أكياس خيش كبيرة كان يقع دائماً

على عاتقي لأن رفيقتي، بنت الجيران، لم تحب يوماً هذا العمل. كنت أقوم به وحدي كي أكسب ودها وأسمع صوتها الجميل وهي تغني.

أيام الدراسة تلك كانت من أمتع الأيام. نركب المدرج ونبدأ بالدوران حول الساحة وفوق القمح ونحن نغني العتابا والميجنا. كنت أتبارى مع رفيقتي التي تحفظ الكثير وعلمتني الكثير من الأبيات وبخاصة ما يسمى في ضيعتنا الفراقيات. أحياناً كنت أبكي وأنا أستمع إليها تغني بعض هذه الأبيات التي تدور كلها حول حرمان الحبيب من حبيبته أو حول شاب فقير لا يُسمح له بالزواج من فتاة أحلامه لأنها من عائلة ثرية. حتماً رفيقتي تلك كانت مغرمة لأن غناءها كان يخرج من القلب. ربما كانت تبوح غناءً بما لا تستطيع البوح به كلاماً صريحاً. ووالدي يقول لها: «أﷲ يبعتلك ابن الحلال يا جميلة». اسمها جميلة وهي جميلة فعلاً. في أيام الدراسة تلك ولكي لا تفقد جمال لون بشرتها القمحي كانت تلف كل وجهها ورأسها بمنديل أبيض ولا نعود نرى من ذلك الوجه البهي سوى العينين الجميلتين. نحن نخفي وجوهنا من الشمس كي لا تسمر وجهاد يتباهى بالسمرة التي لوحت شمس البحور بها وجهه وكل جسده.

كانت المدرسة تستهويني بقدر ما يستهويني اللعب وربما أكثر. في الصفوف الابتدائية والتكميلية كنت من بين المميزين جداً لدرجة أن مدير المدرسة، الأستاذ نزيه، ردّد دائماً: «عليك أن تتابع دراستك، يجب أن نجد طريقة لكي تتاح لك الفرصة، أنت ولد ذكي وحرام أن تبقى جاهلاً».

الأستاذ نزيه كان شيوعياً، ناقماً على الطبقة الثرية ويريد للفقراء أمثالي أن يترقوا. أحببته جداً ووجدت فيه أباً روحياً. كنت أردد لوالدتي أقوال الأستاذ نزيه حول ضرورة متابعتي الدراسة، فتبكي، تضمني إليها وتقول: «من أين لنا يا حبيبي أن نوفر لك الدراسة في العاصمة؟ نحن بالكاد نكفي حاجاتنا الضرورية». تصمت قليلاً ثم تتابع: «عليك أن تدرس فوق السطوح». أفهم ماذا تقصد. إنها تقصد ذلك الشاب السوري الذي كان يعيش في ضيعتنا حينذاك ونراه دائماً يتمشى على سطح البيت الذي يسكنه وبيده كتاب. في آخر السنة ذهب إلى دمشق وتقدم من الامتحانات الرسمية لشهادة البكالوريا، ونجح. هكذا أصبح مثالاً لنا نحن الفقراء. على كل حال ذلك المثال ظل مثالنا لاحقاً لأنه أصبح من رجالات الفكر العربي المميزين.

«سأدرس على السطوح». أجبت الأستاذ نزيه مرةً. ابتسم وقال بهدوئه العادي: «لا أعدك بشيء أكيد، لكنني سأتعب جهدي لكي أؤمّن لك مدرسة تتابع فيها دراستك حتى المرحلة الثانوية، بعدها لكل حادث حديث».

ما كنت أعرف ماذا يدور في رأس الأستاذ نزيه إلى يوم من صيف سنتي الحادية عشرة. ذهبت في ذلك اليوم، كالعادة، مع الماعز إلى الكروم. بعد قليل من الوقت رأيت أخي الذي يكبرني مباشرة يركض نحوي. حين وصل بالقرب مني وهو يلهث، قال: «اترك كل شيء واذهب مباشرة إلى بيت الأستاذ نزيه، يريدك الآن فوراً. اترك كل شيء، أنا سأرعى الماعز». تركت، و«شمعت الخيط» كما يقولون في ضيعتي، أي أني ركضت بسرعة إلى بيت الأستاذ. وصلت والعرق يبللني. توجهت إلى غرفة الاستقبال في بيته. من العتبة رأيت كاهنين بلباسهما الأسود الطويل والياقات البيضاء النظيفة. ترددت في الدخول وخجلت من هندامي ومنظري ووسخي، لكن الأستاذ أنقذ تلبكي ودعاني للدخول غير آبه بما كنت عليه. دخلت، سلمت على الكاهنين محاولاً تقبيل أيديهما لكنهما تمنعا وواحد منهما

ظل يمسك بيدي ويمسّد على شعري المبلل وهو يسأل: «هذا هو كامل؟» ويجيب الأستاذ نزيه:

— إنه تلميذ مميز، حرام، لا بل من الظلم ألا يتابع دراسته.

— تعرف أننا نبحث عن عناصر لدخول الكهنوت.

كان الأستاذ لا يحب الكهنوت ولا الكهنة ولا الرهبان ولا كل ما يمت إلى الدين بصلة، لكنه أجاب:

— أعرف، أعرف، ربما كان كامل من المدعوين إلى رسالة الكهنوت، هذا سيظهر لاحقاً.

— طبعاً لا نستطيع أن نحكم عليه منذ الآن. لكننا نريد شاباً آخر معه. ثم توجه إلي وتابع: أما أنت يا كامل فاذهب إلى البيت واستعد. بعد يومين سنعود ونصطحبك إلى الدير.

بعد ذلك الحوار القصير بين الأستاذ والكاهن انتابني شعوران متناقضان؛ من جهة فرحت لإمكانية متابعة دروسي ومن جهة ثانية حزنت لمفارقة الضيعة وبخاصة أمي. لكن الشعور بالفرح هو الذي طغى للوهلة الأولى، فشكرت الكاهنين وعدت مسرعاً إلى البيت لأزف الخبر إلى أمي التي حتماً ستفرح به ولو تقطع قلبها لفراقي.

أخذت والدتي تعدد وهي تبكي ما عليها أن تحضره لي من ملابس داخلية وثياب وما إلى ذلك وفجأة دخل علينا الأستاذ نزيه وهو فرح جداً.

— الآن اطمأن قلبي، ستذهب إلى المدرسة — لم يقل الدير — وهناك أنت وهمّتك، عليك أن تحصِّل العلم أولاً، وإن هداك الله كما يقال، أصبحت كاهناً، وإن لا — وكان يود أن لا — فستعود إلينا مثقفاً وتقوم بتعليم الفقراء في ضيعتنا.

— شكراً يا أستاذ، قالت والدتي، أما الآن فسأحاول أن أحضر له ما هو بحاجة إليه.

— لا، لا تتعبي نفسك سآخذه معي غداً إلى حمص وسأشتري له كل شيء. علينا أن نسعى إلى تعليم أكبر عدد ممكن من شباننا غير القادرين على متابعة دروسهم بإمكانات أهاليهم.

هذا الأستاذ ظللت ممتناً له كل حياتي، لقد فتح أمامي أبواب المستقبل.

بعد يومين عاد إلى الضيعة أحد الكاهنين. كنت مع رفيقي عطا الذي اختير مثلي للذهاب إلى الدير، ننتظره في بيت الأستاذ نزيه. دخل علينا وهو يقول: «هيا، هل أنتما جاهزان؟» أجبنا معاً: «نعم يا أبتي». ركبنا السيارة المتوقفة أمام الباب؛ جلس الكاهن إلى جانب السائق وجلست مع عطا على المقعد الخلفي بعد أن وضعنا أغراضنا في صندوق السيارة. أقفلنا الأبواب، رسم الكاهن إشارة الصليب على وجهه ففعلنا مثله وقال: «والآن إلى حريصا فليرافقنا الله».

— هل سنرى البحر؟ سألته وأنا كلي حماسة.

نظر إلي بعطف وهو يبتسم، أدرك أنني لم أر البحر بعد، قال: «سوف نراه». وددت أن أسأله إن كان البحر كبيراً وما لونه وما شكله و...لكنني بلعت أسئلتي وأخذت أنظر من نافذة السيارة.

أخذت أراقب كل ما نمر به؛ قطعنا البلدة الأولى وهي البلدة الوحيدة التي أعرفها، زرتها مرة مع والدي على ظهر الحمارة. ثم تتالت البلدات التي قرأت أسماءها المكتوبة على إشارات على حافة الطريق في بداية كل واحدة منها. بين البلدة والبلدة فراغ، أراضٍ واسعة، منها المزروعة ومنها الأرض البور. في البعيد الذي لم يكن بعيداً جداً ارتفعت جبال جرداء. نظر إليها الكاهن الذي كنا نسميه: «البونا»، مد إصبعه مشيراً إلى حيث ينظر وقال: «هذه هي السلسلة الشرقية». كانت تلك السلسلة جبالاً داكنة اللون لكنها جميلة، وهي تحرس ذلك السهل الفسيح حيث الألوان الخضراء المتنوعة تتمازج مع ألوان التراب المختلفة.

لو مررت اليوم أيها القارئ لوجدت أن البلدات والقرى أصبحت متصلة ببعضها البعض، لقد تبخر الفراغ ما بينها لتحل مكانه البيوت التي منها المتواضع جداً ومنها

القصور الجميلة مع حدائقها المسيجة بالأسوار العالية. «إنه مال الحشيشة» كما يقول الجميع. الأمر ليس مستغرباً فالحشيش كان، ولست أدري إن لا يزال، يزرع على جانبي الطريق وكثيرون هم الذين كسبوا الكثير من العمل فيه والمتاجرة به بواسطة التهريب. هؤلاء هم بعض أثرياء منطقتنا الآن.

وصلنا إلى بعلبك. لم ندخلها، بل مررنا على الطريق الخارجية. كنت أود أن نزور القلعة التي طالما سمعت عنها. لكن البونا قال ومن دون أن نسأله: «سنزور لاحقاً قلعة بعلبك، سنجهز لها برنامجاً خاصاً». تابعنا المشوار وتتالى المنظر إياه مع طغيان اللون الأخضر كلما اقتربنا من مدينة شتوره. منها بدأت طلعة ضهر البيدر حيث أصبحنا نرى السهل من فوق. كان منظراً رائعاً، وما ضاعف روعته أني لمحت في لحظة خاطفة زرقة تلوح من بعيد. هل هو البحر؟ لم أجرؤ على السؤال والبونا ظل صامتاً. قطعنا مخفر ضهر البيدر وبدأ الهبوط نحو الساحل، كان هبوطاً ممتعاً؛ مررنا في المريجات ومنها توجهنا إلى صوفر حيث أغرمت ولا زلت مغرماً بتلك الطريق التي تظللها الأشجار العالية على حافتيها.

قبل أن نصل إلى تلك الطريق أمر البونا سائق السيارة بالتوقف. ترجلنا منها بالقرب من نبع ماء. شربنا من تلك المياه الباردة التي تنساب من فوهة قسطل يخرج من الحائط على حافة الطريق. كثيرون غيرنا توقفوا ليشربوا والبعض منهم عبأ أواني مختلفة الأحجام. شربنا، غسلنا أيدينا ووجوهنا قبل أن نعود إلى السيارة لمتابعة الطريق.

خرجنا من ذلك النفق الأخضر. خرجت من متعة لأتلقف غيرها بسرعة. هذه المرة لن يكذبني أحد، إنه البحر! كنت مندهشاً أنظر من النافذة حين التفت البونا إلي وقال: «ستراه بعد أكثر، سنمر بالقرب منه». وأتت إجابتي: «كم هو كبير! أليس له حدود؟». ضحك البونا وقال: «إحدى حدوده هي الشاطئ اللبناني، إنه البحر الأبيض المتوسط، سندرس لاحقاً عن كل البحار».

— وهل يوجد غيره؟ هل لكل بلد بحره؟
— ستعرف ذلك فيما بعد، لا تحرق المراحل.

أخذت أراقب كل مكان أرى منه البحر إلى أن وصلنا إلى بيروت. كنت أعرف أنها العاصمة. لم نمر فيها من الداخل بل مررنا كما فعلنا في بعلبك، على طريق جانبية. وصلنا إلى الشاطئ. انقلب المنظر تماماً. في سهل البقاع خضرة وألوان تراب مختلفة وسلسلة جبال جرداء، أما هنا فمن جهة بحر أزرق كما السماء ومن جهة ثانية جبل أخضر يكاد يطال السماء، بينه وبين الطريق بساتين الليمون والموز والبرتقال والأفندي و...كلها أسماء عددها على سمعنا البونا. كنت إلى حينه لا أعرف من الفاكهة سوى التين والعنب والمشمش والخوخ والتوت الشامي والرمان.

لم أنتبه كثيراً إلى البساتين، أخذتني زرقة البحر. ما أجمله! كنا في فصل الصيف و الوقت قد شارف على الظهيرة والشمس في قرص السماء. ماذا أرى من بعيد؟ أرى ناساً شبه عراة، منهم من يتمشى على الشاطئ، منهم من هو مستلقٍ على الرمل ومنهم من يسبح في الماء. جحظت عيناي، ماذا أرى أيضاً؟ أرى نساءً شبه عاريات ممددات على الرمل. وقفت إحداهن وتوجهت نحو البحر. رأيت عريها، رأيت ما هو ظاهر من نهديها، رأيت كل ساقيها حتى نقطة التقائهما التي كانت مستورة بلباس صغير. شعرت أن عضوي بدأ يتحرك، انتصب، خجلت من نفسي، لكن الأمر كان أقوى مني. خفت أن يلاحظ البونا ما يحصل لي ويؤنبني. نظرت إليه وإذ به يحدق مثلي بذلك الجسد العاري. هل انتصب عضوه هو أيضاً؟ لا أدري. المهم هو أنه نسيني في تلك اللحظة، تلك اللحظة التي أصبحت ترافق كل أحلام يقظتي. أصبح ذلك الجسد شبه العاري محور هواماتي وهو مصطلح لم أتعلمه ألا بعد زمن طويل حين ذهبت لإتمام دراستي في فرنسا حيث يسمونه Fantasme. سألتني إحدى العاهرات مرة بعد أن مارست الجنس معها في باريس: sur quoi tu fantasmes quand tu baises avec moi. يعني: «ما هي هواماتك وأنت تمارس الجنس معي؟».

كان هذا الشاطئ لمدينة أطلق عليها البونا اسم جونيه. منها توجهت السيارة صعوداً وأصبحنا نرى البحر والأجساد العارية من بعيد. أخذنا نتسلق الجبل الذي يعلو قمته تمثال السيدة العذراء وهي تسبل يديها نحو البحر.

— هل نصل إلى حيث التمثال؟ سألت.

— لا، لكن الدير قريب من ذلك المكان وسنزوره حتماً وباستمرار.

بعد وقت قصير نسبياً، توقفت السيارة في باحة كبيرة. لست أدري كيف امتلأ المكان بشبان يرتدون كلهم الثياب السوداء. ظننت للحظة أنهم قطيع ماعز كالذي كنت أرعاه قبل مغادرتي الضيعة. حين اقتربوا منا قالوا: «أهلاً بالرفاق الجدد». سألت رفيقي عطا: «هل أتوا بنا إلى زريبة ماعز؟» ضحكنا معاً، ترجلنا من السيارة وقادونا إلى الداخل حيث الجو ناشف وبارد: صالونات وقاعات وممرات و...كلها لا تشبه البيوت العادية. إنه الدير. وميزة الدير الأساسية هي الكنيسة. أول عمل قمنا به إذاً هو زيارة الكنيسة حيث تليت بعض الصلوات التي ما كنت أعرفها لكنني رددت كلماتها كالببغاء.

بعد الصلاة صعدنا إلى الطابق العلوي حيث دخلنا إلى غرفة كبيرة فيها عدد من الأسرة عليها فرش وأغطية بيضاء لم أر مثلها من قبل. أتى أحد الذين أصبحنا من رفاقهم الجدد، توجه إلي، قال وهو يشير إلى أحد الأسّرة: «هذا سريرك». توجه إلى عطا ودله على سرير آخر وهو يردد العبارة نفسها. ثم توجه إلى خزانة قرب الحائط، فتح أحد أبوابها وقال: «هذا المكان تضعان فيه أغراضكما وثيابكما. ما عدتما بحاجة إلى هذه الثياب، ابتداءً من الغد سترتديان المريول الأسود».

بعد التعرف إلى مكان النوم، جرني من يدي إلى غرفة كبيرة، في داخلها غرف عديدة صغيرة جداً ولكل غرفة باب. قال: «هذا الحمام، سأعلمك لاحقاً كيفية استعمال الماء الساخن». ثم توجه بي إلى زاوية حيث يوجد شيء أبيض لا أعرف ما هو، شكله مجوف وأملس يعلوه قسطل خارج من الحائط كالذي رأيناه في صوفر، لكن لا مياه تتدفق منه. قال: «اغسل يديك، سنذهب إلى تناول الغداء». نظرت إليه مستفسراً، كيف أغسل يدي؟ أين الماء؟ ضحك، مد يده إلى سكرٍ مركب على القسطل، حركه قليلاً وإذ بالماء يتدفق. كنا في الضيعة نتعاون على الغسيل؛ أحدنا يسكب الماء بواسطة «طاسة» نحاسية والآخر يغسل يديه أو وجهه أو غيرهما. لم تكن قد مدت بعد شبكة المياه إلى ضيعتنا. كنا نذهب إلى الساحة حيث البحيرة وأجران الماء، نملأ منها الصحائف للغسيل وجراراً فخارية للشرب.

كانت النسوة يحملن الأواني فوق رؤوسهن وينقلنها إلى البيوت. بعض الصبايا كن يتباهين بأنهن لا يسندن بأيديهن الجرة أو الصفيحة فوق رؤوسهن التي تبقى جامدة كل مسافة الطريق إلى البيت كي لا تقع عنها الحمولة.

غسلت يدي ووجهي وذهبت مع الرفيق الذي تعرفت إلى اسمه. كان اسمه شفيق. ذهبت معه إلى قاعة كبيرة فيها طاولات مستطيلة عليها أغطية بيضاء نظيفة كالثلج وحولها كراسٍ خشبية. تهيبت الأمر، لم أجلس مرة إلى طاولة لتناول الطعام. كنا نجلس على الأرض وتأتي والدتي بطبق كبير من القش وعليه إناء يسمى «أنغر» فيه الطعام. إن كان الطعام سائلاً، وزعت علينا أمي ملاعق خشبية وأخذنا كل بدوره يملأ ملعقته من الطعام ويأكل. إن كان ناشفاً، وزعت علينا الخبز نقطعه و«نغمس» به ما يوجد في الـ«أنغر». ووالدتي تذكرنا بأن نكبر الفك ونقلل الدسم. أي أن نكثر من أكل الخبز كي نشبع بسرعة لأن الطعام يكون عادة، قليلاً.

ماذا سأفعل الآن؟ أمامي صحن أبيض لماع وملعقة وسكين وشوكة. كيف سأتصرف؟ سأنتظر إلى أن يبدأ الآخرون ثم أحاول تقليدهم. لكن يبدو أن المشرفين على الدير كانوا يعرفون بجهلنا ولهذا السبب دربني شفيق على كل الأمور. علمني بحب كبير. كان معطاءً وحنوناً. ربما كانت أصوله تشبه أصولي ولهذا السبب عطف علي. لاحظت لاحقاً أنه يتعاطف مع الجميع. الكل تنبأ له بمستقبل جيد في رسالته.

أما الحدث الذي هز كل كياني فهو الضوء. حين غابت الشمس في ذلك النهار الطويل، وبدأت تحل الظلمة، تساءلت كيف يمكن إضاءة كل هذا المكان؟ في الضيعة كنا نشعل سراجاً على الكاز تقوم والدتي بغسل بلورته وتفحص فتيله كل يوم. نشعل السراج ونمضي سهرتنا على ضوء خافت. بالكاد كنا نرى بعضنا داخل الغرفة. كيف سيضيئون هذه الغرف الكثيرة وكل الدير؟ لم أر سراجاً في أي مكان. كنت أفكر بتلك المسألة حين فوجئت بإنارة الدير دفعة واحدة كأن ساحراً نفّذ ذلك. شعشعت كل الغرف والممرات وحتى الساحة الخارجية، شعشعت كلها بنور كاد يبهر عيني. اعترتني الدهشة بل ذهلت حين رأيت قناديل صغيرة شفافة مربوطة إلى السقوف بحبال رفيعة تشع كالنجوم في السماء وتملأ

الغرف بنور كنور الشمس. علمت بعد أن عدت من دهشتي أنها الكهرباء، تلك النعمة التي لم نتمتع بها في الضيعة إلا بعد عشرات السنين.

الحياة في الدير عملية تناوب بين الصلاة والتعلُّم والأكل وممارسة الرياضة. الصلاة هي دائماً المدخل إلى أي نشاط. حتى النوم يعتبر نشاطاً ولهذا السبب تلاوة الصلاة قبله كانت أمراً ضرورياً نسلّم بواسطتها أنفسنا إلى الله.

صلينا في نهاية النهار الأول وأوينا إلى أسرّتنا. لا أستطيع أن أصف أول ليلة أمضيتها في الدير ؛ نمت على سرير وحدي. لم يحصل لي ذلك في حياتي كلها. كنت أندسّ قرب أمي في فراشها على الأرض. كان دفئها يكفيني ولو في عز البرد. لم أشعر بالدفء تلك الليلة مع أننا كنا في فصل الصيف. أمضيت كل الليل صاحياً وعلى حدود الارتجاف من البرد. هل هو البرد؟ لا! إنه ذلك الانتقال السريع عبر الزمن؛ ففي يوم واحد قطعت مسافة سنين عديدة، قطعت المسافة والزمن بين قنديل الكاز ولمبة الكهرباء. هل يعقل أن يتم ذلك بساعات قليلة؟ إنه أمر يهد حتى الأبطال. قطعت أيضاً المسافة بين قضاء الحاجة في الخلاء ومسح المؤخرة بحجر صغير ورميه بعيداً ودورة مياه مغلقة وورق صحي وتدفق مياه يجرف كل شيء...

هل تتصور أيها القارئ شدة البرد الذي لفني تلك الليلة في الدير؟ لم أستطع في تلك الليلة سوى البكاء. بكيت كثيراً وأجهشت بالبكاء. استيقظ شفيق، أتى إلي وقال: «كلنا بكينا في الليلة الأولى». هل بكوا مثلي من عبور الزمن، هذا العبور السريع الذي فاق طاقتي على التحمل؟

تعلمت لاحقاً أن كل شيء على الأرض مكون من الكاربون، أي من الفحم. تعلمت أيضاً أن الألماس هو نوع من الفحم المصقول، يعني أن الفحم قد تحول إلى ألماس يبهر العيون. تعلمت أيضاً أن هذا التحول تطلب قروناً من الصقل والعمل. تعلمت أيضاً أن ما أصابني في تلك الليلة في الدير هو الذهول أمام سرعة الانتقال من العصر الحجري إلى الحداثة، من الفحم إلى الألماس في يوم واحد. هذا الانتقال السريع ترك أثره فيّ إذ إنه جاور

في داخلي وفي بنيتي بين العنصرين اللذين بقيت أحملهما كل حياتي. ظللت أحمل رائحة الفحم.

اعتدت لاحقاً على كل ما أثار دهشتي في الأيام الأولى في الدير واعتدت على النوم في سرير وحدي. لكن هذه الوحدة الليلية تسببت لي باكتساب عادات لم أعرفها من قبل. كلما أويت إلى سريري في المساء، حضرت أمامي صورة تلك الصبية شبه العارية التي رأيتها على شاطئ مدينة جونيه، فينتصب عضوي وأمارس العادة السرية بصمت وهدوء كي لا يلاحظ أحد ما أقوم به. حين أنتهي كنت أنسلّ من السرير وأذهب إلى الحمام لأغتسل من دون أن أوقظ الآخرين. هل الآخرون كانوا يفعلون مثلي؟ ربما.

أول ما تعلمناه في الدير هو المبادئ الأساسية للحياة الكهنوتية. من بين تلك المبادئ العفة والعزوبية. كلما أويت إلى فراشي فكرت بتلك المبادئ وتساءلت: «هل يعقل أن يستطيع الكاهن إلغاء حياته الجنسية؟ أن لا يتزوج فهذا أمر سهل لكن أن لا يمارس العادة السرية فكيف؟ أين يذهب بتلك المادة التي يفرزها الجسد وأين ينفّس ذلك الضغط في أسفل البطن حين يهتاج وهو حتماً يهتاج، إلا إذا كنت أنا غير طبيعي». وأجيب نفسي: «لا وألف لا، أولاً أنا إنسان طبيعي جداً وثانياً، للكاهن حياة جنسية كما غيره من الناس. لكن كيف يمارس هذه الحياة؟».

ظل السؤال عالقاً في ذهني إلى أن بدأت، بعد فترة، أسمع ما تلوكه الألسن من قصص حول بعض الرهبان أو الكهنة مثل: فلان يعشق فلانة زوجة فلان. فلان من الرهبان يعشق فلاناً من التلامذة الصغار الجدد. فلان من التلامذة القدامى يمارس كذا مع التلميذ الفلاني الجديد. كانت تلك الأخبار تتداول همساً. نسمعها ونصمت. نسمعها من دون أن نرى شيئاً. لكن لا دخان من دون نار، كما نعلم.

للابتعاد عن هذا النوع من الهموم والأسئلة وللتقليل من الهمس، كان لا بد من إرهاق التلاميذ بنشاطات تبعدهم قدر الممكن عن هذا العالم القاتم الذي تدور أحداثه في ظلمة الليل، في الأسّرة وفي الزوايا المعتمة. السير والرحلات لساعات وساعات وأحياناً لأيام هو الدواء. على كل حال كان دواءً ممتعاً، تعرفنا من خلاله إلى كل منطقة كسروان وأحراشها

ووديانها وجبالها. أجمل ما أذكر من هذه الرحلات، تلك التي أوصلتنا إلى عيون السيمان حيث يخيم بعض أهالي الضيعة مع أغنامهم ومواشيهم. أمضينا تلك الليلة على قمة جبل صنين حيث كرّمنا أهل الضيعة، نحروا لنا الخراف، أطعمونا من لحمها المشوي على الحطب وآوونا في خيامهم حتى الصباح قبل أن نتابع رحلتنا نحو سهل البقاع لزيارة قلعة بعلبك وعنجر وغيرهما. تلك الرحلة كانت الأطول والأمتع بين كل الرحلات التي قمنا بها خلال كل فترة إقامتي في الدير.

أقمت في الدير سنوات عديدة حصلت في نهايتها على شهادة البكالوريا القسم الأول وأصبحت في الثامنة عشرة من عمري. إنها سن الرشد في عرفنا. بعد نتائج الامتحانات في بداية صيف تلك السنة، دعاني رئيس الدير إلى مكتبه وجّه إليّ السؤال الذي لم أدر حتى الآن إن أحسنت الإجابة عنه أم لا.

— هل تريد أن تصبح كاهناً؟ قال بكل جدية.

— أريد.

— وهل ترغب؟

ارتبكت وترددت للحظة أتساءل لماذا هذا الإلحاح وهذا الإحراج؛ لقد تعلمت في الدير وأدين له بالكثير فهل ألغي كل شيء بجواب سريع؟ لاحظ الرئيس حيرتي، قال:

— عليك أن تريد وترغب، الإرادة وحدها لا تكفي. الكهنوت رسالة ودعوة والرسالة تتطلب الرغبة لا بل الـPassion، قالها بالفرنسية. توقف قليلاً ثم تابع: لقد راقبناك كل هذه السنين ولاحظنا أنك تبذل جهداً ممتازاً في كل الأنشطة لكن يبقى السؤال الذي لا يستطيع أحد الإجابة عنه سوى أنت: هل ترغب في أن تصبح كاهناً؟

— لا! أجبته ورأسي منحنٍ نحو الأرض لا أجرؤ على النظر إلى وجه السائل.

— حسناً، وفقك الله في حياتك. على كل حال لقد اكتسبت تربية مسيحية جيدة أتمنى أن تحافظ على مبادئها في حياتك المدنية الحرة التي تبدؤها منذ هذه اللحظة. أما الآن فتستطيع أن تحضر نفسك للعودة إلى الضيعة حيث تبدأ مرحلة جديدة من حياتك.

أردت أن أعبر عن امتناني لكل ما قاموا به في الدير من أجل تعليمي وتربيتي، أردت أن أعبر عن تقديري لتفهم الرئيس عدم رغبتي بالحياة الكهنوتية، لقبوله بسعة صدر رفضي الفج لحياتهم. اقتربت منه وحاولت أخذ يده لأقبلها لكنه رفض وقال:

— الكهنوت دعوة ولا خجل من عدم امتلاكها أو عدم سماعها بالأحرى، بل نستطيع أن نكون قدوة أينما وجدنا، المهم أن نصغي دائماً إلى صوت المسيح، داخل الدير أو خارجه. ربت كتفي وتابع: لا تخجل، نحن قمنا بواجبنا وعليك أنت الآن أن تبيِّض وجهنا بين الناس.

عدت إلى الضيعة لكني عدت مسلحاً بشهادة ندر من حمل مثلها من شبان الضيعة في تلك المرحلة. عدت إلى الضيعة وبقي عطا في الدير وأصبح كاهناً. في الضيعة عادات جميلة منها زيارة كل من يعود إليها بعد فترة غياب. لهذا السبب أمّ كل الناس بيت أهلي للسلام على كامل الذي عاد من الدير بعد غياب سنين طويلة. العبارة التي رددها الجميع تقريباً كانت: «تركتنا ولداً صغيراً وعدت إلينا رجلاً، الحمد لله على رجوعك بالسلامة».

من بين الزائرين كانت جميلة وابنتها الصغيرة وكان طبعاً الأستاذ نزيه الذي فرح بعودتي هو صاحب الميول الشيوعية. كان يعرف وكان يرغب بألا أدخل سلك الكهنوت كما يسميه. حين عانقني قال: «من الضروري أن أكلمك، الفرصة الآن غير متاحة أمام الناس، زرني في أول فرصة». بعد أيام، انتهى تدفق الناس إلى بيت أهلي. زرت الأستاذ نزيه الذي عرض علي التدريس في المدرسة الابتدائية التي هو مديرها والتي تعلمت فيها قبل ذهابي إلى الدير. كنت سأطلب ذلك منه لو لم يعرضه علي. لكن المدرسة تلك، هي مدرسة رسمية وكان علي القيام بتقديم طلب إلى الإدارة ومنها إلى... ثم إلى... عبر معاملات طويلة ما كنت أعرف كيف السلوك في دهاليزها. لكن الأستاذ نزيه ساعدني وتابع كل المعاملات وانتهى الأمر بأن أصبحت مدرساً في تلك المدرسة التي تخرج منها كل شبان الضيعة تقريباً. أصبح أهل الضيعة ينادونني الأستاذ من دون أن يلفظوا اسمي، بينما بالنسبة إلى الأستاذ نزيه تُبعت كلمة أستاذ دائماً بكلمة نزيه وهكذا حصل التمييز بيننا.

حين تقاضيت أول راتب فرحت به جداً وأردت أن أقدم هدية لوالدتي. كانت الهدية «بابوراً على الكاز» كالذي رأيت مثله في الدير. حين أتيت به إلى البيت، علّمت والدتي على طريقة استعماله. شكرتني قائلة: «كثّر خيرك والله يوفقك، عميت عيوني من دخان الحطب». من الراتب الثاني أتيت لها وللبيت بـ«لوكس» لإنارة سهراتنا ولياليـنا. حين أشعلته في الليلة الأولى، فرحت أمي به وفرحنا كلنا. علقناه في سقف غرفة السهرة التي تتحول إلى غرفة نوم في آخر الليل وتركنا قنديل الكاز في المطبخ. نظرت أمي إليه وقالت: «الله ينورها عليك ،وتابعت: أظن أن لا أحداً في الضيعة يملك ما أتيتنا به سوى بيت الشيخ فارس أطال الله عمره».

في صيف تلك السنة، التقيت مجدداً بجهاد ابن الشيخ فارس. أصبح شاباً في الخامسة عشرة من عمره وقد أنهى الصف الأول ثانوي وسيتقدم إلى امتحانات البكالوريا قسم أول في السنة القادمة. التقينا كأصدقاء، فأنا الآن ندّ له لجهة التحصيل العلمي. من خلال رفقتي له استطعت دخول بيته. كان وحده مع والده كالعادة يمضيان وقتاً من الصيف في الضيعة. لكني رأيت عندهم «لوكسات» «وبوابير» على الكاز. لقد صدقت والدتي.

درَّست في الضيعة مدة سنتين شجعني خلالها الأستاذ نزيه على متابعة تحصيلي العلمي. كنت أحاول. أتيت بالكتب المخصصة للبكالوريا القسم الثاني فلسفة ودرستها على نفسي. درستها ببطء لأنني كنت متشوقاً للتمتع بالحياة وأسهر كل ليلة مع الرفاق، نشرب العرق ونأكل ما تحضره لنا أمهاتنا من مأكولات شهية. كنت مسروراً بأن أجد مالاً بين يدي، مالاً أتقاضاه في نهاية كل شهر. أخذنا نطارد الصبايا وندعوهن إلى السهرات ونتبارى أمامهن بالعتابا والميجنا والزجل ونغتبط جداً إن سمحت لنا إحداهن بلمس يدها أو شعرها أو غيرهما مما هو ظاهر من جسدها. في أغلب الأحيان كنا نكتفي ببعض النظرات المعبرة.

أمضيت إذاً سنتين على تلك الحالة. في بداية الفصل الثاني من السنة الثالثة أرسلت خالتي الراهبة، رئيسة مدرسة الراهبات اليسوعيات في بيروت في طلبي لزيارتها على عجل. خالتي تلك هي حقاً مميزة. دخلت الدير وهي طفلة، تعلمت ونالت شهادات عالية مكنتها

من أن تصبح رئيسة لمدرسة من أهم مدارس بيروت. استأذنت الأستاذ نزيه الذي وافق بسرعة على طلبي وتوجهت إلى بيروت. كان ذلك مشواري الثاني نحو العاصمة التي لم أزرها في المرة الأولى. لذلك تهيبت الأمر لكن الأستاذ نزيه شجعني وأعطاني بعض التوجيهات لأنه كان قد زار العاصمة مرات عديدة. كانت الرحلة تتم بالـ«بوسطة» التي تقلع باكراً جداً من الضيعة لتعود إليها في المساء. لم يكن أحد في الضيعة يملك سيارة سوى الشيخ فارس الذي كان لديه سيارتان وسائق.

١

في بداية الفصل الثاني من السنة الثالثة للمرحلة التكميلية في مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في الأشرفية ساءت صحة أستاذة اللغة الفرنسية، الأمر الذي دعاها للتغيب عن الصف لمدة أسبوع في البداية. أخذت الراهبة الرئيسة مكانها في ذلك الوقت. انقضى الأسبوع الأول وتلاه الأسبوع الثاني والأستاذة على حالها من المرض، الأمر الذي دفع الرئيسة إلى التفكير جدياً باستبدالها لأنها لم تكن قادرة، نظراً لمسؤولياتها الكبيرة، على متابعة التدريس. في نهاية الأسبوع الثاني، قالت لنا: «سآتيكن بأستاذٍ جديد بينما تتعافى الآنسة غادة. نتمنى لها الشفاء العاجل، سنصلي لأجلها». فهمنا من كلام الرئيسة أن وضع الآنسة غادة الصحي ليس جيداً وربما تأخرت في العودة إلينا. استأنا من الموضوع لأننا كنا نحب تلك الأستاذة، ومن دون أن نصرح بما نشعر به تم اتفاق ضمني بيننا على اتخاذ موقف عدواني من الأستاذ الذي ستأتي به الرئيسة.

٢

حين رأتني خالتي قالت من دون مقدمات: «ستنقذني يا كامل من ورطة كبيرة، أستاذة اللغة الفرنسية في السنة الثالثة تكميلية، مريضة جداً، حالتها سيئة، لا أظن أنها ستستطيع متابعة عملها عما قريب...» فهمت ماذا تريد مني وأجبتها من دون تردد: «أنا جاهز لإنقاذ الوضع، الأمر يناسبني لأنني أريد متابعة هذه السنة في إحدى المدارس و...تابعت هي: «تريد مني أن أساعدك في الموضوع. لا تهتم سأكلم مدير مدرسة الليسيه، أعرفه جيداً، لن يرفض طلبي. لكن كيف ستوفق بين التدريس عندنا وبين متابعة الدروس في الليسيه؟».

— لا يهمني متابعة الدروس، لقد أمضيت سنتين وأنا أحضر البرنامج، كل ما يهمني الآن هو أن يتم تسجيلي في إحدى المدارس لكي أتقدم باسمها في آخر السنة إلى الامتحانات الرسمية. سأدرس على نفسي وسأحاول أن أوفق بين ساعات التدريس هنا وبين ساعات إعطاء الدروس في الليسيه، سأحضر منها ما أستطيع، لن أخيب أملك بي إطلاقاً. متى نبدأ؟

— سأتصل الآن بالمدير، مدير الليسيه لكي يتم تسجيلك بأسرع وقت، وأنت أيضاً ستباشر بأسرع وقت. صمتت قليلاً كأنها سمعت ما يجول في خاطري ثم تابعت: «لا تقلق سأرتب لك مسكناً بالقرب من الدير، لا تهتم للموضوع، كل شيء سيكون جاهزاً. عليك فقط أن تعود الآن إلى الضيعة لتوضيب أغراضك والعودة غداً من دون تأخير».

٣

كنا في الصف ننتظر مجيء الرئيسة والفوضى تعم القاعة حين دخلت علينا يرافقها شاب وسيم. فجأة ساد الصمت وانصبت أنظارنا على الوافد إلينا لا ندري من أين.

— إنه الأستاذ كامل. قالت وهي تشير إليه، سيكون هو أستاذ اللغة الفرنسية ابتداء من الآن. أريد انضباطاً كاملاً، أية مخالفة لقواعد المدرسة تودي بمرتكبتها إلى إبعادها عن الصف على الأقل لمدة أسبوع. المخالفة الثانية عقابها الطرد، مفهوم؟

— نعم. أجابها الجميع بمن فيهم الأستاذ الجديد.

— سأتركك الآن، لقد أعلمت الأستاذ كامل أين وصلنا في البرنامج وهو سيتابع. رفعت إصبعها وتابعت بلهجة تهديد: «لا أريد أية مشاكل».

٤

انصرفت وأغلقت الباب وراءها. صعدتُ إلى المنبر، وقفت وراء المكتب وجلت بنظري على التلميذات. كن كثيرات، يفوق عددهن الثلاثين. وقع نظري على تلميذة بدت لي كالشمس المشرقة. تسمر نظري عليها للحظة نسيت فيها حالي، كنت فيها مبهوراً وسمعت نفسي أسألها: «ما اسمك يا آنسة؟». كانت تجلس في الصف الأمامي من المقاعد. حين سمعت سؤالي وقفت وأجابت بكل تهذيب: «اسمي ليال... يا أستاذ». انتبهت إلى ذاتي وقررت أن أسأل الجمع عن أسمائهن كي لا يفهم سؤالي لليال على حقيقته، وبخاصة أنني

لاحظت بعض الابتسامات المعبرة على وجوه الكثيرات منهن. قالت كل واحدة اسمها وأنا شارد لا أنتبه إلا إلى دهشتي من رؤية تلك الصبية الجميلة وانجذابي التلقائي إليها. حين انتهين كنت لا أزال شارداً أنظر إليها. لم يردني إلى الواقع إلا الصمت الذي جعلني أدرك أن عملية الإجابة عن سؤالي قد انتهت فأكملتها بـ: «وأنت اسمك ليال».

٥

لا أدري ما هو الشعور الذي انتابني حين رأيته يدخل علينا مع الرئيسة. حين نظر إلي وسألني عن اسمي كدت أنسى اسمي ولم انتبه إلى ما قلت، هل لفظت اسمي أنا فعلاً؟ لا أدري. سأل جميع البنات عن أسمائهن، لم يخصصني وحدي بالسؤال، لكنه كان ينظر إلي أنا.. هل شعر حين رآني بما شعرت به حين رأيته؟ بدأ الدرس وأخذ يشرح لنا موضوعاً محدداً وأنا غارقة في تساؤلاتي حوله. إنه يسترق النظر إلي وحين تلتقي نظراتنا يبتسم وتلمع عيناه من تحت النظارات الشفافة التي لا تخفي عينيه بل تعطيهما بريقاً إضافياً.

— ليال، أعربي الجملة التالية....

هل خصني بالسؤال لأنه لم يحفظ إلا اسمي؟ أم أنه لاحظ شرودي وعدم تركيزي فأراد أن يردني إلى الواقع وأن يبعدني عن الأحلام غير الواقعية؟ تلعثمت بالإجابة فساعدني وهو يبتسم كأنه أدرك سبب ارتباكي أو كأنه يريد أن يظهر لي أنه يعرف سببه. كم بدا وسيماً وهو يبتسم ويزمّ عينيه من وراء النظارات! كم وددت أن لا تنتهي فترة الدرس، لكن الجرس رن، فلملم أغراضه وانصرف وهو يقول لنا: «إلى الغد، ادرسن جيداً».

٦

تمنيت أن لا ينتهي الوقت، لكنه انتهى وتركت قاعة التدريس. توجهت مباشرة إلى مكتب خالتي. طرقت الباب ودخلت من دون انتظار. كانت وحدها تقرأ في بعض الدفاتر أمامها. رفعت نظرها وسألتني: «كيف تم الأمر؟».

— كل شيء على ما يرام، لكن بربك من تكون تلك الفتاة، ليال؟

ابتسمت وقالت: «إنها بنت الشيخ فارس، فارس الـ...، ابن بلدتنا.

— الشيخ فارس؟ هو نفسه صاحب القصر الكبير في وسط البلدة وصاحب النفوذ والمال الكثير؟ هي شقيقة جهاد؟

— هو نفسه... فلا تحلم كثيراً. أدخل الشيخ ابنته عندنا لأن والدتها التي هي مسيحية كما تعرف، أرادت أن تُربّى ابنتها عند الراهبات. تعلم أن كل تلميذاتنا هن مسيحيات، ليال هي الاستثناء الوحيد، لكنها تلميذة جيدة وفي غاية التهذيب. نحن نعاملها بشكل يترك لها كل حريتها في ممارسة متطلبات دينها، لكنها تصر على حضور القداس معنا ومتابعة صف التعليم المسيحي مع أنني أفهمتها أنها حرة في استعمال ذلك الوقت كما تريد. تفعل كل ما تفعله الأخريات ولا أحد يلاحظ أنها مسلمة. هل ترى دور الأم وتأثيرها؟ هي عندنا هنا نصف داخلي، يأتي بها السائق صباحاً، تتناول الغداء معنا، وعند الساعة الخامسة يعود السائق ليقلها إلى بيتها في رأس بيروت.

تابعت خالتي كلامها وأنا غارق في ذاتي أفكر بتلك الصدمة التي حدثت لي عندما لمحت ليال. كانت نوعاً من الرعشة التي تطال البدن كله وتخدر الفكر حيث لا يبقى سوى الدهشة.

— هل فهمت الآن من هي ليال؟

— فهمت. إنها جميلة جداً... مبهرة... أصبت بالدوار حين رأيتها...

— لا تسترسل وإلا سأعتبر أنك لن تستمر في التدريس هنا.

— لا، أرجوك، سأتابع وسأدرس مادة أخرى مع اللغة الفرنسية إن أردت.

ضحكت خالتي الرئيسة وقالت: «لا أسمح بأي سوء تصرف وبخاصة مع ليال وأهلها. مفهوم؟».

— مفهوم. أعرف الآن كل شيء وأقول لك مرة أخرى لن أخيب أملك.

٧

خرج الأستاذ كامل من القاعة حين قرع الجرس، خرج بسرعة وتبعته بعض التلميذات، وقفن أمام الباب ورافقنه بأنظارهن. بعد قليل عدن، تجمعن حولي وبدأن بالتعليقات التي أتت على الشكل التالي وإن لم يكن بالترتيب نفسه:

— إنه شاب وسيم حقاً.

— دخل غرفة الرئيسة ليعطيها تقريراً عن سلوكنا.

— هل لاحظتن نظراته إلى ليال؟

أجابت أكثر من واحدة معاً: «طبعاً، طبعاً». تابعت إحداهن: «الأمر كان مفضوحاً». وأكملت: «من المؤكد أنه أغرم بها — هل لاحظتن أنه لم يحفظ إلا اسمها؟».

استمعت إليهن من دون تعليق. لكنني سررت بما قلن وأتت إجابتي استنكاراً ورفضاً قاطعاً لكل ما وصفته بالتوهم والتخيل لأنني لم ألاحظ إطلاقاً ما لاحظن. سمعت من بعيد صوتاً يقول: «ما هذا الخبث!».

ما قلته لم يكن دليل خبث بقدر ما كان إخفاءً لخجلي ولخوفي من أن الأستاذ كامل لم يعجب بي فعلاً. استبقت الأمور كي لا أظهر كالبلهاء إذا تبين أن كل ما لاحظنه كان خطأً.

٨

تركت المدرسة وتوجهت نحو البناية التي كانت خالتي قد استأجرت لي فيها شقة صغيرة. لم تكن البناية بعيدة عن المدرسة. بعد ثلاث دقائق من السير على الأقدام، دخلت شقتي المؤلفة من صالون صغير وغرفة نوم وحمام. في إحدى زوايا الصالون وضعت خزانة صغيرة لحفظ الطعام تسمى «نملية» وعلى طاولة صغيرة بابور على الكاز. هذه الزاوية شكلت المطبخ. في الزاوية المقابلة، وضعت طاولة صغيرة مستديرة وكرسيان. هذه الزاوية اسميتها غرفة الطعام. أما الطرف الثاني من الصالون فكان ينتهي بباب زجاجي أمامه ستائر عسلية اللون. هذا الباب هو مدخل لشرفة صغيرة جداً، هي أجمل ما في الشقة كلها لأنها تطل على حديقة هي أيضاً صغيرة وفيها بعض أشجار الخوخ الأبيض الذي يسمى على الساحل «جررنك». لم أكن قد ألفت هذا المكان بعد، لم أمض فيه سوى ليلة واحدة. رميت كتبي على طاولة السفرة وارتميت على إحدى الكنبات في الصالون. رفعت رجليّ ومددتهما على الطاولة الموجودة أمام الكنبة، استرخيت وأخذت أحلم. ليال سكنت كل حلمي، كانت أمامي بقامتها الممشوقة ولو الصغيرة، بعينيها المشعتين وبضفائرها الذهبية الطويلة. أدنيتها مني، ضممتها إلي وحاولت لثم شفتيها المكتنزتين، لكنني تلمظت، بلعت ريقي وعدت إلى الواقع. نهضت من مكاني، توجهت إلى المطبخ، أحضرت فنجان قهوة وخرجت إلى الشرفة. وضعت الفنجان على الحافة التي تسيج الشرفة، أتيت بكرسي وجلست

أتأمل الطبيعة. كنا في بداية فصل الشتاء والأشجار عارية من أوراقها الخضراء لكن بعض أغصانها كان يصل إلى مستوى الشرفة لأن الشقة هي في الطابق الأول. استكشفت المكان وإذ بي أرى مبنى المدرسة، رأيت منها الطابق العلوي فقط. «من السطح حتماً سأتمكن من رؤية الملعب». قلت لنفسي وصعدت فوراً إلى السطح إلى الطابق الثالث. انبسط ملعب المدرسة أمامي لكنه كان فارغاً، كانت الطالبات داخل قاعات التدريس. فرحت جداً لهذا الاكتشاف وقررت أن أخفي الأمر تماماً عن خالتي.

٩

بعد التعليقات السابقة خرجنا إلى الممر الطويل الذي يفصل بين قاعات التدريس ومكتب الرئيسة وتوجهنا نحو الملعب لتمضية الفرصة التي تفصل بين درسين. رأيناه يخرج من مكتب الرئيسة. لم يلتفت إلى الوراء، توجه مباشرة إلى المخرج. تجاهلت الأمر لأن رفيقاتي همهمن بصوت عالٍ مما دفعني إلى تحويل نظري عنه كأنني لم أره. كنت أود أن أنظر إليه أن أتبعه من بعيد أن أعرف إلى أين يذهب، لكنني كابرت وسبقت زميلاتي إلى الملعب. تبعنني بعد أن تواري عن أنظارهن وعدن إلى التعليقات من جديد. غضبت منهن لكنني كظمت غضبي إلى أن انتهى النهار وعدت إلى البيت حيث دخلت غرفتي واختليت بنفسي. ارتحت من نظراتهن واستسلمت لأحلامي من دون رقيب. كان أمامي ينظر إليّ، يمد لي يده، يأخذ يدي، يدنيني منه، أنظر في بريق عينيه، أشعر برعشة في كل جسدي. ضمني إليه، وثغره اقترب من ثغري حين طُرق الباب ودخلت والدتي: «هيا، العشاء جاهز يا حبيبتي». في العادة كنت أركض إليها أضمها إلى صدري وأقبلها. أما اليوم فتجمدت مكاني ونظرت إليها بانزعاج شديد. «ما بك حبيبتي؟ هل تشكين من شيء؟». اقتربت مني وطوقتني بذراعيها. استسلمت لحنانها، قلت وأنا أضع رأسي على كتفها: «لا أشكو من شيء. فقط يؤلمني رأسي قليلاً، إنه الجوع، هيا إلى الطعام». خرجنا من غرفتي، سرنا معاً وذراع والدتي يطوق خصري.

١٠

نزلت من جديد إلى شقتي. أحسست بالجوع. كان لدي بعض الطعام الذي حضّرته لي أمي قبل سفري إلى العاصمة؛ بعض أقراص الكبة المقلية وبعض الزعتر والزيت، قليل من اللبنة والجبن البلدي من صنع يديها و.... أكلت في المطبخ مما تيسر وجلست إلى طاولة

السفرة. شكلت تلك الطاولة نوعاً من مكتب. فتحت أوراقي وباشرت بتحضير درس الغد. لم أكن قد مارست التدريس على هذا المستوى بعد وعلي أن أحضّر جيداً كي تسمح لي خالتي بمتابعة العمل في مدرستها. لم أحبّ هذه المهنة يوماً، لكنها في ذلك الوقت شكلت خلاصي من حيث إمكانية متابعة السنة الدراسية لأن خالتي نجحت في تسجيلي في الليسيه كما وعدتني. الأهم من كل ذلك هو أنني كنت أريد النجاح في التدريس لأظهر أمام ليال قدراتي ولكي أستمر في رؤيتها. لكن خالتي حذرتني. حذرتني لأنها تعرف. تعرف أن لا إمكانية لدي. تعرف الفرق بين ليال وبيني. تعرف أن أهلها لن يسمحوا إطلاقاً بأن... لن أجرؤ حتى على التلفظ بما أود أن يسمحوا به: الزواج! يا إلهي كم أنني طموح! ضحكت من نفسي وعدت إلى واقعي، إلى كتبي. كانت صورتها في كل سطر أقرأه، في كل صفحة أطويها. ليتني لم أعرف من هي! من تكون، ابنة من. أبوها زعيم كبير، زعيم الضيعة وزعيم على مستوى الوطن. أمها من العائلات الكبرى في بيروت. كيف لم أرها من قبل؟ لم أرها لأنني حين دخلت الدير كانت صغيرة جداً وحين تعرفت إلى أخيها جهاد كان وحده مع والده في الضيعة. تحايلت على ذاتي، أبعدت صورتها عني وحضرت الدرس قبل أن آوي إلى الفراش لأغفو وليال بين ذراعي.

١١

كان والدي وأخي ينتظراننا في غرفة الطعام. ضمني والدي إلى صدره وقبلني كالعادة. لأول مرة شعرت به مختلفاً. لست أدري لماذا اختلطت في ذهني صورته بصورة الأستاذ كامل. للحظة تخيلت أن الأستاذ يضمني إليه. ضممت والدي بحنان كبير، أكبر من حناني العادي تجاهه. هل شعر بالاختلاف؟ لا أدري. من المؤكد أنه لم يشعر بشيء مختلف. ربما فرح فقط لأن ابنته تحبه وتظهر له حبها. حين خرجت من بين ذراعيه كانت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، معبرة. أما أخي فقد شعرت بتعاطف كبير معه؛ كان يحب إحدى رفيقاتي في الصف. حتى تلك اللحظة ما كنت أفهمه ولا أفهم لماذا كان يشدد علي لاصطحاب تلك الرفيقة إلى بيتنا. كم هزئت منه حين كنت أراه يسترق النظر إليها! كنت أعجب من إعجابه بها. حين نظرت إليه في تلك الليلة رأيته إنساناً آخر. وددت لو كانت رفيقتي معي لأفرح قلبه. قررت بسرعة أن أدعوها في نهاية الأسبوع لتمضية «الويك أند» معنا. من دون أن أفكر طويلاً قلت لأخي: «حنان تسلم عليك». ضمني إليه، قبلني

ووشوش في أذني: «بلغيها سلامي و...» لم يتابع. فهمت قصده، شددت على يده وهززت برأسي استجابة. منذ تلك اللحظة سار فيما بيننا نوع من التفاهم الصامت. أصبحنا فريقاً واحداً. أصبحنا متواطئين Complices. انتهى العشاء وعدت إلى غرفتي. لم أستطع التركيز على الدرس، كنت شاردة أفكر به؛ الكتاب أمامي وعيناي تنظران في الفراغ حيث لا شيء سوى ابتسامته الجميلة. أهملت كتبي وأويت باكراً إلى فراشي لأستسلم لأحلامي.

١٢

لم أنم جيداً تلك الليلة. لم أرد أن أغفو كي لا تغيب صورتها عني. استيقظت باكراً، استحممت بسرعة، حلقت ذقني، أمسكت بزجاجة العطر وأفرغت منها ملء كف يدي ورشقت بالسائل وجهي وصدري وكل أنحاء جسدي وبخاصة تحت إبطي حيث العرق. ارتديت قميصاً نظيفاً، خرجت من الشقة، كنت أقفز قفزاً، لا أسير كالعادة. لم أنتبه إلى الوقت إلا حين بادرتني خالتي بدهشة كبيرة وهي تنظر إلى ساعتها: «ماذا دهاك؟ ما الذي أتى بك باكراً هكذا؟». نظرت بدوري إلى ساعتي، كانت تشير إلى السادسة والنصف. حاولت أن أجيب عن تساؤلات خالتي، لكنها أخذت يدي وقالت: «ربما أتيت باكراً لتحضر معنا القداس، هيا بنا سيبدأ حالاً، لقد أتى الكاهن». دخلت الكنيسة، جلست على مقعدٍ خلفي وأطلقت العنان لمخيلتي غير آبه بما يقوله الكاهن وبما ترتله الراهبات؛ كنت أحضر نفسي لدخول الصف ورؤيتها من جديد. لقد سكنت كل تفكيري وخيالي وانفعالاتي و...لقد سكنتني بالكامل منذ أن رأيتها. إنها شعاع النور الذي أنار كل وجودي. بعد القداس دعتني خالتي لتناول الفطور معها. أمسكت بيدي وجرتني إلى الطابق العلوي. شارداً كنت، أنفذ كالآلة كل ما تطلبه مني. لم أنتبه إلى نفسي إلا حين سألتني: «ما بك، ما هذا التوتر؟ هل هي رهبة التعليم لصف من البنات؟». هززت برأسي تأكيداً لكلامها وتناولت الفطور بصمت. رن الجرس، تركتني وذهبت لتستعرض الطالبات وهنّ يدخلن إلى صفوفهن. كانت تفعل ذلك كل صباح لتراقب حسن الهندام والانضباط عندهن.

١٣

استيقظت باكراً بعد نوم متقطع. لم أنهض من سريري بل ظللت ممددة وعيناي مغمضتان على صورته وأذناي تصغيان لنبرة صوته وهو يشرح لنا بعض الكلمات. حين

فتحت والدتي باب غرفتي كعادتها كل صباح، كان يقترب مني ويحاول لمس وجهي وربما ضمي إليه. «هيا حبيبتي سوف تتأخرين». قبلتني على جبهتي وانصرفت. إنها تصر على القيام بهذا العمل كل صباح وتنتقد صاحباتها اللواتي يتركن هذه المهمة إلى الخدم.

بدوت أنيقة جداً حين مررت أمام الرئيسة ونحن ندخل إلى قاعة الدروس. نظرت إلي وابتسمت. كنت أعرف أنها من ضيعة والدي وأنها تعاملني بعناية خاصة، لكنها لم تظهر يوماً ذلك أمام الآخرين. لماذا ابتسمت لي في ذلك الصباح؟ لم أفهم تلك الابتسامة، لكنني فرحت بها. دخلنا القاعة وتوجهت كل واحدة منا إلى مقعدها. قبل أن نبلغ مقاعدنا، دخل علينا، لم ينظر إلينا، بل توجه مباشرة إلى المنبر، رمى بمحفظته على المكتب، رفع رأسه وجال بنظره من فوق رؤوسنا. كان متوتراً يفرك يديه. جلس، وضع رأسه بين يديه وأخذ ينتظر انتظام الأمور. وصلت إلى مكاني في الصف الأول وحاولت أن أرتب كتبي، وانا أسترق النظر إليه. ظل جالساً ورأسه بين يديه إلى أن هدأ الصف وعم الصمت. رفع رأسه وقال: «نبدأ الآن». لم ينظر إلي. غضبت. لم أدر أنه كان يتحرق لرؤيتي ولمسي وربما أكثر: «من يأتي إلى اللوح؟» سأل. رفعت إصبعي وقلت: «أنا». كثيرات فعلن مثلي. تجاهلهن، نظر إلي وهو يبتسم. رماني في حالة حلم حين لفظ اسمي: «ليال تفضلي». لا أدري كيف وصلت إلى اللوح. شعرت بنظراته تعريني.

١٤

جميلة كانت في ذلك المريول الكحلي والأبيض، بذلك الشعر الطويل المجدول، بتينك العينين النهريتين، بتلك القامة المنتصبة ولو المعتدلة الطول، بذلك اللون القمحي لبشرتها الناعمة. حتى خطها على اللوح كان جميلاً وهي تكتب ما أمليه عليها. انتهيت من الإملاء وبدأنا التصحيح: «ليال أعيدي قراءة النص وصححي الأخطاء». ساد الصمت في القاعة وغرقت أنا في شهوتي. كبحت نفسي التي لو تركتها على سجيتها لدفعتني إلى ضم ليال إلى قلبي وتقبيل ثغرها الذي كان يتمتم بصمت وهو يقرأ النص. رفعت نظرها إلي وقالت: «انتهيت». كنت أود أن لا تنتهي، كنت أود أن تظل إلى الأبد تحت نظري أفعل بها ما تشتهيه مخيلتي. لكن.. عدت إلى الواقع، قرأت النص بصوت عالٍ من جديد. كانت هناك بعض الأخطاء. لا بد إذاً من الاقتراب منها للتصحيح. أخذت الطبشورة من يدها ووضعت

خطوطاً تحت الأخطاء. كانت يداي ترتجفان. هل لاحظت التلميذات ذلك؟ لم أعد أتحمل قربها مني، كاد يفضح أمري أمام الجميع، لكنني أنقذت نفسي بإبعادها: «ليال شكراً، سأصحح النص بنفسي قبل أن ينتهي الوقت». حين رن الجرس كنت أشعر بتعب كبير.

١٥

كيف أكتب نصاً من دون أخطاء وأنا في تلك الحالة من التوتر؟ وأنا تحت شلال نظراته وعذوبة صوته في الوقت نفسه؟ لقد أنقذني حين أعادني إلى مكاني لأنني ما كنت قادرة على التركيز لتصحيح الأخطاء. هل شعر بارتباكي؟ ما كاد يدنو مني حتى أبعدني إلى مكاني. لكن بدنوه مني شممت رائحة عطره الممزوج برائحة جسده. تلك الرائحة لم تكن غريبة عني. أشمها كل يوم حين أدخل سيارة والدي لكي يقلني السائق إلى المدرسة. إنه العطر إياه الذي يستخدمه السائق، ذلك العطر الذي اسمه ١١٤ والمستخرج من روح النبتة التي تسمى «لافاند» وهو عطر رخيص الثمن. هذا يعني أن من يستعمله هو شخص فقير الحال. أحببت ذلك العطر الرخيص، أصبح مرتبطاً بالأستاذ كامل. بدأت أتعاطف مع السائق الذي كان عمره يقارب عمر والدي ويعاملني كابنته. لست أدري لماذا أهديت إلى السائق، في اليوم التالي، زجاجة عطر. في البيت كنا نستعمل العطور الأوروبية التي يأتي بها والداي من باريس وغيرها من عواصم العالم. حتى الآن كلما شممت رائحة اللافاند يمثل أمامي الأستاذ كامل الذي حرك كل مشاعري.

١٦

الحياة لا ترحم وكان علي متابعة تفاصيلها ومتطلباتها. عدت في نهاية الأسبوع إلى الضيعة، أخبرت الأستاذ نزيه بالأمر فقال لي: «أستطيع أن أغطي غيابك لفترة محددة، بعدها عليك أن تطلب إجازة من دون راتب. كم سيدوم غيابك؟».

— لا أدري متى تعود أستاذة المدرسة. ربما استمررت في التعليم هناك كل الفصل الثاني حتى فرصة الربيع. صمتّ قليلاً وتابعت: ليت المدة هذه تطول أكثر.

— هل أعجبتك الحياة في بيروت؟

— أكثر مما تتصور. ثم أخبرته عن ليال ابنة الشيخ فارس وأخبرته عن إعجابي بها.

ضحك وقال: «الآن أفهم لماذا أعجبتك بيروت إلى هذا الحد. هل إعجابك بليال هو إعجاب أو...؟

— آه لو ترى كم هي جميلة! نعم أعشقها وأعشق الأرض التي تمشي عليها. كنت أود أن أخبر الجميع عن ليال وحبي لليال.

— إذاً لا بد من طلب إجازة من دون راتب. أنت حتماً تتقاضى راتباً هناك، ربما كان أكبر من الذي تتقاضاه هنا.

— لا أدري بعد.

— لا، لا، حتماً ستتقاضى راتباً، لا عمل من دون أجر. ثم إن خالتك ستعاملك بشكل مميز. هيا، لا تتردد، قدم طلب الإجازة وأنا سأوافق فوراً.

قدمت الطلب الذي تكفل الأستاذ نزيه بمتابعته وعدت إلى بيروت مساء يوم الأحد لأحضر دروسي وأهيئ نفسي لرؤية ليال صباح يوم الإثنين. على كل حال صورتها لم تفارقني لحظة واحدة. حين أخبرت والدتي أن ليال بنت الشيخ فارس جميلة جداً قالت:

— ألا تعرف أمها؟ إنها ست الستات، إنها جميلة جداً ولا غرابة أن تكون ابنتها هي أيضاً جميلة.

لم أعرف أمها جيداً. رأيتها مرات قليلة من بعيد في مرحلة ما قبل الدير وما عدت أذكرها جيداً. لكن أعرف أن كل أهالي الضيعة يتحدثون عن جمالها وأناقتها و...

— لو ترين ابنتها: بتاخد العقل.

— خلّي عقلك في راسك يابني أسلملك. قالت ذلك وهي تهز برأسها وتبتسم كأنها تريد إفهامي أنها تعلم بما يدور في ذهني وتريد إفهامي أيضاً أن أبتعد عن ذلك.

١٧

أصبح الأستاذ كامل سري، يعيش معي بصمت، لا أبوح به لأحد، أخاف عليه من الخروج إلى العلن؛ يأكل معي ويشرب معي وينام معي. أصبح كظلي الذي لا يراه أحد سواي. حتى أنه أبعدني عن الدرس. أجلس إلى مكتبي وأشرد في أحلامٍ تدخلني في عوالم

جميلة وأنا أتأبط ذراع كامل في أماكن بعيدة لا يرانا فيها أحد. أصبحت في سري أناديه كامل من دون كلمة أستاذ. أصبح ملكي أشكله على هواي. كنت أود أن أهدي إليه الثياب الجميلة الأنيقة والعطور الثمينة. كان عطره إياه لا يتغير وثيابه إياها؛ بذلتان، يرتدي كل واحدة منها لمدة أسبوع. كل ذلك ما كان يهمني، كنت أرى فيه سحراً يطغى على كل هذه التفاصيل الصغيرة. بما أنني لم أكن قادرة على البوح بما يختلج في داخلي، حولت اهتمامي إلى علاقة أخي جهاد برفيقتي حنان. دعوتها في أول ويك أند بعد تعرفي إلى الأستاذ كامل، إلى بيتنا. فرحت بها جداً حين لبت الدعوة، فرحت أكثر حين رأيت كيف يعاملها جهاد. كنت أتمنى لو أني مكانها والأستاذ كامل مكان أخي. لكن..

١٨

إلى متى سأكتم مشاعري؟ إلى متي سأظل قادراً على كتمانها وليال تختال أمامي باستمرار في حضورها وفي غيابها، تملأ فضائي الداخلي والخارجي، تجالسني أينما كنت وحدي وترافقني على الطريق، تجلس بالقرب مني على مقاعد الصف في مدرسة الليسيه، تمسك بيدي ونتنزه على شاطئ البحر. أحياناً أراها شبه عارية كتلك الفتاة التي رأيت على شاطئ مدينة جونيه حين كنت آتياً إلى الدير. كنت أعلم أنه محظور علي أن أبوح بمكنون صدري وإلا أبعدتني خالتي عن مدرستها. كنت مدركاً لوضعي الدقيق، لكني حاولت أن «أفش خلقي» في الضيعة وبخاصة أمام الأستاذ نزيه الذي حاول إقناعي بالابتعاد عن ليال. محاولاته كانت تحمل الطابع الإيديولوجي النضالي: «إنها بنت برجوازية، هذا بالإضافة إلى أنها مسلمة». ويتابع تحليله الطويل حول النضال والصراع الطبقي و... الانقسام الطائفي. أتركه وأسرح مع ليال في حقل قمح منبسط على قدمي «القرنة السوداء» في ذلك السهل الرحب، سهل البقاع.

١٩

لم أتمكن من معرفة مشاعره تجاهي، هل يحبني؟ لم أستطع الإجابة بشكل أكيد عن سؤالي. كان أحياناً ينظر إليّ بحنان كبير وأقرأ العشق في عينيه. لكن أحياناً لا بل غالباً يتجاهلني ويمر بالقرب مني من دون أن ينظر إلي. حدسي يقول لي إنه يعشقني، أشعر بذلك، لكن الواقع يكذبني وظل يكذبني كل ذلك الفصل الذي غابت خلاله أستاذة اللغة الفرنسية. ظلت رفيقاتي يقذفنني بالتعليقات حول اهتمام الأستاذ كامل بي وبمعنى نظراته

إلي. كنت أفرح بتلك التعليقات وأود أن تكون صحيحة لكنني لم ألمس شيئاً محدداً. هل هو كتوم إلى هذه الدرجة؟ أم أني لا أعني له شيئاً؟ ما كنت لأعرف، لكنني حسدت حنان على اهتمام جهاد بها وتعبيره لها عن حبه.

٢٠

قبل انتهاء الفصل الدراسي الثاني بقليل، استدعتني خالتي إلى مكتبها وقالت لي إن أستاذة الفرنسي قد تعافت وإنها ستعود إلى التدريس في الفصل الأخير. فهمت قصدها وسارعت إلى القول:

— سأترك الشقة في بداية العطلة وأعود إلى التدريس في الضيعة. تعلمين أنني لا أستطيع أن أعيش من دون دخل شهري. سأوقف إجازتي من الدولة وأعود إلى عملي.

— لا، لن تترك الشقة وستتابع دراستك في الليسيه، سأتكفل بالأمر. لا تلغ إجازتك، بل مددها إلى نهاية السنة، سأعوض عليك، أنا المسؤولة عن كل شيء.

شكرتها، لكني حزنت جداً للخبر. لن أكمل السنة مع ليال. شعرت أني لا أستطيع المغادرة هكذا من دون أن تعلم ليال أني أحبها، لا بل متيم بها. لكن كيف أبوح لها بحبي؟ لم أبح لها حتى الآن لأنني كنت أود الاستمرار في ممارسة التدريس إلى جانبها وتلبية لرغبة خالتي التي حذرتني منذ البداية. أما الآن وقد تحتم ابتعادي عن ليال فلن أخسر شيئاً من مصارحتي لها، بل على العكس سأتمكن من إخراج كل ما يكويني ويحرق قلبي. سأبوح لها كم عانيت كي لا أجعلها تلاحظ حبي. بدأت أتحين الفرصة لهذا البوح.

٢١

شارف الفصل الثاني على النهاية وبدأنا نحضر أنفسنا للامتحانات التي تنقسم إلى قسمين: خطية وشفهية. نتقدم أولاً للامتحان الخطي، ثم نمر أمام الأساتذة كي يمتحنونا شفهياً كل واحدة منا على حدة. حين أتى دور الامتحان الشفهي للغة الفرنسية شعرت بتوتر كبير، سأمثل وحدي أمام الأستاذ كامل الذي سيطرح علي الأسئلة. هل سأجيد الإجابة؟ هل سأستطيع الإجابة بالأحرى؟ أتى دوري بحسب التسلسل الأبجدي للأسماء. دخلت الغرفة ومن دون أن أنظر إليه جلست إلى الكرسي المعد للتلميذات. أصبحت أمامه وجهاً لوجه.

كان ينظر إلى نص في الكتاب المدرسي. رفع رأسه، نظر إلي بكل جدية. كنت أحضر نفسي للسؤال حين سمعته يقول: «ليال هل تدرين كم أنت جميلة؟». موجة من الحر اجتاحت جسدي، ظننت للحظة أنني أحلم. نظرت إلى الأسفل من دون كلام. كرر سؤاله، مد يده، أخذ يدي اليمنى من فوق الطاولة، أدناها من ثغره وقبلها من الداخل. ما عدت أتحمل، سألته بكل سذاجة: «ألا تريد أن تمتحنني؟».

— لقد انتهى الامتحان وعلامتك على قدر عشقي لك.

— ...

— يمكنك الانصراف.

انصرفت بصمت ظاهري كبير وبضجيج داخلي عارم. عند إعلان النتائج كانت علامتي الأعلى، أعلى ما يمكن أن تكون. لم يعلها شيء سوى تعليقات الرفيقات اللواتي تأكدن من صدق حدسهن.

بعد عطلة الربيع عادت أستاذة الفرنسي. فرحت بها الصديقات جداً، تظاهرت أنا أيضاً بالفرح لكن قلبي كان يقطر حزناً. شعرت أن أحلامي تبخرت. أخذها معه الأستاذ كامل. أصبحت يدي اليمنى التي قبلها، أغلى من كل أجزاء جسدي الأخرى. أصبحت أمسدها دائماً بيدي الثانية وأتلمس شفتيه عليها. لم أتباه يوماً بعلامة كما تباهيت بالعلامة التي استحققتها عن جدارة في الامتحان الشفهي للغة الفرنسية. تباهيت بها على الرغم من تعليقات رفيقاتي التي ما عدت أتوقف عندها. لقد حسم الأمر الأستاذ كامل واعترف لي صراحة بحبه وهذا يكفيني ويشبع ثقتي بنفسي. لكن إلى أين رحل؟ لماذا لم يعلمني برحيله؟ هل أتى رحيله فجأة خلال العطلة؟ أسئلة عديدة ظلت تتخبط في رأسي إلى أن انجلت في فصل الصيف.

٢٢

انتهت الامتحانات الرسمية لشهادة الفلسفة. تركت بيروت وعدت إلى الضيعة لأنتظر النتائج. عدت إلى الضيعة ليزف لي الأستاذ نزيه خبراً جعلني أرقص، بل أطير من الفرح.

قال: «الشيخ فارس أتى إلى الضيعة لتمضية فصل الصيف»، وتابع وهو يبتسم: «كلهم أتوا».

— هل رأيتها؟

— زرتهم البارحة، إن الشيخ فارس صديق عزيز. زرتهم ورأيتها، إنها حقاً جميلة.

— هل جهاد معهم؟ سألت بشكل أبله.

ضحك الأستاذ وأجابني وهو يقهقه: «هو معهم وعليك زيارته الآن فوراً».

تركت الأستاذ نزيه وهرولت نحو الساحة حيث قصر الشيخ فارس. حديقة ذلك القصر كانت مرتعاً لكل من أراد شرب القهوة وتمضية الوقت والتسلية مع غيره من أبناء الضيعة الذين اعتادوا المجيء بعد الظهر إلى تلك الحديقة حيث يجلس الشيخ فارس مع نرجيلته، مرتدياً عباءته الحريرية.

كان الوقت قد تخطى الظهر بقليل والحديقة في ذلك الوقت من النهار تكون فارغة من زوارها لأن الشيخ فارس يكون في سريره يستمتع بالقيلولة التي يبدو أنها دخلت في برنامج حياته والكل يعرف ذلك. دخلت الحديقة، وقفت للحظة في أسفل السلم المؤدي إلى البيت في الطابق العلوي. ترددت في الصعود لكنني سمعت صوت أمها يناديها: «هيا ليال، السائق ينتظرنا». تسمرت مكاني لا أدري ماذا أفعل. هل أنتظر نزولهما السلم؟ هل أغادر؟ ماذا ستكون ردة فعلها إن رأتني؟. ...الأسئلة تكرج في رأسي وأنا جامد في أسفل السلم. طلت ورأيتها. طلت وحدها قبل أن تتبعها أمها بسرعة.

٢٣

قرر والدي في ذلك الصيف أن نعود كلنا إلى الضيعة لتمضية العطلة. لم تمانع والدتي ولهذا السبب بعد انتهاء المدرسة وإقفال الجامعة التي كان جهاد قد بدأ الدراسة فيها، عدنا إلى الضيعة التي أحببت من دون أن أعرفها جيداً. بعد وصولنا بأيام قليلة أرادت والدتي أن تصطحبني معها إلى بلدة قريبة يحيكون فيها السجاد لتبتاع بعض القطع الصغيرة منها لكي تفرش غرفة شرقية في بيتنا في بيروت. حين نادتني خرجت من الباب قبلها

وهممت بنزول السلم. فجأة حصلت أمامي رؤية. فركت عيني وفتحتهما من جديد، كان في أسفل السلم يبتسم. ما عدت أذكر ماذا فعلت؛ هل ناديته؟ هل هو الذي ناداني أم تنادينا معاً؟ لكن ذلك دام لحظة عاد بعدها الأستاذ كامل إلى الجدية وسمعته يقول باللغة الفرنسية: ﴿Bonjour madame﴾ وتابع بالعربية: «الحمد لله على السلامة». ردت والدتي السلام وتابعت سيرها وهي تنظر إلي بدهشة كأنها تسألني من أين أعرفه؟

— إنه الأستاذ كامل، لقد علمنا الفرنسي هذه السنة في المدرسة. لكني تابعت وأنا أنظر إليه: كيف أتيت وماذا تفعل هنا؟

— أنا من هنا وصديق جهاد، هل هو موجود؟ سأل وهو يحاول إخفاء ارتباكه.

— إنه يستريح، يستيقظ بعد قليل. أما نحن فذاهبتان إلى... ونعود بسرعة. نستأذن. أجابت والدتي.

٢٤

ركبتا السيارة. حين أدار السائق المحرك، مدت ليال يدها من النافذة مشيرة لي أن أعود. كنت ما زلت جامداً مكاني. لماذا تبعتها أمها بهذه السرعة؟ لو بقيت وحدها لحملتها بين ذراعي وضممتها إلى صدري ولأشبعت شوقي إليها بتقبيل كل وجهها وشعرها ويديها و...شفتيها. كانت ستتجاوب حتماً. أشعر أنها تحبني. لكنها تحايلت على مشاعرها كما تحايلت أنا على مشاعري أمام أمها التي تبدو جدية جداً. لكنها سيدة جميلة وليال تشبهها كثيراً. تركت الحديقة وعدت إلى البيت حيث لم أستطع المكوث طويلاً ورجعت من جديد إلى بيت الشيخ فارس. وجدت جهاد وحده في الحديقة يقرأ في كتاب وهو جالس على كرسي فوق المرج الأخضر. حين رآني رحب بي وجلسنا معاً نتحادث بأمور سياسية وقومية وثقافية. كان جهاد قد أنهى السنة الأولى في العلوم السياسية والاقتصاد في الجامعة اليسوعية.

— وأنت أين أصبحت؟ سألني.

— تقدمت من امتحانات الفلسفة وأنتظر النتيجة، حتماً سأنجح، أعرف ذلك، والسنة القادمة سأحاول الالتحاق بالجامعة اللبنانية في قسم التاريخ أو اللغة الفرنسية، سأحدد لاحقاً، ربما تابعت في القسمين معاً.

— جيد، هكذا سنلتقي في بيروت وسنقوم بنشاطات عديدة.

— حتماً سأزوركم هناك. سنلتقي ونجمع الأصدقاء و.... هل تعلم أنني أمضيت قسماً من هذه السنة في بيروت حيث درّست اللغة الفرنسية في المدرسة التي تتعلم فيها الآنسة ليال؟

— تعرف ليال؟ لماذا لم تزرنا في بيروت إذاً؟

— نعم أعرفها، أجبت. قبل أن أتابع توقفت السيارة السوداء الكبيرة، ترجلت منها ليال بسرعة وركضت نحونا.

٢٥

أخبرت والدتي ونحن في السيارة عن الأستاذ كامل، أخبرتها فقط كيف أعرفه، لم أبح لها بمشاعري تجاهه. لم تعلق بأية كلمة كأن الأمر لا يهمها. صمتنا وأخذتُ أنتظر بفارغ الصبر عودتنا إلى البيت. حين دخلت عليهما بادرني جهاد بالسؤال: «لماذا لم تخبريني أن كامل كان أستاذك هذه السنة؟».

— ما كنت أعلم أنك تعرفه، ثم إنه تركنا بسرعة، لم نعلم كيف أتى ومن أين ولا كيف رحل وإلى أين.

قلت ذلك ليعلم كامل أني أعاتبه على غيابه المفاجئ. فهم قصدي وأجاب موضحاً أن خالته، رئيسة الدير — وهذه المعلومة كانت جديدة بالنسبة إلي — هي التي كانت تتحكم به وحتى بمشاعره كشرط لمتابعة التدريس في فترة غياب أستاذة المادة. فهمت ما قصد بقوله ذاك، فهمت أنه كان يكتم مشاعره ليستمر أطول وقت ممكن في التدريس. تابع: «لكني كنت أعلم أننا سنلتقي من جديد لأن جهاد من أعز أصدقائي وأحترمه جداً».

هكذا أصبح كامل يأتي لزيارتنا كل يوم. أمضينا معاً ذلك الصيف الذي تعرفت خلاله إلى كل أنحاء الضيعة؛ كان أخي ينظم الرحلات مع كامل — أصبحت أناديه باسمه فقط — وبواسطة ذلك التنظيم زرت كل الكروم، ركبت ظهور الحمير، تسلقت التلال العالية واكتشفت بعض المواقع القديمة الأثرية. السهرات كانت عارمة؛ يأتينا كامل بالعصافير التي يصطادها، فنشويها على الفحم ونأكلها مع بعض المشروب الخفيف. ويأتينا بـ«عرانيس» الذرة وبالتين والعنب والرمان و...

لقد عرفني كامل إلى كل ما كنت أجهله عن الضيعة التي أصبحت ضيعتي بعد أن عرفتها. فرح والدي بي وبحبي لضيعته التي لا تحبها والدتي كثيراً، بل تفضل عليها أي مصيف في المتن أو في كسروان. فرح بي والدي ووعدني أن نمضي كل صيف في الضيعة إن أردت ذلك. طبعاً كنت أريد ذلك. هل حدس والدي بما أشعر به تجاه كامل؟ هل لاحظ جهاد شيئاً؟ حاولنا المستحيل كي لا يرشح شيء من دواخلنا أمام الآخرين. كنا نستفيد من لحظات الانفراد القليلة جداً لنعبر عن شوقنا وحبنا بقبلة سريعة أو بضمة أسرع أو أحياناً بنظرة معبرة. هذه هي الضيعة التي استيقظت في داخلي حين توفي والدي وأعدناه إلى تراب ضيعته.

شارف الصيف على الأفول وبدأنا نحضر أنفسنا للعودة إلى بيروت. ليلة الرحيل سهر معنا كامل حتى ساعة متأخرة. تركتنا والدتي في تلك السهرة وأوت إلى فراشها وتبعها والدي بعد قليل. تابعنا السهرة وحدنا؛ كامل وجهاد وأنا. صامتة كنت أنظر إليهما وهما يخططان للقاءات ونشاطات السنة القادمة..

٢٦

رحلت، حزنت جداً لرحيلها ولو عللت النفس بلقاء قريب. ذهبت إلى الأستاذ نزيه أشكو له همي وأخفف، بالكلام عنها، ألمي وحزني. بعد أن استمع إلي وهو صامت، تنحنح وقال: «ماذا لو كلمت والدها بالموضوع؟ إنه صديقي وهو إنسان، صحيح ثري وزعيم وله اعتباره، لكنه إنسان بالفعل متواضع ويحب أهل الضيعة. ألا تراه كيف يتعامل معنا، كأنه مثلنا تماماً من دون أي تعالٍ. أصبحت أعرفه الآن جيداً. لقد تحاورنا طويلاً ووجدت أنه وعلى الرغم من موقعه يتجاوب معنا ومع همومنا وقصصنا و...» قبل أن يتابع أجبته بدهشة كبيرة:

— كيف غيرت رأيك فيه؟ حين كلمتك في الموضوع سابقاً، نصحتني بأن أنساها لأنها برجوازية وما إلى ذلك، وبأنها مسلمة و... قاطعني وقال:

— ما كنت أعرفهم جيداً. على كل حال أمها هي كما قلت سابقاً لا تختلط بنا مثلهم، يمكن لأنها غريبة عن الضيعة، فهي لا تعرف أحداً هنا... لكن لا، إنها حقاً فوقية

ولا يشعر المرء معها بالراحة كما يشعر بها مع الشيخ فارس وأولاده. لقد تعرفت إلى جهاد، إنه ممتاز وميوله وتطلعاته ممتازة، إنه ماركسي بالفعل ولا طائفي. أما ليال فما زالت صغيرة لكني أعرف أنها تحبك. لقد لاحظت ذلك. سأفاتح الشيخ بالموضوع، هو متزوج من مسيحية ولا أظنه سيعترض على هذه الناحية... يبقى الناحية الثانية.... سأكلمه على انفراد وليس أمام زوجته التي حتماً ستعارض.

فرحت بكلامه المشجع وبدأت أحضر نفسي لزيارتهم في بيروت كما اتفقت مع جهاد. أصبحت تلك الزيارة محور تفكيري وكل آمالي.

في بيروت كانوا يعيشون في بيئة برجوازية حقاً — طبعاً بالمعنى الذي حمَّلناه للمصطلح هذا في ذلك الوقت ولم أدرك في حينه أن كل نضالات الأستاذ نزيه وأمثاله كانت لإيصال الفقراء إلى ما هم عليه البرجوازيون، لكن الموضوع يتطلب نقاشاً هو هنا في غير محله — بيتهم يقع في أرقى منطقة من العاصمة. زوارهم من الطبقة العالية، نواب ووزراء ومن كبار المثقفين و...شعرت فعلاً بالدونية حين اقتربت منهم في أجوائهم الفعلية. حتى أن الشيخ فارس كان غير الذي عرفته في الضيعة. صحيح أنه كان يستقبلني بكل لطف كالعادة لكنه، في بيروت، كان مشغولاً بأمور غير التي يحدث بها الفلاحين في الضيعة. في بيروت هو رجل بكامل أناقته، يرتدي دائماً بذلة فخمة وربطة عنق وأزرار قميص مذهبة و...غير العباءة التي يرتديها في الضيعة. حين رأيته في بيروت، أدركت أنه فعلاً يمضي أوقات الراحة في الضيعة يخرج أثناءها من كل ما تفرضه عليه الحياة في العاصمة من أقنعة.

لكي لا أحبط، فسرت ذلك بأن الشيخ، إذا كان يحب الضيعة كما أعرف وكما يدّعي فلأنها تتجاوب أكثر من العاصمة مع مشاعره الداخلية. يعني أنه، في حقيقته، كما رسمه لي الأستاذ نزيه، على الرغم من مظاهر الترف الذي يعيش فيه مع عائلته.

أما جهاد فكان هو هو. لكن رفاقه في بيروت هم من تلك الطبقة اللعينة، يتحدثون أحياناً عن أماكن وأشياء لا أعرفها فأصمت وأصغي إليهم. لكن جهاد كان في أغلب الأحيان يربت كتفي ويقول: «في الصيف القادم سندعو الأصحاب إلى الضيعة، سنعرفهم

ما هي الحياة الحقيقية». هل كان يحدس بما أشعر به من دونية؟ أما ليال فهي أيضاً كانت هي هي لم تتغير في المدينة. كانت جوهرة ذلك البيت الذي بدأت أشعر أنه بعيد جداً.

٢٧

أصبحت أنتظر مجيئه وقد عودنا أن يأتي يوم الجمعة من كل أسبوع. كان ذلك اليوم يوم عطلة في المدارس الرسمية. يأتينا حاملاً معه ما تموّنه الضيعة لفصل الشتاء. يحمل دبس العنب والتين المجفف والزبيب ودبس الرمان والكشك وسوى ذلك. كانت والدتي تضع هذه الأغراض جانباً ولا تذوقها. أما أنا فكنت أتلذذ بالتهامها لا لأنني أحبها بل لكي يعرف كامل أنني ما زلت أحبه. والدي كان يبتسم بصمت ويعود إلى عالمه وأصحابه.

يوم الجمعة من كل أسبوع كنت أعود من المدرسة في الأشرفية وكلي شوق لرؤية كامل الذي كان أحياناً يسبقني ويجلس مع جهاد في غرفته. أدخل عليهما بكل اندفاع فيشرق وجه كامل وتتزايد دقات قلبي. كنا نسهر في تلك الليلة حتى الفجر وأحياناً نذهب إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى المطاعم لتناول العشاء. في تلك المطاعم اكتشفت أن كامل يجيد السلوك وأنه يختلف عن أهالي الضيعة الذين كانوا حين يدعوهم والدي إلى الطعام ينسون السكين والشوكة ويأكلون بأيديهم. كنت في داخلي أحسدهم على ذلك. علمونا أن التقاط الطعام باليدين هو طريقة بدائية يجب الابتعاد عنها. لكني عدت إليها بعد زمن طويل، بعد أن خرجت من كل العقد «البرجوازية» وهو مصطلح تعلمته من جهاد وكامل أثناء حواراتهما معاً ومن باريس لاحقاً في الجامعة. علمت من جهاد أن هذا الرقي في سلوك كامل يعود إلى تربيته في الدير. بعد أن علمت أنه أمضى وقتاً طويلاً في الدير صرت أتخيله بلباس الكاهن يغازلني. قلت له مرة: «تصور أنك الآن كاهن و...» قبل أن أنهي كلامي قال: «لكنت خلعت ثياب الكهنوت وكفرت بالدين كله من أجل ابتسامة من ثغرك الجميل».

هذا كل ما استطاع قوله لأن لحظات وجودنا معاً على انفراد كانت قصيرة جداً، لكن ما قاله كان يكفي لكي أفهم ما يريد وما كنت بحاجة لمعرفته دائماً. لكن هل بدأ حبنا يظهر للآخرين؟ حتماً، لأن والدتي تدخلت في الموضوع. لم تتكلم مع كامل بل توجهت إلي:

— زياراته ما عادت تعجبني. لنفترض أنه يزور جهاد فلا مانع لدي من ذلك، أما أنت فماذا تفعلين معهما؟ من الآن فصاعداً تخرجين معنا أنا ووالدك، لقد أصبحت صبية وانتهت أيام الولدنة.

لم أجبها لأنني كنت أعلم أن لا مجال للجدال معها في هذا الموضوع كما في أغلب المواضيع. كانت تعدّني للزواج من ابن صديقتها، زوجة رياض، ذلك الرجل الثري جداً. من بعد ذلك التنبيه لم أعلم ماذا حدث ولا لماذا انقطع كامل عن زيارتنا.

٢٨

«تكلمت مع الشيخ حول الموضوع، لم يرفض مباشرة، بل صمت قليلاً ثم قال بكل جدية: البنت ما زالت صغيرة، ستتابع دروسها ولا أريد فتح هذا الموضوع إطلاقاً لا بالنسبة إلى كامل ولا بالنسبة إلى غيره. كامل صديق جهاد، لا مانع لدي في ذلك، لا بل أشجع هذه الصداقة، لكن ليال موضوع آخر. على كل حال إنس الأمر واعتبر أنه لم يفتح أبداً».

هذا ما قاله لي الأستاذ نزيه حين عدت مرة من بيروت. أمام حزني الشديد الذي لم أستطع إخفاءه تابع: «لم يرفضك أنت كشخص. لكنه كان قاطعاً كالسيف بالنسبة إلى موضوع الزواج بحد ذاته بغض النظر عن الزوج ومن سيكون».

لم أنم تلك الليلة وأمضيت كل الأسبوع حائراً في أمري. هل أزور بيت الشيخ يوم الجمعة وألعب دور الجاهل كلياً للموضوع، أم أنقطع عن زيارتهم؟ ربما فسر انقطاعي بأنني مستاء من جواب الشيخ فارس للأستاذ نزيه وبالتالي ربما فُهم أنني أنا من طلب من الأستاذ أن يتكلم في الموضوع و...ألف سؤال وجواب تخبط في رأسي قبل أن أتخذ قراري بزيارتهم كالعادة لأكتشف بنفسي ما يدور هناك.

زرتهم يوم الجمعة التالي، وصلت إلى بيتهم قبل عودة ليال من المدرسة. استقبلني جهاد كالعادة. «حتماً لا يعلم شيئاً» قلت لنفسي. يبدو أنه كان بالفعل لا يعلم. عرفت لاحقاً بعد سنين طويلة أنه لم يعلم بالأمر ولا أهله أخبروه به إطلاقاً.

حان وقت عودة ليال من المدرسة، لكنها لم تأتِ إلينا كعادتها. حوالي الساعة التاسعة دخلت علينا أمها، الست هلا، وقالت لجهاد بعد أن سلمت علي ببرودة كوجهها الناشف: «سنخرج لزيارة بيت...، إن أردتم طعاماً، فسعاد — وهو اسم الخادمة — ستحضر لكما ما تريدان». قالت ذلك وهمّت بالانصراف حين سألها جهاد: «وليال؟». «ستذهب معنا». أجابت وهي تغلق الباب وراءها. ضحك جهاد وقال: «نحن أيضاً سنخرج، سأتصل بالأصحاب ونتناول العشاء في المطعم....».

انتظرت ليال لكنها لم تظهر. وخرجت مع جهاد تلك الليلة من دونها. كنت أجاهد كي لا أظهر ألمي وحزني أمام جهاد ورفاقه، لكن أحدهم لاحظ حالتي وسألني عن سبب صمتي غير العادي. بعد تلك الليلة فهمت كل شيء، فهمت رفضهم لي، فانقطعت عن زيارتهم وبررت ذلك بأن قلت لجهاد إنني سأتركه يحضر نفسه لامتحانات آخر السنة التي ما عادت بعيدة كما أنني أصبحت بحاجة لتحضير امتحاناتي.

في صيف تلك السنة أتى الشيخ فارس وجهاد وحدهما إلى الضيعة. لم تأت ليال وأمها إلا لمدة قصيرة لم أستطع خلالها أن أخبرها كم أحبها وما هو مخططي للمستقبل. لكني أخبرت جهاد عله يتكلم أمامها في الموضوع. بعد عودة ليال وأمها إلى بيروت، زرت مرة جهاد وأخبرته أنني فزت بمباراة من أجل منحة للتخصص باللغة الفرنسية وآدابها في فرنسا. شجعني جهاد وفرح لأنه: «ربما سيصبح لنا في الضيعة مدرسة ثانوية يتعلم فيها أبناؤها الفقراء». وتابع: «حتماً ستصبح مهماً، لكن هذا الاختصاص يتطلب إتقان اللغات القديمة، عليك تعلم هذه اللغات مثل اليونانية واللاتينية».

— هل نسيت أنني تعلمت في الدير؟ هاتان اللغتان كانتا من صلب البرنامج.

— جيد، إذاً ستنجح حتماً.

— لهذا السبب فزت بالموقع الأول في المباراة التي نظمتها وزارة التربية بالاشتراك مع السفارة الفرنسية.

ما كنت مهتماً بإتقاني اللغات، بل أردت أن يخبر جهاد أخته ليال وأمه الست هلا أنني فزت بالمرتبة الأولى في المباراة وأنني سأصبح مهماً يوماً ما.

٢٩

في بداية السنة المدرسية الجديدة، علمت من جهاد أن «كامل» سافر إلى فرنسا لإكمال دراسته. فرحت وحزنت في الوقت نفسه؛ فرحت لكامل لأنه سيتابع تحصيله العلمي، لكني حزنت لفراقه، لبعده ولعدم إمكانية رؤيته من جديد. ندمت على صمتي وعدم بوحي له بأنني أحبه. على كلٍ سأنتظر عودته. لكن هل ما زال هو يحبني؟ إن كان يحبني فلماذا لم يكلمني قبل رحيله، لماذا لم يعلمني بسفره؟ ألف لماذا ولماذا خطرت في ذهني. لكن حيرتي تبددت حين سلمتني رئيسة المدرسة رسالة وهي تبتسم: «إنها من الأستاذ كامل، تعلمين أنه الآن في باريس». لم أجبها، أخذت الرسالة وطلبت منها أن أقرأها عندها في المكتب لأنني لا أريد أن تراني إحدى الرفيقات. وافقت على طلبي، خرجت من المكتب وتركتني بمفردي. ما أن أغلق الباب حتى فتحت الرسالة وقرأت. كانت مكتوبة باللغة الفرنسية: «حبيبتي ليال، ألف قبلة وقبلة أرسلها إليك من ضفاف السان. ليال حبيبتي التي لم ولن أعشق سواها في حياتي.... أخبريني إن كنت ستنتظرين عودتي، أخبريني إن كنت ما زلت تحبينني... سأحاول أن أنهي دراستي بأسرع ما يمكن لأعود إليك، لأضمك بين ذراعي وألثم ثغرك وعينيك وشعرك وجبهتك...».

أكملت الرسالة التي فرحت بها جداً. طويتها واحتفظت بها. تلك الرسالة بقيت بين أوراقي إلى أن استعدنا قراءتها معاً في لقائنا الثاني. لكن متى تم ذلك اللقاء؟

٣٠

تدبرت أموري بسرعة في باريس، دخلت الجامعة وبدأت علاقاتي مع الطلاب والطالبات. كان الجو مختلفاً تماماً عن أجواء الجامعة في لبنان. الطالبات في باريس متحررات جداً، يقبّلن الشبان في العلن؛ تعانق الفتاة الشاب، تقبله على ثغره ويطيلان التلذذ بتلك القبل. أنظر إليهم وأهتاج. بعد فترة قصيرة أحسست برغبة جنسية تنهش جسدي. أصبحت كالميت الذي يبحث عن لقمة عيش تحييه. أمضيت الوقت في لبنان محروماً من

ممارسة الجنس بسبب ضيق الظروف. لم أمارس الجنس في لبنان إلا في ذلك الشارع الذي كان يحمل اسم الشاعر الكبير، المتنبي. دخلته مرتين برفقة جهاد. لكن سرعان ما انتابنا القرف منه وابتعدنا عنه. قيل لي إن لهذا الشارع ما يشابهه في باريس وأعطاني الرفاق أسماء الأماكن تلك كالبيغال والسان دونيس و....

لم أحتج إلى تلك العناوين إلا لمرة أو مرتين، لأن الفتيات كن مهتاجات مثلنا نحن الشبان ومن السهل اصطحاب إحداهن إلى الغرفة وممارسة الجنس معها. أول تجربة لي تمت مع فتاة من أصل جزائري. تحدثتني تلك الفتاة وجرتني جراً إلى غرفتي في ذلك الفندق الصغير. اشترينا طعاماً ونبيذاً، دخلنا الغرفة ولم نخرج منها إلا بعد يومين. حين خرجنا إلى النور كنا منهكين من كثرة ما أفلتنا العنان لشهواتنا. لكن الفصل ظل قائماً في داخلي بين ما أقوم به وبين ما أكنه من حب لليال.

استمر هذا الوضع إلى أن تعرفت إلى فتاة فرنسية. في ذلك الوقت كنت قد أصبحت أسكن وحدي في غرفة وتوابعها يسمونها في فرنسا ستوديو. تلك الفتاة لازمتني لفترة، ورويداً رويداً أصبحت تسكن معي. ألفتها واعتدت على رفقتها لكني لم أنسَ ليال. كنت مصمماً أن لا أتزوج من أجنبية. تلك الفرنسية هي فقط لتمضية الوقت وللحاجة الجسدية ولإخراجي من الوحدة والشوق إلى الأهل والوطن. لكن هل يلعب القدر لعبتنا؟

٣١

بعد تلك الرسالة انقطعت أخبار كامل. تجرأت مرة وسألت جهاد إن كانت لديه أخبار عنه. أجابني بالنفي قائلاً: «لم يراسلني سوى مرة واحدة، أجبته وانتهى الموضوع. حتماً هو مشغول بدروسه وبالصبايا الفرنسيات». لم أعلق على كلامه لكني انزعجت منه. هكذا مرت الأيام وكل يوم يمر كان يبعد كامل عني وحتى عن تفكيري. المثل القائل: «بعيد عن العين، بعيد عن القلب»، هو فعلاً صحيح.

بعد مرور أكثر من سنتين، نسيت كامل وبدأت أميل إلى رامي ذلك الشاب الذي يكبرني بسنة واحدة وهو ابن صديقة والدتي. أصبح رامي يزورنا باستمرار ووالدتي تستقبله

بالترحاب وبفرح كبير؛ تتركنا معاً لوقت طويل نمضيه بالحوار والنقاش في أمور مختلفة. كنت أنا في الصف الأول وهو في صف الفلسفة، وأهله، كما أخبرني، يخططون للسفر إلى فرنسا لكي يتمكن من متابعة دروسه الجامعية هناك. هو وحيد أبويه، ووالده يملك ثروة طائلة. كلما زارنا والداه كانا يعلقان حين ينظران إلينا: «كم هما جميلان معاً». كانت والدتي تسر بهذا التعليق، تبتسم وتهز برأسها من دون كلام.

لم يطل الوضع هكذا إذ زارتنا يوماً والدة رامي وطلبت يدي رسمياً من أمي، قالت: «سنسافر السنة القادمة إلى فرنسا لكي يتابع رامي دراسته. تعرفين أن لدينا بيتاً كبيراً هناك. فليخطب ليال ونذهب معاً إلى باريس حيث يتابعان الدراسة ثم يتزوجان». أما والدتي فأجابتها:

— أنا موافقة على الخطوبة لأنني أجدهما متفقين جداً وأعرف أنهما يتحابان. لكن على ليال أن تأخذ شهادة الفلسفة هنا أولاً. جهاد سيسافر هذه السنة لأنه أنهى الدراسات العليا وعليه متابعة الدكتوراه في باريس. سنلحق به السنة القادمة.

قبل أن يسافر رامي مع أهله تمت الخطوبة. حين تمت الخطوبة تلك كانت صورة كامل قد تراجعت في ذاكرتي واحتلت ركناً منها. دخل كامل ذلك الركن شاباً وسيماً واستقر هناك بكل شبابه وجاذبيته. هكذا انتهى فصل من حياتي بصمت كلي لم يدر به أحد من أهلي. أحببت كامل بصمت ونسيته بصمت. لكن الصمت، في بعض الظروف، يخرج على حاله وينطق. أصبحت بالنسبة لقصتي مع كامل كمن يحمل في داخله سراً لا يريد أن يطلع عليه أحد.

٣٢

بعد ثلاث سنوات على سفري إلى فرنسا وكنت قد أصبحت في السنة الرابعة من الاختصاص، علمت أن جهاد آت إلى باريس لمتابعة الدكتوراه. فرحت للخبر وكنت أول من استقبله. كان جهاد يعرف باريس من قبل ووالده يملك بيتاً جميلاً فيها. أقام جهاد في ذلك البيت وأصبحت أزوره باستمرار ونمضي معاً كل نهاية أسبوع. لم أسأله عن ليال إلا بعد فترة. أجابني ويا لهول ما أجابني: «ليال خطبت وخطيبها رامي هو هنا في باريس وستتزوج عما قريب».

حين علمت بمن ستتزوج وعلمت أنه من أثرياء البلد، اسودت الدنيا في وجهي، أسقط في يدي ولم يخطر ببالي إلا الانتقام لأنني شعرت بالدونية، شعرت أن رفضهم لي هو بسبب فقري. عدت إلى غرفتي حيث تنتظرني صديقتي الفرنسية فرنسواز. شربت حتى ثملت ومارست معها الجنس من دون توقف كل ذلك الليل. فرحت جداً وسألتني عن سبب عشقي المفاجئ لها. إجابتي كانت فقط: «أحبك، أحبك». وهو تعبير لم تسمعه مني من قبل. ازداد فرحها وأنبأتني بعد شهر أنها حامل. أصبح الزواج بها محتماً.

أخبرت جهاد بالأمر فشجعني على الزواج. كنا نتناقش في الموضوع حين أتاه شاب وسيم في مطلع الشباب. «إنه رامي» قال لي جهاد حين تبادلنا السلام. ما عدت أراه وحده، رأيت إلى جانبه ليال وكم تمنيت لليال أن تبكي دماً لفعلتها معي.

أحضرت كل المستندات اللازمة من لبنان، تزوجت من فرنسواز في بداية الصيف وعدنا معاً إلى لبنان. أردت أن تراني ليال مع زوجتي لكي أجعلها تفهم أنني قادر على نسيانها كما نسيتني هي. استأجرت بيتاً في بيروت، عينت في مدرسة رسمية وبدأت حياتي الجديدة بعيداً عن ليال التي لم أتمكن من رؤيتها لأنها كانت قد سافرت مع أهلها في بداية ذلك الصيف إلى فرنسا حيث كان رامي ينتظرها. هكذا دخلت حياة كل واحد من في مسار خاص.

الفصل الثاني

رياض رجل ثري جداً ويعدّ من بين أثرياء العالم. لثروته قصص عديدة تتفق كلها على أن أساسها من دول الخليج حيث كان يعمل في فترة شبابه. لكن كيف أتت الثروة؟ هنا تتشعب القصص والروايات لتتوه في متاهات الخيال أو ربما الواقع، لا أحد يدري. قيل عنه، وهذه هي الرواية الأولى لثروته، إنه كان يعمل عند أحد أمراء الخليج وكان رياض في ذلك الوقت متزوجاً من فتاة جميلة جداً وفتية. كان هو شاباً أيضاً. في إحدى حفلات الأمير، أصر رياض على زوجته أن ترافقه، ففعلت. بعد انتهاء الحفلة بأيام قليلة أتى أحدهم إلى رياض ليخبره أن الأمير أعجب بزوجته وأنه يريدها زوجة له. قال له: «أنت أمام خيارين، إما أن تطلق زوجتك وتقدمها للأمير أو ترحل نهائياً من هنا». الألسن الخبيثة تقول إن رياض لم يتردد لحظة واحدة في تلبية طلب الأمير، بل طلق في الحال زوجته وقدمها بيده إلى الأمير. وتتابع هذه الألسن: «وقال الله له خذ، إذ سلمه الأمير كل أعماله ومشاريعه التجارية والمالية وهكذا استطاع أن ينهب ويسرق إلى أن أصبح يملك هذه الثروة. أنها ثمن زوجته». بينما الألسن الأكثر خبثاً تقول إن رياض بعد أن استمع إلى موفد الأمير، عاد إلى بيته، مارس الجنس مع زوجته حتى أنهكها وأنهك نفسه ثم قال لها العبارة الشهيرة: «أنت طالق بالثلاثة».. لكن بين الناس من هم أكثر رأفة برياض وبأحاسيسه كإنسان عادي، قالوا إنه تردد حين سمع عرض الأمير. وللحظة، ربما، ورد في ذهنه إمكانية التخلي عن أعماله كرمى لعيون زوجته الجميلة والتي يحب. سماع الفريق الأول لهذا الكلام الأخير، كان يدفعه إلى الضحك.

الروايات تناقضت أيضاً حول زوجته الثانية. منهم من قال إن رياض بعد أن طلق زوجته الأولى أمضى وقتاً يعمل مديراً لأعمال الأمير وبدأت ثروته تكبر إلى أن بلغت حداً عالياً وحولته إلى شخص معروف، تلوك أخباره الألسن. انطلاقاً من موقعه الجديد استطاع أن يتزوج من صبية جميلة هي صديقة هلا زوجة الشيخ فارس. يبدو، تتابع هذه الرواية، أن المال يرفع الناس من مستوى إلى آخر، فرياض الذي كان مغموراً وابن عائلة متواضعة، أصبح وبسبب ثروته لا يعاشر إلا الأثرياء، وهكذا انتقل من طبقة إلى طبقة أعلى في السلم الاجتماعي مما سمح له بأن يتقدم ويطلب يد السيدة رباب التي هي زوجته الحالية وأم رامي.

لكن فريقاً آخر قال إن رياض، بعد أن طلق زوجته الأولى حقد على الدنيا وأراد أن يثأر منها، بمعنى أنه سيطلق امرأة من زوجها ليتزوج هو بها. ظل صامداً من دون زواج إلى أن التقى برباب في إحدى الحفلات وكانت عروساً جديدة لأحد الشبان العاديين الذين لا يملكون ثروة كبيرة. أعجب بها رياض وأخذ يسايرها ويتصل بها بغياب زوجها ويقدم لها الهدايا ويتغزل بها إلى أن أقنعها بالزواج به. حين قالت له إنها لا تستطيع الطلاق لأن زوجها هو الذي يملك القرار «كما تعرف»، قام بالعمل نفسه الذي قام به الأمير الخليجي معه من قبل؛ أغرى الزوج بمال وفير وبعمل في إحدى شركاته وتمت الصفقة. هكذا عاد واشترى زوجة كما باع من قبل زوجة. وها هي رباب زوجة رياض وأم رامي سيدة محترمة في المجتمع. يبدو أن رياض أحبها بالفعل وأنجب منها. المال، وبخاصة إذا كان ممزوجاً بالحب، يشكل حاجزاً منيعاً بين الماضي والحاضر. هكذا أسدل الستار على حياة رباب قبل زواجها من رياض لتتحول إلى سيدة مجتمع من الطراز الأول وإلى واجهة لعرض ثروة زوجها بواسطة ما تتزين به من مجوهرات وغيرها.

لكي ننهي الموضوع، لا بد من ذكر الرواية الأخيرة لثروة رياض وهي تنقسم إلى قسمين كل واحد منهما أحط من الثاني. الأول يقول إن ثروة رياض تعود إلى التهريب، تهريب الحشيش والأفيون وغيرهما. أما الثاني فيقول إن ثروته أتت من المتاجرة بالحريم، أي

أن «رياض» كان يؤمن صبايا جميلات للأمراء الخليجيين ويتقاضى المال الوفير مقابل كل واحدة وبقدر ما تسعد هذه الأخيرة الأمير.

ابن أية رواية هو رامي؟ لا أحد يعرف بشكل أكيد. لكن رامي أصبح واقعاً ملموساً علينا التعاطي معه بغض النظر عن القصص التي حيكت حول زواج أبيه رياض من أمه رباب. حين ولد رامي عمت الفرحة بيت رياض ووزعت الحلوى في طرقات العاصمة وشوارعها. «ولد وفي فمه ملعقة من ذهب» كما يقول المثل. والذي زاد الذهب في فمه هو أن رياض وبعد ولادة رامي بوقت قصير، تعرض لحادث عطل عنده إمكانية الإنجاب مجدداً. هذا أمر لا يعرفه الكثيرون. لهذا السبب حين توقفت رباب عن الحمل ولم يطلقها رياض أو لم يتزوج عليها، عزا بعض الناس المرهفين بتفكيرهم ومشاعرهم، عزوا الأمر إلى عشق رياض لزوجته واحترامه لها ومداراته لمشاعرها إذ إن الإنسى هي دائماً العاقر في عرفنا. هنا أيضاً لعب المال دوراً كبيراً في نوعية النظر إلى سلوك رياض. لو غيره فعل ما فعله هو لقيل إنه هو السبب في عدم الإنجاب ولهذا السبب لم يطلق زوجته.

لم يكن الأمر يزعج رباب ولو أنها كانت تتمنى في أعماقها أن تلد بعد، وبخاصة أن ترزق ببنت، لكن رياض كان يقول لها: «رامي سيأتينا ببنت، سيتزوج وزوجته ستصبح ابنتنا، عدا أنه سينجب، إن شاء الله، الكثير من البنين والبنات فتمتلئ حياتنا بالفرح.

ترعرع رامي في هذا الجو حيث لا يُرفض له طلب. «إن طلب لبن العصفور أتوه به». في القصر الذي بناه رياض في بيروت جُهز جناح خاص لرامي الذي يأتي برفاقه ليلعب معهم بكل ما يطيب له ولهم. حين كان صغيراً كست لعب الأطفال أرض غرفته وكل جناحه، يلعب باللعبة لبرهة، يفككها ويرميها. هذا أمر ناسب السائق الذي ملأ بيته باللعب التي يرميها رامي. حين كبر رامي قليلاً وصار وقت الدراجة حصل طبعاً على أغلى دراجة في البلد واشترى له والده دراجات عديدة كي يتمكن أصحابه من اللعب معه حين يزورونه. يتجمعون في الساحة الخارجية للقصر ويبدأ السباق. كان رامي دائماً الأول وذلك من دون أية مسايرة — الأولاد لا يسايرون — لأنه نشيط وقوي جداً بالفعل. بعد سباق

الدراجات كان رامي وأصحابه الصغار يرتمون في الـ«بسين» ذي المياه الساخنة في الشتاء والباردة في الصيف حيث يبدأ سباق آخر في السباحة.

بعد ذلك أصبح لرامي ملعب كرة قدم وكرة سلة وتنس وكرة طائرة و...لرامي كل ما يتمناه. على الرغم من كل ذلك الدلال المفرط، كان رامي مميزاً في المدرسة وهو أمر غير عادي، إذ يندر أن يكون لولد في مثل وضع رامي موقعاً مميزاً في الدراسة. كان جيداً جداً وحين أصبح في سن المراهقة بدأ يطرح على المعلمين أسئلة تحيرهم.

لرامي رفاق ورفيقات. حين أصبح شاباً تمنى كثيرون من أهالي الرفيقات أن يتزوج رامي بأحدى بناتهم. من بين تلك الرفيقات، ليال، لكنها قليلاً ما كانت تتردد على قصر والديه لتلعب معه. كان عليه هو أن يأتي إليها. والدها الشيخ فارس وإن لم يكن مادياً في مستوى رياض، إلا أنه كان يعتبر نفسه أهم منه بكثير، إذ إنه ابن بيت عريق وماله من إرث أبيه ومن عرق جبينه وليس من مصادر مجهولة كما تلوك الألسن ثروة رياض. غير أن مرور الزمن طمس بعض الوقائع والروايات ومهد الطريق لجعلها سالكة بينهما.

رباب هي صديقة لهلا من أيام الدراسة. افترقتا بعد زواجهما حيث بقيت هلا في لبنان مع زوجها ورحلت رباب إلى إحدى دول الخليج ولم يلتقيا إلا ورباب قد أصبحت زوجة رياض. حتى زمن الرواية هذه لم تكن هلا قد تأكدت حقاً إن كان زوج رباب الأول قد توفي بحادث كما أخبرتها رباب، أم أنه طلقها كما تروي القصص حول ثروة رياض. لكنهما استعادتا صداقتهما السابقة، مما جرهما إلى تبادل الزيارات برفقة زوجيهما. هكذا تم التعارف بين الشيخ فارس والسيد رياض الذي تحول بعد مدة قصيرة من عودته إلى لبنان واستقراره في العاصمة التي لم يكن أصلاً من أبنائها، إلى وجه بارز من وجوهها.

في العاصمة لم يتعاط رياض السياسة كما هو متوقع. ما كان يرغب في السلطة، وهذا أمر غريب جداً بحسب علم النفس وعلم الاجتماع وكل العلوم التي تربط بين السلطة والمال. لكن رياض الذي لم يرغب بتولي أي منصب سياسي، كان يستمتع بشراء رجال السلطة ومنهم انتقل إلى شراء الصحافة وأقلام عدد كبير من المثقفين، فبات كأنه يملك البلد

حتى من دون منصب محدد. هل كان يمهد الطريق لابنه رامي؟ لا! إذ إنه كان يردد دائماً حين يسأل حول الموضوع: «عليه أن يدير أموالي وشركاتي والسلطة تركع تحت قدميه». لم يكن يدري أن ما يمارسه هو سلطة، سلطة المال. بينما كان الشيخ فارس يهتم بالسياسة وكانت له طموحاته في هذا المجال.

المهم في كل ذلك أن الناس، وأمام فحش ثروة رياض، نسوا كل الروايات حول بدايته وإن كان بعض المتضررين يعودون إليها في كل مناسبة. لكن سلطة المال أصبحت أقوى منهم لدرجة أنه ما عاد أحد يصدقهم.

توطدت العلاقة بين العائلتين — كان للإنسى دور مهم — وأصبحتا تمضيان أغلب الأوقات معاً. لكن الشيخ فارس ظل شديد الحرص على ليال التي لم يسمح لها يوماً أن تذهب بمفردها إلى بيت رياض لتلعب مع رامي كما يفعل غيرها من الأطفال الذين يدفعهم أهاليهم إلى ذلك لتمتد الجسور، بواسطتهم، بينهم وبين والد رامي. جهاد ابن الشيخ فارس يكبر رامي بأربع سنوات، وكان له رفاقه، أما ليال فتصغر رامي بسنة واحدة وفي المبدأ كانت همومهما — إذا استطعنا التكلم عن هموم — واحدة. لكن الشيخ أصر دائماً على مجيء رامي إلى بيته وليس العكس. هذا الأمر جعل من ليال ثمرة محرمة وصعبة المنال بالنسبة إلى رامي الذي لم يُرفض له طلب.. هل ذلك الواقع سبب تعلق رامي بليال وحبه لها لاحقاً؟

لم تنتبه ليال إلى رامي كذكر إلا بعد سفر كامل. بعد مرور سنة على رحيله وانقطاع أخباره عنها بدأت تلاحظ وجود رامي الذي كان يرافق والدته إليهم كل نهاية أسبوع ليمضي ساعات معها. أحيانا تكون أمّا هما قد حضرتا لهما برامج ممتعة من رحلة إلى الجبال العالية للتزلج أو الذهاب إلى المسابح أو المسرح أو..

أصبح رامي رفيق ليال شبه الوحيد. هل كان الشيخ فارس موافقاً على ما تطبخه زوجته وصديقتها رباب؟ لم يرشح شيء عنه حول ذلك، ظل صامتاً ومحايداً. ربما كان

يرفض ذلك في داخله، لكنه ترك الأمر لهلا التي ترى في رامي نصيباً ممتازاً لابنتها الوحيدة ليال.

بعد فترة تمت خطوبة رامي على ليال وذلك قبل سفر رامي وأهله إلى فرنسا، أو بالأحرى قبل سفره مع أمه بشكل أساسي لأن رياض، وإن رافقهما في البداية، فقد عاد ليقيم أغلب الأوقات في بيروت لأنه لا يستطيع أن يبتعد كثيراً عن موقع سلطته الفعلية، عن المكان الذي لثروته فيه وقعها الكبير.

لزمن طويل درّست الفلسفة في فرنسا بطريقة غامضة ومتلاشية، لطلاب الصف النهائي في الثانويات حيث كانت تنحصر ببعض المعلومات حول «القول في المنهج» لديكارت وبعض المعلومات حول غيره من الفلاسفة العقلانيين في أواخر القرن التاسع عشر. لكن بعد نشر كتاب سارتر «الكون والعدم» وبعد انتشار الوجودية تغيرت النظرة إلى الفلسفة. أصبحت متداولة ودخلت حياة الناس. إذا كانت موجة الفلاسفة الجدد قد هبّت في السبعينيات فهذا لا يعني أنه لم يسبقها شيء من قبل بمعنى أن هذه الفلسفة الجديدة كانت بحاجة إلى سارتر وبارت ولاكان وليفي ستروس... الذي سبق لكل واحد منهم أن خرق المحرَّمات في مجال محدد وحطَّم الأصنام. كان علينا أن نلحظ أن الفلسفة التي هي حيز المعرفة هي أيضاً حيز السلطة، وأن هيغل وماركس ونيتشه كانوا وما زالوا معلمينا. في هذا المجال، فوكو قد أوضح الكثير.

مقابل هذا القول الفلسفي، وإلى جانبه، قول آخر ظهر في فرنسا وهو قول الدعوة الاشتراكية الذي طرح الأسئلة الكثيرة، يضاف إلى ذلك قول هايدغر وغيره من الذين أحدثوا نوعاً من خلط الأوراق والأفكار حول التغيرات العميقة داخل الإيديولوجيا الأكثر جدية والتي هي الماركسية.

في هذا الجو عاش رامي في باريس وفي الجامعة، حيث اختار الفلسفة لتخصصه. إلى جانب الفلسفة تابع المحاضرات في علم النفس أيضاً. في هذا الجو كان الطلاب يتقاذفون المفاهيم كما يتقاذف الأطفال الكرة. أهم هذه المفاهيم كانت الكائن والوجود

والأبيستمولوجيا والسيميولوجيا والسياسة وغيرها. هذه المفاهيم شكلت قاعدة كل النشاطات اليومية لرامي وخطيبته ليال بعد أن لحقت به واختارت علم النفس للتخصص.

كانت سماء باريس ملبدة بالغيوم التي هطلت مطراً غزيراً في أيار سنة ١٩٦٨، مطراً غيّر وجه الشوارع والساحات الفكرية وزعزع الثوابت وخلخل المعتقدات وأنتج تيمات جديدة مثل الماركسية الجديدة وعلم الألسنية والرغبة والتحليل النفسي والماكينات الراغبة و...باختصار ولّدت نظرة جديدة إلى الأشياء والعالم، نظرة تفتح العيون بدل أن تعميها وتبهرها.

حين اقترب شهر أيار من سنة ١٩٦٨ شهدت الجامعات بعض التحركات. وفي شهر آذار وقعت أحداث جدية في جامعة نانتير علقت الدروس، وانقضى شهران في جو محموم إلى أن حل شهر أيار وبدأت المناوشات بين السلطة والطلاب. أضربت المعاهد والكليات وعم الإضراب كل الميادين. لكن كل شيء هدأ في شهر حزيران حين أتت الانتخابات النيابية في فرنسا باليمين إلى السلطة. انتهى شهر أيار وانتهت معه سنة الغليان وأصبح الجميع يجترون ويندبون الفرصة الضائعة والثورة التي أجهضت.

غاص رامي في هذا الجو هو الذي وصل إلى باريس في بداية سنة ١٩٦٨، سنة الغليان المشهود لها. تعرف رامي من خلال قراءاته تلك السنة إلى أهم أعمدة تلك الفترة؛ تعرف إلى لاكان وبارت وليفي ستروس وفوكو وألتوسير وهادغر و...قرأ الكثير، لكن ما استوقفه بشكل خاص هو كتابات دولوز وغيتاري وبخاصة مفهومهما للرغبة. خلال تلك السنة قام بتحضير بحث حول موضوع الرغبة عند دولوز وتبين له أمر مهم جداً وهو أن هذا الموضوع عولج منذ الفلسفة القديمة مع أفلاطون الذي يعتبر الرغبة دليل نقص. بينت له الدراسة تلك أنه ابتداءً من أفلاطون أصبحت الرغبة دليلاً على الكائن ككائن ناقص. ثم أتى فرويد وتابع في الاتجاه نفسه. لكن المشكلة كانت تدور على معرفة ما إذا كانت الرغبة ومنذ وجودها هي رغبة في السيد أي أنها دمغة السيد في أصل الإنسان. بعد أفلاطون وفرويد أتى دولوز وغيتاري. بينما كانت الرغبة عند أفلاطون دليلاً على شقاء الإنسان وجرحه الذي لا يشفى أصبحت عند دولوز تابعة لما أنتجته فلسفة سبينوزا ونيتشه اللذين قلبا المقاييس السابقة حيث موضوع الرغبة أصبح الواقع وليس النقص. لكن هذه الرغبة لا

تعرف الاستقرار والثبات وترداد الـ«هو هو». الرغبة تختبر وبهذا المعنى يصبح كل فرد مختبراً ليس للحياة بل لحياته الخاصة حيث لا مقاييس جاهزة لتقييمها. هكذا تصبح حياة الفرد هي مقياس ذاتها. لكننا هنا ندخل في الصدفويl aléatoire وهذا هو فعلاً حقل الواقع. فما كان يقال من أننا لا نستحم في النهر الواحد مرتين استعاد حضوره بقوة. لقد هاجم دولوز كلاً من أفلاطون وفرويد واتهمهما بالتمهيد للفاشية. هذا التحليل الدولوزي، أعجب رامي كثيراً. نعجب عادة بما يتجاوب مع ميولنا. أصبح رامي لا يتكلم إلا عن الماكينات الراغبةles machines désirantes .

تحول رامي إلى ماكينة راغبة وملتهمة في الوقت نفسه إذ إنه استطاع أن يتابع كل ما يجري حوله ويقرأ الكثير. قرأ أهم ما صدر من كتب في تلك الفترة وكانت كلها لمفكرين كبار. حين أصبح يعيش لاحقاً مع ليال أطلعها على كل قراءاته وكلما مارس معها الجنس كان يردد: «أنا ماكينة راغبة». كان يقولها بالفرنسية وترددها ليال من بعده من دون أن تفهم معناها جيداً. كانا في بداية حياتهما الزوجية.

حين انتهت ليال من امتحانات شهادة الفلسفة، حضرت أمها مع صديقتها رباب، لسفرهم إلى فرنسا واتفقتا على برنامج العرس وما يسبقه وما يليه. لكن ليال، قبل أن تسافر، وبما أنها كانت على اتصال دائم بأخيها جهاد الذي كان يدرس في فرنسا، أقنعت صديقتها حنان — حبيبة جهاد — بالسفر معهم لتمضية عطلة الصيف وهكذا يتسنى لها أن تحضر عرسها. طلبت من أهلها أن يسمحوا لها بالذهاب معها إلى فرنسا. وافق أهل حنان على الدعوة وسمحوا لابنتهم بمرافقة ليال، وتواعدوا معها على أن يلتقوا في حفل زفاف ليال التي دعتهم لحضوره. بعد ذلك تعود معهم إلى لبنان.

فرحة جهاد كانت لا توصف حين فاجأته ليال بمن أتى معها من لبنان وثمّن ذلك عالياً جداً. رامي أيضاً فرح بقدوم ليال وأصبح ملازماً لها، يعد الأيام التي تفصله عن الزواج منها، يعد الأيام التي تفصله عن امتلاك من لم يستطع امتلاكها أو التحكم بها طوال حياته، يعد الأيام التي تفصله عن امتلاك ذلك الجسد الذي يتمايل كغصن البيلسان. ليال أيضاً كانت فرحة جداً وهي تحضر نفسها للعرس مع أمها ومن ستصبح حماتها.

قبل البدء بالتحضيرات للعرس تم اجتماع بين الأهل والعروسين للتداول بكل الأمور التي يجب الاتفاق عليها قبل عقد الزواج. في ذلك الاجتماع، أفرج الشيخ فارس عن رأيه إذ قال:

— لا نريد مهراً، لا مقدماً ولا مؤخراً، كل ما أريده هو أن تكون العصمة بيد ليال.

صمت الجميع للحظة قال بعدها السيد رياض:

— لماذا هذا الطلب؟ ألا تثق برامي؟ هل يشترط على من هو مثل رامي هذا الشرط؟ أين صداقتنا؟ أين... وقبل أن يسترسل في التعداد أجابه الشيخ فارس:
— أنا كلي ثقة برامي وصداقتنا على الرأس والعين، أنا واثق أن ليال ما كانت لتحظى بنصيب أفضل من رامي. أنا متأكد من كل ذلك. لكني أطلب أن تكون العصمة بيدها، فقط ليطمئن قلبي.

أراد رياض أن يتابع النقاش لكن رامي تدخل وحسم الموضوع، قال وكله ثقة بنفسه:
— فليكن. العصمة ستكون بيد ليال، لأنني لن أعيش ثانية واحدة معها إن لم ترد ذلك، ففي اللحظة التي تقول لي فيها إنها ما عادت تحبني سأتركها فوراً حتى ولو كانت العصمة بيدي. أنا موافق على طلب العم فارس.

صفق الجميع لرامي ولثقته بنفسه. أما لماذا طلب الشيخ فارس ما طلبه؟ هل كان يحدس بشيء ما؟ هل كان قلبه ينبئه بسوء ما؟ هو نفسه لم يعلم. كل ما قاله لليال حين انفضّ الاجتماع:
— ليال، الدهر ماكر ولا أحد يدري كيف تدور الدوائر. من الأفضل أن تكوني أنت من يتحكم بالأمور. لا أتمنى لكما إلا الحياة السعيدة لكن الحياة علمتني الحذر منها بالذات، إنها أحياناً كثيرة تدير لنا ظهرها من دون أن نعرف السبب.

لم تعلق ليال على كلام أبيها ولم تشكره على ما فعل إلا بعد زمن سنرى كم سيطول.

حضِّرت البطاقات وتم الاتفاق على أن تقام مراسم الزواج في فرنسا في القصر الذي يملكه رياض في كان في جنوب فرنسا وهو قصر مع حدائق واسعة تتدرج من رابية عالية إلى شاطئ البحر حيث تنتهي بمسبح خاص. حدد يوم العرس ووزعت الدعوات. قبل الحفلة بيومين بدأت طائرة رياض الخاصة تنقل المدعوين من بيروت إلى كان حيث حجزت كل غرف فندق الكارلتون للضيوف وهو أفخم فندق في تلك المدينة. هذا ما عدا الذين حلوا ضيوفاً على رياض في قصره وكانوا كثراً.

يوم العرس تحولت حدائق القصر إلى جنائن من الورود المختلفة الألوان وامتلأت بالطاولات التي تغطيها شراشف من الدنتيل الأبيض المطرز باللون الذهبي وحولها المقاعد المكيسة بقماش يتناسق مع شراشف الطاولات. على كل طاولة باقة من زهور الأوركيده أتت بها أرقى بيوت الأزهار خصيصاً لهذا العرس. الفرق الموسيقية ملأت الزوايا. باختصار تحول المكان إلى ما يشبه ليالي «ألف ليلة وليلة»، لكنها ليالٍ على الطراز الأوروبي وليس الشرقي.

حين طلّ العروسان، علا التصفيق، عزفت الموسيقى، زغردت أم العريس الست رباب ورشّتهما بليرات الذهب التي تدحرجت على الأرض والتي حتماً فرح بها الخدم جداً. كان قد كتب كتابهما في الليلة السابقة من دون هرج ومرج. فقط عشاء عائلي تبع المراسم الدينية التي قام بها مأذون أتى به رياض من بيروت. أما يوم العرس فهو اليوم الذي حُضّر له؛ قبل العشاء وبعد أن زغردت الست رباب وقامت بدورها علا صوت الموسيقى. بدأت هادئة، ثم علت لتتم زفة العروس. في الوقت نفسه تحول ليل كان إلى نهار إذ أطلقت الأسهم النارية في كل الاتجاهات ومن أماكن عديدة، لتملأ سماء المدينة.

قبل الحفل أتى رياض بسفينتين رستا في عرض البحر. في الوقت المحدد بدأ من كان مولجاً بالأمر بإطلاق الأسهم النارية التي استمر إطلاقها لأكثر من ساعة مما جعل أهالي كان يتذكرون ليل ١٤ – ١٥ آب، ليلة عيد انتقال العذراء حيث أصبح من تقاليد المدينة أن تطلق البوارج من البحر الأسهم النارية لمدة طويلة قبالة فندق الكارلتون. لماذا فكر رياض بأن يقوم بمثل ما تقوم به بلدية كان في مناسبة ذلك العيد؟ خطر بباله ذلك لأن رامي شاهد الأسهم النارية للمرة الأولى في مدينة كان وهو في الثالثة من عمره. في حينه قرأ رياض الفرح والدهشة في عيني ابنه ولهذا السبب حاول أن يعيد ذلك الفرح إلى عيني رامي في يوم عرسه. لم ينس رياض التلفزيون الذي نقل مباشرة و لمدة نصف ساعة قسماً من حفلة العرس أمام كل الفرنسيين. حتماً بثت الحفلة في التلفزيون اللبناني لاحقاً.

كان الشيخ فارس ضد هذا التسرع. حاول أن يقنع رياض بأن يؤجلوا العرس لسنة أو سنتين إذ إن رامي كان في التاسعة عشرة من عمره وليال في الثامنة عشرة فقط. لم يقتنع

رياض وقال: «فليتزوجوا وينجبوا لنا الأطفال لتملأ بيوتنا كلها». كان يود أن ينجب رامي دزينة من البنات والصبيان. هل لأنه هو حرم من ذلك؟ حتماً، إذ دائماً ما نحاول تحقيق ما عجزنا عن تحقيقه بواسطة أولادنا. هنا يكمن سبب الصراع بين الأهل والأولاد؛ نريدهم نسخة عنا وهم يريدون التحرر منا.

تفهم الشيخ فارس الوضع وتمت الأمور كما خطط لها رياض. بعد حفلة العرس مباشرة، صعد رامي وليال إلى متن طائرة رياض الخاصة وحلقت بهما في جولة حول العالم استغرقت شهرين. تنقلا خلال تلك الرحلة من عاصمة بلد إلى عاصمة بلد آخر من بحر إلى جبل، من متحف إلى آخر من... إلى... وهما في قمة السعادة وقد تمت الأمور الجنسية بينهما على ما يرام. يبدو أن رامي وإن كان صغير السن، بل ربما لأنه صغير السن وغير متمكن كفاية، قد استطاع أن يداري ليال وأن يوصلها كالخوخة الناضجة الطرية إلى أحضانه الحارة. كانا نهمين لا يرتويان من بعضهما. عاشت ليال مع رامي أجمل الأيام والليالي خلال تلك الرحلة. حين عادا إلى باريس كان والدا رامي قد اشتريا لهما بيتاً فخماً وفرشاه بأثمن المفروشات والتحف وقطع السجاد النادرة. وقد ملأت الهدايا، هدايا الأصحاب كل الزوايا والفراغات.

حين ذهبت ليال في رحلة شهر العسل، عادت حنان مع أهلها إلى لبنان. لكنها عادت وبإصبعها خاتم الخطوبة. بعد رحيل ليال حزن الشيخ فارس جداً وشعر بفراغ كبير في البيت فنادى ابنه جهاد وقال له:

— هيا يا جهاد املأ علينا البيت بعروس جميلة وبأحفاد، ما رأيك بحنان؟ إنها فتاة جميلة وممتازة، لقد راقبتها خلال هذه المدة، لم أكن أعرفها جيداً من قبل. ثم إن أهلها طيبون وأوادم و..

لم يترك جهاد أباه يتابع بل اقترب منه، طوقه بذراعيه وقبله على جبهته وهو يضحك.ثم قال:

— هل أخبرتك ليال أنني أحب حنان؟

ضحك الأب بدوره وقال: «وفقك الله. ليال لم تقبل أن تتزوج إلا بعد أن وعدتها أن أوافق على زواجك من حنان».

هكذا تمت خطوبة حنان وجهاد على أن يليها العرس بعد عودة ليال ورامي من شهر العسل. كان الشيخ فارس يخطط في تلك الفترة لعرس ابنه. لم يفرج عن خطته إلا حين باشر بالتنفيذ.. على كل حال لم يفعل ذلك إلا بالتقسيط. أراد أن يفاجئ الجميع بمن فيهم أهل بيته.

بعد عودة ليال من رحلة شهر العسل بأيام قليلة، ترك أهلها باريس وعادوا إلى لبنان. حدث ذلك في أواخر شهر آب من تلك السنة. بعد وصولهم زارهم أهل حنان وتم الاتفاق فيما بينهم على أن يقام حفل زواج حنان وجهاد في منتصف شهر أيلول، وحدد يوم السابع عشر منه لتلك الغاية وهو يوم عيد ميلاد جهاد. فرح الجميع لهذه الصدفة وتفاءلوا بها خيراً.

بعد الاتفاق وُضع مخطط التحضيرات ووزعها الشيخ فارس على الشكل التالي: «أنا سأذهب إلى الضيعة لدعوة الأقارب والأصحاب وأنتم هنا تحضرون البطاقات وتدعون كل من تريدون».

— لكن إلى أين سندعوهم؟ علينا منذ الآن أن نتفق مع الفندق الذي سنقيم فيه حفلة العرس. قال جهاد.

— لا فندق ولا بلوط، العرس سيقام في الضيعة، اترك الأمر لي. أنت عليك فقط أن تحدد الزمان والمكان على البطاقة وأنا أتكفل بالباقي.

استاءت الست هلا من قرار زوجها. كانت تخطط لعرس تضج به العاصمة ويتكلم عنه الجميع. كانت تحلم بأن تتألق بجمالها وأناقتها ومفاتنها ولباسها الذي أتت به من أهم دور الأزياء في باريس، خصيصاً لتلك الحفلة. لقد بدد الشيخ فارس كل أحلامها. حاولت أن تعترض وتتذرّع بأن الضيعة بعيدة وأنه ليس فيها من أسباب الراحة ما يمكنهم من القيام بعرس جيد... لم يعرها الشيخ اهتماماً وظل مصمماً على تنفيذ مخططه.

أما جهاد فقد أعجبته الفكرة جداً وتحمس لها، لأنه كان يعرف ولو بالسماع، جمال أعراس الضيعة. حنان وأبوها لم يمانعا غير أن الست والدتها امتعضت لذلك، كانت مثل هلا تفضل عرساً مدوياً في العاصمة لكن لا حول ولا قوة. إن قرر الشيخ ذلك فما عليها إلا القبول والانصياع لأن ما يهمها بالنهاية هو أن حنان نالت نصيباً «بيرفع الراس» وتحسدها عليه كل صديقاتها.

حين تمت كل الترتيبات في الضيعة وأصبح الأهالي ينتظرون حلول السابع عشر من أيلول، عاد الشيخ فارس إلى بيروت لإتمام مراسم الزواج الديني. في الليلة السابقة على السابع عشر من الشهر، ذهب جهاد برفقة أهله والمأذون إلى بيت حنان وتم عقد الزواج. حضرت أم حنان للمناسبة عشاءً عائلياً عاد بعده كل إلى بيته بانتظار الغد. صباح اليوم التالي أتى جهاد وأهله إلى بيت حنان التي ارتدت ثوب العرس الأبيض الذي أتتها به حماتها من باريس. جميلة جداً كانت بذلك اللباس الذي أبرز نحالة خصرها وطول عنقها وجمال قدها. أخذها جهاد من يدها وأجلسها بالقرب منه على المقعد الخلفي في تلك السيارة

الفخمة، سيارة والده.. تحركت سيارتهم وتبعتها السيارات الأخرى وكانت كثيرة جداً. السيارة الأولى التي تبعت سيارة العروسين أقلت الست هند، أم العروس والست هلا وتلتها السيارة التي تقل ليال وزوجها رامي... أما الشيخ فارس فقد استقل هو ومازن، والد العروس، سيارة وسبقا الموكب إلى الضيعة للإشراف على حسن تنفيذ ما خطط له سابقاً. طبعاً أهل رامي كانوا من أول المدعوين والست رباب ارتدت لتلك الحفلة درعاً من الذهب والألماس والحجارة الكريمة، حيث إن الجميع بهر بالعقد الذي يطوق عنقها والأقراط المتدلية من أطراف أذنيها والأساور في معصميها والخواتم في أصابعها و...كانت تحمل رمز ثروة رياض على جسدها.

أطلت سيارة العروسين أولَ الضيعة التي عجت ساحتها بالناس، بكل أهالي الضيعة الذين أتوا ليحضروا عرس ابن الشيخ. ترجل العروسان من السيارة فنحرت أمامهما الخراف ومرا فوقها، وظلت تنحر أمامهما الخراف إلى أن وصلا إلى مدخل الضيعة تماماً وإذ بجمل على ظهره هودج يجره بدوي بثيابه العربية، الكوفية والعقال والثوب الطويل المذهب، ينتظرهما. طوى الجمل قوائمه وبرك أمام جهاد وحنان. جهاد كان يعرف ماذا يعني ذلك، أما حنان ففوجئت بالأمر، لا بل خافت. لكن جهاد جذبها من خصرها وصعدا معاً على ظهر الجمل وجلسا على الهودج. انتصب الجمل ودخل العروسان إلى ساحة الضيعة وهما يرشقان بالورود والأرز وقد لعلع الرصاص من كل الاتجاهات وعلت الزغاريد وقرعت الطبول وعلا صوت النوبة. كانت ساعة تشبه ساعة الحشر وصدح صوت القوالة، قريبة الشيخ فارس:

«سبع طبول تدقلو والونبة تزلغط موسيقى

سبع طبول تدقلو لابن الزعامة العريقة»

هذان البيتان أصبحا الردة التي يكررها الجميع كلما غنت القوالة بيتاً جديداً. كل الضيعة كانت تنشد هذين البيتين.

في ساحة الضيعة مقهى يتجمع فيه الناس عصراً لتمضية الوقت والنقاش في الأمور السياسية — جميعهم يتابعون الأخبار السياسية — ويظلل هذا المقهى شجر الجوز القديم.

أنزل العريس من ظهر الجمل، أدخل المقهى وأتى حلاق الضيعة ليقوم بتمثيل حلاقة ذقن العريس والشبان يحوربون: «عريس عريس تحت الجوز حلقولو... عريس عريس...» بينما بقيت العروس وحدها على ظهر الجمل. وتمت تقاليد «جلي» العروس إذ غنت لها النساء وشبهنها بأجمل ما يمكن لإنسى أن تشبه به. منهن من قلن، وكن طبعاً مسيحيات: «أهلاً أهلاً بحنان مثل الشحص بمار اليان». مار اليان هو اسم كنيسة الضيعة، والمقصود من الأغنية هو أن حنان جميلة بشكل أنها تشبه مريم العذراء.

حان وقت الزفة، أنزلت العروس عن ظهر الجمل الذي انتهى دوره وحضرت مهرتان صبحتان جميلتان. ساعد جهاد عروسه في الصعود على ظهر إحداهما وقفز هو على ظهر الثانية والشبان يحوربون: «عريسنا شيخ الشباب عروستو بدر السحاب». أمسك العروسان بأيدي بعضهما البعض وهما يدوران في الساحة حيث حلقة الدبكة التي شكلها الرجال والنساء والكهول والشباب. اشتبكت الأيدي ودكت الأرض بالأقدام وعلت الزغاريد ورش الأرز والورود وشُدت أم العريس إلى الساحة ورقصت على نغم لم تعرفه من قبل لكنها انسجمت معه وتمايلت مع نغماته، وتبعتها ليال التي كانت متحمسة جداً وقد أسرت في أذن والدها منذ قليل: «هذا عرس! آه لو كان عرسي مثله». ضمها الشيخ فارس إلى صدره ثم أمسك بيدها ومشى معها إلى منتصف حلقة الدبكة ورقص معها، ثم شبك يده بيدها والتحقا بالحلقة، فعلت الزغاريد لأن الشيخ يدبك على «الأول».

لكن الزفة لا تكتمل إلا حين يدبك العروسان. أشار الشيخ بيده إلى ابنه فقفز جهاد عن ظهر الحصان، أنزل عروسه عن ظهر حصانها والتحقا بالدبيكة، فعلا صوت الرصاص والأجواء تردد: «.... لابن الزعامة العريقة».

رقص الجميع إلا الست رباب التي تمنعت بحجة أنها لا تعرف أن تدبك. تمنعت ربما لأنها فوجئت بمدى حب الناس للشيخ فارس. ربما قامت بمقارنة بين ما تراه وحال زوجها الذي لا يزوره إلا من يكون قد اشتراه سابقاً. قارنت بين الحب العفوي، حب أهالي الضيعة الطيبين وحب المصلحة، حب أهالي المدن «المبندقين».

بيت الشيخ فارس كان في ساحة الضيعة مما دفع ليال إلى التساؤل لماذا لم يتم العرس داخل القصر كما يسمى بيتهم. أجابها الشيخ: «خططت لذلك لكن أهالي الضيعة أبوا إلا أن يكون عرس جهاد عرس الضيعة كلها، لهذا السبب حضّروا الساحة لذلك. لقد فرشوها كما ترين بالسجاد الذي أتوا به من بيوتهم، وضعوا المقاعد وزينوا الأشجار والحيطان و...ألم تلاحظي كم أن الأمور مصنوعة بحب؟ إنهم حقاً أهلي ويبيضون الوجه في الأوقات المهمة». كانت الست رباب تسمع وتقارن. أما الشيخ فكان يعرف لماذا يحضر. على الرغم من كونه لا يملك ثروة كثروة رياض، إلا أنه كان يخطط لابنه جهاد مساراً سياسياً يوصله إلى مراكز القرار في الدولة. هل نجح في ذلك؟

لن نستبق الأمور، نحن في الضيعة نحضر عرس ابن الشيخ فارس. لقد غصت الساحة الكبيرة بأهل الضيعة وأهل المنطقة والضيوف الوافدين من العاصمة وقد اقترب وقت الغداء. سمع صوت في المكبر يقول: «الآن نتوجه إلى بيت الشيخ فارس، الرجاء أن يتوجه الجميع». هذا الرجاء الأخير له ما يبرره لأن أهل الضيعة عادة يتمنعون عن تناول الطعام. أم الجميع القصر وفي مقدمتهم العروسان. كانت الحدائق بأجمل صورة، زينت كلها بورود الضيعة وفاكهتها. زار العروسان الحمام وقضى بعض الناس حاجاتهم وعلا صوت في المكبر من جديد ليدعو الناس إلى الغداء.

خلال وقت قصير مدَّت الطاولات في الحديقة، كل شيء كان محضراً سلفاً، وعليها المناسف التي تعلوها الخراف المشوية والمطبوخة بالسمنة الحموية التي أتى بها الشيخ خصيصاً لتلك الحفلة — الست هلا لا تُدخل تلك السمنة إلى بيتها لأنها مليئة بالدهون، لهذا السبب كان الشيخ يحب الأكل عند أقاربه في الضيعة — أكل الجميع وشربوا نخب العروسين. كل فترة الغداء تبارى مغنو العتاب في رصف الكلمات الطنانة يرافقهم التصفيق وصيحات: «الله! ما أجمل هذا القول! أعد، أعد». من حين إلى آخر كانت رشقات الرصاص هي التي ترد على المغنين.

بعد الغداء، وقد صار الوقت عصراً، صعد العروسان إلى الطابق العلوي للراحة فيما استمر العرس في الحديقة وتجدد في السهرة حين عاد جهاد وحنان. بقي الوضع على هذه

الحال مدة ثلاثة أيام أمَّ خلالها كل أهالي المنطقة بيت الشيخ للتهنئة بالأفراح. في كل يوم كانت تنحر الخراف ويولم للضيوف المهنئين.

خلال العرس عرض رياض على الشيخ فارس أن يقدم طائرته الخاصة للعروسين كي يقوما بجولة حول العالم. لكن رفض الشيخ للعرض أتى قاطعاً. لم يكن يملك طائرة خاصة لكنه كان قد حجز الأماكن وأمن كل ما يلزم لرحلة شهر العسل بالاتفاق مع ابنه وقد تم كل ذلك قبل الحفلة.

سافر جهاد وحنان إلى أوروبا لأن حنان ما كانت تعرف هذه البلدان، وعاد كل واحد إلى بيته وعالمه وحياته العادية. عاد الشيخ فارس مع زوجته إلى بيتهما في بيروت، ذلك البيت الذي أصبح صامتاً بعد رحيل ليال وجهاد عنه. شعر الشيخ بثقل هذا الصمت وقرر أن يذهب مع الست هلا في رحلة للترفيه. «يحق لنا بشهر عسل بعد أن زوجنا أولادنا». قال لزوجته التي حددت وجهة السفر هذه المرة إلى لاس فيغاس التي أحبتها جداً في رحلة سابقة. أتى رد الشيخ: «لعيونك، لاس فيغاس، نذهب إلى حيث تريدين».

عاد ليال ورامي لفترة إلى بيت رياض في بيروت ومنه إلى فرنسا حيث كان عليهما ترتيب أوضاعهما قبل بداية الدروس في الجامعة. قررا أن يتابعا الدراسة مؤجلين الإنجاب إلى ما بعد الإجازة. الشيخ فارس وافق على قرارهما حين علم به لأنهما ما زالا في نظره صغيرين وأمامهما كل الوقت للإنجاب وتحمل المسؤولية. الست هلا كانت تريد ولداً واحداً في الوقت الحاضر، ولداً تهتم هي بتربيته. بعدها يمكنهما الانتظار قدر ما يشاءان. أما رياض فلم يخبروه بالأمر إطلاقاً لأنه كان مستعجلاً جداً ليرى أحفاده يحيطون به في البيت الكبير، مع أن زوجته رباب لم تكن بمثل حماسته.

سافر الشيخ وزوجته يوم سافرت ليال وزوجها إلى فرنسا حيث ساعدت الست هلا ابنتها في بعض الترتيبات قبل أن يتركاهما ويكملا رحلتهما إلى حيث اتفقا.

قبل بداية الدروس في الجامعة بقليل عاد جهاد وعروسه من شهر العسل وسكنا في بيت أهل جهاد في باريس. عادا باكراً لأن حنان كانت تريد أن تتخصص كليال، في علم

النفس. هو كان يحضر أطروحة الدكتوراه في علم الاقتصاد وكان بإمكانه أن يتأخر في السفر لكنه عاد كرمى لعيون حنان التي يعشق وحبه لها يزداد يوماً بعد يوم. انتظمت حياتهما بين الجامعة والبيت والدرس واللهو و...كانا على اتفاق تام مع ليال ورامي حول كل الأمور.

عاد رامي إلى نشاطه السابق وأخذ يتابع كل ما يحدث. في الجامعة تابع محاضرات علم النفس والفلسفة معاً. كان نهماً في قراءة كل ما يصدر حول هذين الحقلين وحول غيرهما أحياناً. في هذه الفترة تعلمت ليال عبارة «الماكينة الراغبة» التي أصبحت ترددها كلما دعت الحاجة أو كلما قال لها رامي: «أنا ماكينة راغبة». حيث كانت تجيب: «وأنا أيضاً ماكينة راغبة». وينتهيان معاً في السرير ليشبعا رغباتهما.

كان لجهاد صديق لبناني يحضر أطروحة دكتوراه في الفلسفة ويسمونه الكاردينال. لم تكن تسميته تلك بسبب ميوله الدينية بل على العكس سُمي الكردينال بسبب لونه الأحمر إذ إنه كان شيوعياً ماركسياً. بالإضافة إلى ذلك كان مثقفاً جداً وحوله شلة من المثقفين اليساريين. كانت تعقد الحلقات في حضرة الكردينال وهو محاط بالصبايا المعجبات. كان جهاد وحنان يترددان إلى تلك الاجتماعات حول الكردينال وأحيانا يدعوان ليال ورامي ليأتيا معهما. لبيا الدعوة مرة واحدة ورافقا جهاد وحنان إلى أحد الاجتماعات. حين رأى الكردينال ليال، أعجب بها لكنه استاء حين علم أنها متزوجة. لم يبد استياءه، ربما خطط في رأسه لكيفية استمالتها. أما ليال فلم تعره اهتماماً لأنها كانت مغرمة برامي حتى الموت. هو في نظرها أذكى وأهم شاب في كل العالم. هو بالفعل كان ذكياً جداً وأغلب الحوارات في ذلك الاجتماع دارت بينه وبين الكاردينال. أظهرا في ذلك الحوار مخزوناً ثقافياً مهماً، لكن ليال رأت أن جهاد أنضجهم سياسياً وبالتالي أقلهم اندفاعاً لما كانا متحمسين له، يردهما إلى الواقع كلما شطحا نحو التنظير العقيم.

بعد ذلك اللقاء بقليل، ترك الكاردينال فرنسا بعد أن أنهى دراسته فيها وناقش أطروحته التي أضافت إلى اسمه لفظة دكتور والتي حملها معه إلى لبنان ليدرِّس في إحدى جامعاته. حدث ذلك خلال الفصل الأول من تلك السنة.

خلال عيدي الميلاد ورأس السنة أتى أهل رامي إلى باريس لتمضية العطلة مع ابنهما وكنتهما الغنوجة التي لا يرفض لها عمها طلباً، فقط لأن رامي يحبها. كان ذلك يثير غيرة الست رباب، لكنها تحاول إخفاء هذه الغيرة وتغالي في إخفائها إذ إنها هي التي كانت تأتي لليال بالهدايا والمفاجآت. إذاً بقي رامي وليال في باريس وعاد جهاد مع حنان إلى لبنان لتمضية الفرصة مع الأهل. فرح الشيخ فارس والست هلا بهما جداً وحضّرا لليلة الميلاد سهرة عارمة دعوا إليها الأقارب والأصحاب. أما ليلة رأس السنة فقد ذهبوا إلى الضيعة، فتحوا القصر واستقبلوا الأهل والأصحاب وقدموا لهم الهدايا.

ليال ورامي ووالداه أمضوا ليلة الميلاد في مونتي كارلو حيث أقيمت سهرة العيد في أفخم فندق هناك. أما ليلة رأس السنة فقد سهروا في لاس فيغاس حيث أمضى رياض كل تلك الليلة على طاولة الروليت وحيث خسر مبالغ كبيرة تكفي لإعالة عدة عائلات لمدة طويلة. لم يكن رامي يرغب في تلك الألعاب فأمضى السهرة مع ليال وأمه في فندق السيزرس حيث كانوا نزلاء.

ليلة رأس السنة في لاس فيغاس هي من أجمل الليالي في العالم. صحيح أن فيغاس هي مدينة لا يُعرف ليلها من نهارها بسبب كثافة الأنوار إلا أنها في ليلة رأس السنة تتحول إلى شمس مشرقة. ففي منتصف الليل اشتعلت سماء فيغاس بالأسهم النارية التي حولت كل المدينة إلى كتلة من نور ذكّرت ليال ورامي بليلة عرسهما في كان.

انتهت الأعياد وعادت الأمور إلى مجاريها العادية وانتظمت الحياة من جديد حول نمطها المألوف إلى أن أتت عطلة الربيع. خططت ليال للذهاب إلى لبنان لأنها اشتاقت إلى أهلها ولأن ربيع لبنان جميل. وافق رامي على مشروعها وأمضيا ليلة عيد الفصح مع الأهل. هكذا وبسبب وجود الأولاد في فرنسا، فقد انتظمت لقاءاتهم وفقاً للأعياد المسيحية.

لكنهم جميعاً ما كانوا ليعلقوا على الموضوع بل على العكس من ذلك فقد مرت الأمور من دون أي تساؤل.

مضت سنتان على هذه الحال. بعدها ناقش جهاد أطروحته وعاد مع حنان إلى لبنان. لكن حنان عادت حاملاً وأوقفت بسبب ذلك دراستها. كان الشيخ فارس يقول لها: «لماذا الدراسة؟ فالذي في بطنك هو أهم شيء في الدنيا. يا هل ترى ستأتيننا بفارس صغير أو بهلا صغيرة؟». كانت حنان تزداد تألقاً مع مرور فترة الحمل والشيخ يقول لها كلما رآها: «إنه حتماً صبي، أم الصبي تتحلى وأنت رائعة الجمال وكل يوم يزداد جمالك».

كانت حنان تفرح لقول عمها وجهاد يعاملها بعناية كبيرة. حين يوجد الحب يصبح للحياة طعم آخر. حنان تتألق وتحلو لا بسبب الحمل بل بسبب حب جهاد لها. كل كائن معشوق هو جميل ولو كان قبيحاً، فكيف إذا كان بالأصل جميلاً؟

إذاً أنهى جهاد دراسته وعاد ليستلم مع أبيه المشاريع والأعمال وينزل معترك السياسة بكل ثقله وعقله وذكائه وشهاداته. هذا ما كان الشيخ يخطط له. لهذا السبب أصبح يكثر من الذهاب إلى الضيعة وإلى المنطقة برفقة جهاد. كان الشيخ معروفاً جداً في كل أنحاء المنطقة و يستقبل بالترحاب أينما توجه. وجهاد يرافقه برضى ظاهر. هل كان فعلاً مقتنعاً بما يحضره له والده؟

تلك السنة بالذات أنهى رامي مرحلة الإجازة وحصل على الإجازتين معاً ؛ في الفلسفة وفي علم النفس. كان والده فخوراً جداً به لكنه كان دائم «النق» بالنسبة إلى موضوع الأولاد. عندما أنهى رامي تلك المرحلة بقي سنة واحدة لليال كي تنال بدورها الإجازة. حين عادا في صيف تلك السنة إلى لبنان وقعت أول حادثة احتكاك بين الأهل وبينهما. أصر رياض على ضرورة الإنجاب بعد أن أنهى رامي دراسته كما يعتقد. على كل حال لم يعجبه إطلاقاً ما اختاره رامي للتخصص. كان يفضل له دراسة الأمور المالية أو الاقتصاد أو الحقوق لكي يتمكن بواسطتها من تسلم شركاته وأعماله. لكنه لم يتوقف عند ذلك ويقول لنفسه: «فليدرس ما يشاء، أنا سأعلمه كيف يدير الأمور وكيف يكسب المال، أنا لم يعلمني

أحد». ما كان يذهب في تفكيره إلى أبعد من ذلك، ربما لأنه يتذكر أصل ثروته الذي وكما يقول الجميع يتنكر له. أما رامي فكان يجيب والده: «بقي سنة لكي تنهي ليال دراستها، بعدها...» لكن رياض ما كان يتركه يتابع قوله ويجيب:

— فيلسوفة عصرها! ماذا ستضيف عليها الشهادة؟ هذه حنان قد أوقفت كل شيء وهي الآن بانتظار أهم حدث في حياتها. فهل ترضى أن يصبح لفارس أحفاد وأنا لا؟

— سنرزق بالأولاد، طول بالك. هي سنة وتمر. بعدها خذ بقدر ما تشاء من الأولاد.

كان يقول ذلك لإسكات والده لكنه سبق له واتفق مع ليال على إنجاب ولدين أو ثلاثة فقط.

— الله يرزقنا بدزينة أولاد. ما عدت أطيق الصمت في هذا البيت. لقد أصبح ثقيلاً علي وعلى أمك حتى ولو عج دائماً بالزوار.

لم يقتنع رياض بتخطيط رامي وليال بتأجيل الإنجاب سنة أخرى، لكنه رضخ للأمر الواقع وقال: «لن أمهلكما لحظة واحدة السنة القادمة».

مر الصيف وانتهى بولادة فارس الصغير الذي أصبح جده يناديه: «الشيخ الصغير». حين وصل الخبر إلى الضيعة لعلع الرصاص ووزعت الـ«حلوينة» وأمَّ الكثيرون العاصمة للتهنئة. بعد أيام قليلة سافرت ليال ورامي إلى فرنسا من جديد. حاول رياض قبل سفرهما أن يقنعهما بأن تتابع ليال آخر سنة من اختصاصها في الجامعة اليسوعية وهكذا يبقيان مع الأهل في لبنان، لكن ليال أصرت على السفر وأصر معها رامي الذي كان يخطط لمتابعة الدراسات العليا. خطط لذلك لكنه لم يفه بكلمة أمام والده.

تلك السنة لم تمر على خير!!! كيف وماذا حدث؟

خلال إقامة ليال ورامي في فرنسا أصبح لهما أصدقاء كثر من طلاب عرب وغير عرب. منهم من تعرفا إليهم في الجامعة ومنهم من تعرفا إليهم في حلقات النقاش في المقاهي والاجتماعات، ومنهم من كانوا من المعجبين بدولوز ومقولته حول الماكينة الراغبة و... بين هؤلاء الأصدقاء كانت دومنيك التي أصبحت قريبة جداً منهما، تزورهما باستمرار وأحياناً تمضي عندهما الليل وأحياناً أخرى عدة أيام. أحبتها ليال، أنست لها وعاملتها كأخت لها، وقد نجحت دومنيك بمساعدة ليال أن تستميل فادي، أحد الشبان اللبنانيين. هكذا أصبحوا ثنائيين، يخرجون معاً ويمضون أوقاتاً ممتعة معاً ويقومون برحلات في آخر كل أسبوع معاً. بسبب وضع ليال ورامي، وضعهما الميسور وبيتهما الكبير، تمت أغلب اللقاءات عندهما. كل الرحلات وغيرها نفذت على حساب رامي. الأمر كان سهلاً بالنسبة إليه لأن والده فتح له حساباً في أحد المصارف، حساباً لا ينضب وذلك منذ أول سنة أتى فيها إلى فرنسا.

في عطلة الربيع من تلك السنة، عادت ليال وحدها إلى لبنان لزيارة الأهل وبقي رامي في باريس لأنه كان مضطراً لإنجاز بحث لا يستطيع من دونه اجتياز السنة الأولى من الدراسات العليا. عادت إذاً ليال إلى بيروت لمدة قصيرة، وهكذا فعل فادي. طلب من رامي أن يقرضه ثمن بطاقة سفر ليزور أهله الذين لم يرهم منذ أكثر من سنتين. طبعاً قدم له رامي تلك البطاقة.

انقضت العطلة وعادت ليال إلى باريس إلى أحضان زوجها الذي كان يتصل بها كل يوم عدة مرات وهي في لبنان. عادت ليال إلى رامي وعاد فادي إلى دومنيك التي هي أيضاً كانت تنتظره، كما قالت، على أحر من الجمر.

انتظمت الحياة من جديد. في بداية شهر حزيران تقدمت ليال من الامتحانات ونجحت وحصلت على الإجازة في علم النفس. نجح أيضاً رامي في امتحاناته لأنه كان قد حضر في فترة غياب ليال بحثاً نال تقدير أستاذه.

بعد أن تم كل ذلك، بدأت ليال بالتحضير للرحيل عن باريس والسكن في لبنان لأنه لم يعد لديهما حجة للبقاء فيها ولم يعد لهما مفر من «نق» رياض الذي ومنذ بداية شهر حزيران أتم تحضير الجناح الخاص من القصر الذي سيقيم فيه رامي وليال. وجهز غرفة الطفل الذي لم يكن قد حُبل به بعد.

أتما كل التحضيرات وجهزا للسفر وحددا الموعد الذي سيطلبان فيه من رياض إرسال الطائرة. كان كل ذلك قد تم حين أتت دومنيك لزيارة ليال التي استقبلتها كالعادة بكل ترحاب، بل بترحاب أكبر من العادة لأنهما سيفترقان عما قريب. لم يكن رامي في البيت في ذلك الوقت. بعد فترة قصيرة حدث ما خلخل كل كيان ليال إذ سمعت دومنيك تقول لها: «أنا حامل من رامي». قالت ذلك بكل برودة أعصاب. ظنت ليال في البداية أن دومنيك حامل وتريد مساعدتها، لم تستوعب أنها حامل من رامي. لم تستوعب لأن الأمر هو أبعد ما يمكن عن ذهنها، فأجابت من دون تفكير: «سأساعدك حتماً، ماذا تريدين مني أن أفعل؟».

— أقول لك إنني حامل من رامي، ألم تسمعيني؟

كادت ليال أن تغيب عن الوعي، لطمت وجهها وصرخت: «أخرجي، اختفي من وجهي، تريدين سرقة زوجي مني؟» وتابعت وهي تصرخ: «اخرجي، اخرجي». لكن دومنيك بقيت مكانها وأجابت بكل ثقة: «اسألي زوجك إن كنت لا تصدقين قولي».

تابعت ليال صراخها: «اخرجي، اخرجي» ودخل عليهما رامي. لم يفهم شيئاً في البداية. أخذ ليال بين ذراعيه وحاول تهدئتها لكنها دفعته عنها بغضب كبير وصاحت: «خائن، اخرج أنت وهي من هذا البيت».

فهم رامي حينذاك ما الأمر، نظر إلى دومنيك بغضب لأنها غشته بوعدها له أنها لن تذكر إطلاقاً ما حدث بينهما تلك الليلة، لكن أسقط في يده وما عاد أمامه سوى الاعتراف الذليل. حينذاك فهمت ليال ماذا تعني عبارة الـ «ماكينة الراغبة» التي كانت ترددها مع رامي وأصحابه من دون أن تفهمها.

ترك رامي البيت بعد أن حاول عبثاً تهدئة ليال. ترك المنزل وذهب إلى الفندق بينما اتصلت ليال بوالديها وطلبت منهما الحضور بسرعة إلى باريس. في اليوم التالي كان الشيخ فارس والست هلا على متن الطائرة المتوجهة إلى حيث ليال. حين قالت لهما ليال إنها تريدهما بسرعة لم تشرح لهما لماذا، لهذا السبب ذهب تفكير كل واحد منهما في اتجاه ؛ فكرت الست هلا للحظة أن ليال حامل، بينما كان الشيخ متشائماً ويردد وهما في الطائرة: «الله يستر، الله يستر» ويتابع: «لست مرتاحاً لنبرة صوت ليال، حتماً هي في مأزق». وتجيبه هلا التي انتقل إليها الخوف بعد موجة التفاؤل الأولى: «هل يا ترى هي مريضة أم رامي هو المريض؟». كانت في داخلها، تود أن يكون رامي هو المريض إذا كان الأمر يتعلق بالمرض.

ظلا يتحاوران في الاحتمالات إلى أن وصلا إلىالبيت في باريس وأخبرتهما ليال كل الحقيقة. ذهلا وكانت لهما ردّات فعلٍ مختلفة: الست هلا حنت على ابنتها، ضمتها إلى صدرها وأخذت تداريها وتعرض عليها السفر إلى أي مكان للتمويه. كانت تهون عليها الأمر لأنها ما عادت تعرف تماماً ماذا تستطيع قوله في موقف كهذا. أما الشيخ فقد انفجر بالشتائم والسباب وتابع متوجهاً إلى زوجته: «هل أدركت الآن لماذا لم أكن موافقاً كلياً على زواج ليال حبيبتي من رامي؟ أنا أعرف سيرة أبيه والولد «برد على أهلو». لقد باع زوجته، تعلمين ذلك، كل الناس تعرف ذلك. .. ساقط ابن ساقط».

دهشت ليال حين سمعت ما قاله والدها، دهشت لأنها ما كانت تعرف ذلك. أمام دهشتها تابع الشيخ بصوت كاد يخرق السقف: «وأمه الست المصون، هل تعلمين يا ست هلا أين زوجها الأول؟ هل تعلمين كيف تركت زوجها لتحظى بثروة رياض؟ هذه هي صديقتك العزيزة! هل ترين إلى أين أوصلونا؟ أما رامي، الصهر العزيز، فهو مؤصل فعلاً، إنه ابن أبيه لا بل ابن والدين مؤصلين في الفساد وقلة الأخلاق. سأقتله لفعلته هذه و...». وردت عليه ليال:

— لا توسخ يديك يا والدي بهذه الحقارة. لقد انتهى من حياتي، لم يعد له وجود. سأعود معكما إلى لبنان وليبق هو مع عشيقته الوقحة. الآن أقول لك شكراً على إصرارك أن تكون العصمة بيدي. سأبدأ بطلب الطلاق منذ الغد.

— منذ اللحظة تعتبرين نفسك حرة، حتى قبل الطلاق، وإن فتح أحد منهم فاه لقنته درساً لن ينساه طوال حياته. وراءك رجال، على «إجرك» الدنيا.

حاول رامي الاتصال بليال عدة مرات لكي يتمكن من الكلام معها، ربما استطاع إقناعها بالعدول عما هي مصممة عليه. كانت ليال، في كل مرة تسمع صوته، تقفل الخط. رن مرة جرس الهاتف فقال الشيخ فارس لليال: «سأجيب، اتركي الأمر لي». أخذ السماعة وحين تأكد أنه رامي قال: «شوف رامي حكي ما بقى إلك مع ابنتي، انتهى الموضوع أفهمت؟».

— لكن أرجوك دعني أواجهك وأتكلم معك. دعني للمرة الأخيرة أشرح الأمر لليال. أنا متأكد أن الساقطة دومنيك تريد ابتزازي، الطفل ليس مني و...

قبل أن يعيد الشيخ السماعة إلى مكانها صمت للحظة ثم قال: «كلمني بعد ربع ساعة». أراد أن يتروى قبل اتخاذ القرار النهائي. كان قد هدأ قليلاً و دار في رأسه التحليل الآتي: «ربما كان ما يقوله صحيحاً فلنعطه فرصة للكلام، لاحقين على خراب البيوت». هذا كان رأيه ورأي زوجته التي كانت تتمنى أن تصطلح الأمور. لكنهما لم يصرحا أمام ليال بشيء.

رن جرس الهاتف بعد ربع ساعة تماماً. أجاب الشيخ قائلاً: «تأتي اليوم وبسرعة لأنني أريد إنهاء الموضوع».

— هل قبلت ليال؟

— أنا أقنعتها بأن تستمع إليك. لكن لن أعدك أنني سأتدخل في قرارها.

— شكراً، شكراً ردد قبل أن يقفل الخط في غرفة الفندق ويتوجه إلى بيته في باريس.

دخل عليهم، كانوا بانتظاره. لم يرحبوا به، دخل كاللص، كأنه يدخل حقل ألغام. حذراً كان ومشدود العضلات كأنه يتهيأ لمبارزة صعبة. كانت بالفعل صعبة. بعد أن حياهم ولم تسلم عليه ليال، جلس مرتبكاً وصمت. فقال الشيخ: «هات ما عندك، كلنا سمع».

— أنا متأكد أن الطفل ليس ابني.

— وكيف تكون متأكداً؟ سأل الأب.

لكن ليال قاطعته وقالت: «ليس المهم أن يكون ابنك، المهم هو الخيانة».

هنا ترك الشيخ وزوجته الغرفة حيث ليال ورامي وانسحبا إلى مكان آخر. فعل الشيخ ذلك نزولاً عند رغبة زوجته التي قالت له: «اتركهما يدبران أمورهما. نتدخل حين تدعو الحاجة». لكنهما سمعا كل ما دار بين ليال ورامي.

— لم أخنك يوماً، تابع رامي. لكنها انتفضت وقالت بصوت عالٍ: «لا تكذب لقد اعترفت أنك مارست الحب معها».

— لا! لقد مارست الجنس معها، لم أمارس الحب إلا معك أنت.

جن جنون ليال التي نهضت من مكانها كأنها تريد هدم البيت على رأس رامي، ولأول مرة تفوهت بكلمات بذيئة: «يا كلب ماذا تقصد؟ يا منحط يا...

اقترب منها رامي محاولاً تهدئتها. بدأ بضمها إليه فنفرت منه وهي تصيح: «قذر، قذر». لكنه تابع منطقه وقال:

— أقسم لك يا ليال إنها كانت نزوة عابرة، جنسية محض. أنت التي أحب. أطلب منك السماح. وتابع بالفرنسية: c'était purement physique.

رددت ليال من بعده تلك العبارة كما كانت تردد عبارةmachines désirantes . رددتها، بصقت على وجه رامي وقالت:

— لو مارست معها الحب لكنت سامحتك ولو تركتك. لكن وأنت تعترف بقرفك سأتركك ولن أغفر لك ولن أسامحك لأنك لا تستحق ذلك. أما الآن فلا يهمني إن كان الطفل ابنك أو لا. هذا أمر يخصك أنت. تدبر أمرك واتركني لحالي.

حاول رامي المستحيل لكن موقف ليال لم يتغير. كانت مجروحة حتى العظم. عاد الشيخ وزوجته إلى الصالون. وقف إلى جانب ليال وتوجه إلى رامي قائلاً:

— أظن أن الموضوع أقفل. ستقوم ليال بطلب الطلاق، وهي حرة منذ هذه اللحظة. أما الآن ففارقنا بريحة طيبة.

لم يبق أمام رامي سوى المغادرة مطأطئ الرأس لا يدري كيف سيتدبر أمره مع دومنيك ومع أهله ومع... اسودت الدنيا في وجهه. اتصل بدومنيك وصب كل غضبه عليها. كان يفكر أنها فعلاً قحبة. لقد أغوته وجرته إلى السرير وهو شبه ثمل. ربما كانت حاملاً من فادي وأرادت أن تلبسه أبوة الطفل لتحظى بثروته. على كل حال لم تفصح دومنيك عن أي شيء سوى أن الجنين في بطنها هو من رامي وأصرت على ذلك. حين استمعت إليه يصب غضبه عليها لم تجبه في البداية، تركته يفرغ كل ما عنده ثم قالت بكل برودة:

— كل هذا لن يغير شيئاً. أنت أبو الطفل. فصرخ بها:

— لن أعترف به. بلطي البحرva te faire foutre .

— سنتكلم حين تهدأ. قالت ذلك وأقفلت الخط تاركة رامي في حيرة من أمره. لكنه عاد إلى الفندق، طلب زجاجة فودكا، شربها ونام كالقتيل.

في لبنان انشغل بال رياض والست هلا. لماذا تأخر رامي في العودة ولم يتصل؟ لماذا سافر فارس وهلا بسرعة من دون أن يقولا شيئاً وإلى أين سافرا؟ ماذا يحدث؟ اتصلا بجهاد وأتاهما الجواب أنه لا يعلم شيئاً وهو ينتظر خبراً من أهله لكنه يعرف أنهما سافرا إلى باريس بناءً على طلب ليال.

كان قد مر يوم واحد على سفر الشيخ وزوجته حين رن جرس الهاتف في بيت ليال. حدث ذلك بعد أن غادر رامي بقليل. استلم الشيخ السماعة مستعداً للرد لأنه اعتقد أن رامي هو الذي يحاول من جديد. لكنه فوجئ بصوت رياض الذي قال قبل أن يعرف من يمسك بالطرف الثاني من الخط: «أين أنتم، لقد أحضرت الطائرة لتذهب إلى باريس وتقلكم إلى لبنان». و... أتاه الجواب:

— اترك طائرتك حيث هي، لقد انتهى كل شيء وتخلصنا منكم ومن قذارتكم.

— ماذا؟ ماذا أسمع؟ من يتكلم؟ فقد رياض توازنه للحظة وظن أنه أخطأ في رقم الهاتف. لكن الشيخ فارس أعاده إلى الواقع حين قال:

— رياض، أنا فارس وأقول لك إن كل شيء انتهى بين ليال ورامي لأن ابنك ساقط مثل أبيه. أرسل طائرتك لتقله من فندق جورج الخامس حيث يقيم الآن وهو سيخبرك عن بطولاته. قال ذلك وأقفل الخط.

اتصل رياض مباشرة بفندق جورج الخامس في باريس وطلب رامي. لكن رامي كان متعتعاً بالسكر ولم يرد على الهاتف إلا بعد مرور أكثر من دقيقة. رد ولسانه شبه مشلول. قال: «آلوو» وحين سمع صوت أبيه أقفل الخط وغط في النوم من جديد. أقفل رياض بدوره الخط، نادى زوجته وقال لها: «نذهب الآن إلى باريس، لا أدري ماذا يحدث».

بعد أن تكلم مع رياض قرر الشيخ فارس أن يبعد ليال عن كل هذه الأجواء. تداول الأمر مع زوجته وقررا أن ترحل هلا مع ليال إلى لندن لتمضية بعض الوقت. قررا لندن لأن جواز سفر الست هلا لم يكن يحمل إلا تأشيرة إنكلترا بينما جواز سفر ليال كان يحمل تأشيرات عديدة. قررتا ونفذتا بسرعة. ليال لم تمانع. أرادت الابتعاد عن كل ما يذكرها برامي، والشيخ أراد إبعادها عن أية مواجهة مع أهل رامي.

سافرت ليال مع أمها وظل فارس ينتظر ماذا سيحدث. أول عمل قام به بعد رحيلهما هو اتصاله بجهاد في لبنان. أخبره بكل ما حدث وتداول معه كل ما يجب القيام به. كانا متفقين في الرأي. انتظر يومين ولم يتصل به أحد. طلب هو الفندق حيث يقيم رامي وعلم

أنه غادر في اليوم السابق. أقفل الخط واتصل مباشرة بزوجته وابنته وأخبرهما أنه سيلحق بهما. في اليوم التالي وافاهما إلى لندن.

حين أتى والدا رامي إلى باريس توجها مباشرة إلى فندق جورج الخامس وعلما من رامي بما جرى. بعد مداولة قصيرة قرروا جميعاً السفر إلى البرازيل لمدة أسبوعين. قال رياض لابنه: «حين نعود سأتكلم مع فارس، اترك الوقت لليال كي تستوعب الصدمة. حتماً ستعود إليك، إنها فورة وتمر بسرعة، الموضوع لا يستأهل الكثير. لقد جرحتها، افهمها وافهم ردة فعلها العنيفة، لكن كل شيء سيسوى، اطمئن. أما تلك الفرنسية التي تدَّعي أن الجنين هو منك، وإن كنت أنت متأكداً من العكس، فسأدفع لها مبلغاً من المال، سأسكتها، لا تهتم، أظن أنها تريد ابتزازك. كل شيء يسوى بالمال وأنت تملك منه الكثير». بعد قليل انتقلوا إلى متن طائرتهم الخاصة متوجهين نحو البرازيل.

ليال وأمها في لندن، أمضيتا اليومين الأولين يتسكعان في الأسواق والمحال والمطاعم ويتلهيان بشراء بعض الثياب الجميلة. لم تكن ليال حزينة بل كانت غاضبة وحاقدة. لقد أحبت رامي جداً وهي الآن تتأسف وتقول لنفسها: «كم كنت غبية»! أما والدتها فكانت تحاول أن تخفف عنها بالقول إن الرجل كالحيوان عندما يهتاج لا يعود يقدّر العواقب. ثم إنه إذا مارس الجنس مع إنسى فهذا لا يعني أنه يحبها. لكنها حين تصل إلى موضوع الجنين، لا تعود تجد أعذاراً لرامي. لم تتوقف ليال عند موضوع الجنين بقدر ما توقفت عند موضوع الخيانة وخيبة الأمل بمن وثقت به. لا تترك أمها تتابع وتصرخ بوجهها: «من يثبت لي أنها المرة الأولى التي يخونني فيها؟ ربما كان خائناً منذ البداية وأنا كالبلهاء لا أنتبه إلى شيء». أما الشيخ فارس فكان حاسماً في موضوع الطلاق ويزيد من عزيمة ليال في الإسراع بطلبه. لكنه في تلك الرحلة القصيرة إلى لندن لم يناقش الموضوع بل حاول أن يبعد قدر الممكن ليال عن ذكر رامي.

في اليوم التالي لوصوله إلى لندن قال لليال: «سنذهب غداً إلى المتحف الوطني، لقد زرتِه منذ زمن بعيد، كنت طفلة وحتماً لم يعلق في ذاكرتك شيء منه. إنه يحتوي على كل التاريخ المصري و...» في اليوم التالي ذهبوا إلى حيث خطط الشيخ وبدأوا يتجولون في أرجاء المتحف متنقلين من قاعة إلى أخرى، إلى أن وصلوا إلى قاعة كبيرة جداً مليئة بالخزائن التي تحتوي على كل أنواع العملات القديمة وبعض قطع السلاح و...لكن ما استرعى انتباه ليال بشكل خاص هو صندوق زجاجي إلى جانب الباب وفي داخله جسد إنسان منبطح على وجهه. بدا الجسد كأنه مجفف. حين رأته سألت الدليل فأجابها: «إنه

جسدٌ وضع لحظة وفاة صاحبهsous vide ولهذا السبب حوفظ عليه كما هو، لم يتغير فيه سوى لونه الذي أصبح برونزياً... هذا الصندوق محكم الإقفال، فإن تسربت ذرة هواء إلى داخله تفتت الجسد نهائياً خلال لحظات. ما يحافظ عليه هو هذا الفراغ التام الذي يحيط به».

بعد أن استمعت إلى ما قاله الدليل تساءلت: هل الذاكرة لدينا هي كهذا الصندوق الزجاجي؟ هل تُحفظ الصور في ذاكرتنا لأنها توضعsous vide ؟ هل الذاكرة هي هذا الفراغ؟ لم تدر ليال لماذا استرعى ذلك الصندوق انتباهها بشكل خاص. هل سيدخل رامي إلى ذاكرتها كما أدخل ذلك الجسد إلى الصندوق؟ بعد خروجهم من المتحف، نسيت ليال الموضوع الذي ظل منسياً إلى أن تذكرته فجأة بعد عشرين سنة. سنعلم لاحقاً كيف تم ذلك.

بعد أن أمضوا عدة أيام في لندن، قرر الشيخ فارس العودة إلى لبنان. قال: «لا مفر من المواجهة، فلنتم بأسرع ما يمكن، ثم إن ليال ستعود ورأسها مرفوع. هو النذل الذي عليه أن يخفي وجهه».

عادوا إلى باريس، جمعت ليال ما هو لها وما كان قد أتاها من أهلها من مصاغٍ وغيره، جمعته وتركت كل ما كان رامي قد قدَّمه لها. تركوا باريس بعد أن كتبت رسالة صغيرة إلى رامي تقول فيها إنها راحلة من دون رجعة وإن كل ما هو له قد بقي مكانه وإنها لا تريد منه شيئاً سوى نسيانه لها لأنها ألغته من حياتها نهائياً.

بعد أسبوعين عاد رياض وعائلته من البرازيل، عادوا إلى بيتهم، في باريس. تركهم رياض في اليوم التالي وذهب إلى بيت رامي ليعالج الأمور وفي اعتقاده أن الوقت قد حان لفتح القصة من جديد ووصل ما انقطع. لم يعلم أن ليال كانت كالـ«إناء المكسور» لصاحبه سولّي برودون، تلك القصيدة التي تنتهي على الشكل التالي «لا تلمسه إنه مكسور ﴿ n'y touchez pas il est brisé. لكنه فوجئ حين وجد الرسالة وعلم أنهم رحلوا إلى لبنان. طوى الرسالة وضعها في جيبه وعاد إلى بيته حيث أخبر رامي وأمه بما حصل معه.

— لن أعود إلى لبنان. قال رامي حين اقترح والده الرحيل.

— لماذا؟ فهل أنت قاتل لا سمح الله؟ أم سارق أم...؟ كل ما فعلته أنك نمت مع شرموطة، كل الرجال يفعلون ذلك.

انتفضت رباب لكنها لم تفه بكلمة ولو أن سؤالاً جال في رأسها: هل رياض ينام مع شرا...؟

— لا أخاف مواجهة الناس لكني لا أريد رؤية ليال. لا أستطيع النظر إلى وجهها هذا الوجه الذي أحببت والذي لا زلت أحب.

— لا، لا، تعود معنا إلى لبنان، ربما اصطلحت الأمور. لكنه توقف عن الكلام إذ لاح أمامه طيف الطفل الذي تهدد به دومنيك. بعد صمت طال بعض الوقت تابع: «لنفرض أن الجنين هو منك...» عاد وصمت قليلاً ثم قال: «ما هو رقم هاتف الست دومنيك؟».

— لماذا؟ ماذا تريد منها؟

— اترك الأمر لي، أنا أعرف كيف أقنعها.

— تقنعها بماذا؟

— بالإجهاض!

— لن تقبل، أنا واثق.

— دعني أحاول، إن فشلت فلدي عرض آخر. دعني أتصرف، أعطني رقم هاتفها.

أخذ الرقم، اتصل بدومنيك وأتته إجابتها برفض اقتراحه الإجهاض مقابل مبلغ من المال.

— إذاً سأدفع لك... فرنكاً فرنسياً، تتدبرين أمرك وتنسين رامي نهائياً. يمكنك أن تجهضي أو أن تحتفظي بالولد، أنت حرة، شرط أن لا يعود رامي يراك أبداً. كان المبلغ الذي عرضه مغرياً جداً.

— قبلت، متى أتسلم المبلغ؟

— متى تشائين، اليوم إن أردت، أين نلتقي؟

حُدد المكان والزمان، أقفل رياض الخط وتوجه إلى رامي قائلاً: «حلت أول عقدة». توقف قليلاً كأنه تذكر أمراً مهماً ثم تابع: «لن أسلمها المبلغ دفعة واحدة، سأقسمه على دفعات، هكذا تبقى تحت السيطرة».

في الوقت المحدد التقيا وقدم رياض عرضه الجديد، فما كان من دومنيك إلا أن قدمت عرضاً آخر. كانت تعرف ضخامة ثروة رياض، قالت: «أريد مرتباً شهرياً مدى الحياة لأنني سأحتفظ بالولد وأريد إعالته».

— كم تريدين؟

— ... ألف فرنك في الشهر.

تمت في رأس رياض عملية حسابية سريعة ووافق على العرض لأنه وجد أن المبلغ ليس مهماً بالنسبة إليه. كل شيء نسبي في هذه الحياة. «أعتبرها موظفاً صغيراً في إحدى شركاتي أو اعتبر المبلغ نوعاً من زكاة لإعالة يتيم». قال لنفسه.

تم الاتفاق بينهما لكن رياض فوجئ بتلك الفتاة وبقوتها وشعر أنها قامت بعملية ابتزاز، إلا أنه لم يتوقف عندها طالما أن العملية انتهت وستغيب دومنيك من حياة رامي إلى الأبد. لكن ما كان مخطط دومنيك؟ لا أحد يدري سوى من يدرك سر الإنسى. لم تكن دومنيك متأكدة من والد طفلها. هل هو فادي الذي تركها أم رامي؟ لكنها قررت الاحتفاظ به بغض النظر عن هوية والده. المهم بالنسبة إليها أنها أصبحت تتقاضى في بداية كل شهر المبلغ الذي طلبته، تتقاضاه من المصرف الذي حدده لها رياض في باريس. هكذا ستتمكن من إعالة ابنها الذي هو ابنها هي ولو ظلَّ الأب مجهولاً.

حين عاد رياض إلى البيت أخبر رامي بما اتفق عليه مع دومنيك وقال: «من الآن وصاعداً اختفت دومنيك من حياتك».

— انتهينا من دومنيك، هذا أمر جيد، لكن ماذا لو كان الولد ابني بالفعل؟

— سترزق بغيره، انسه. إذا عادت إليك ليال، وستعود أنا متأكد من ذلك، ستعيش سعيداً وسترزق بدزينة من الأولاد.

كان رامي يعلم أن ليال لن تعود إليه لأنه يعرفها جيداً ويعرف مدى مثاليتها وصفاء ذهنها وأخلاقية تربيتها.

— لن أعود إلى لبنان، على الأقل في الوقت الحاضر. عودا أنتما الآن، وأنا سأتابع لسنة أو سنتين تحصيل الدكتوراه. بعدها لكل حادث حديث.

لم يستطع رياض ورباب إقناع رامي بالعودة معهما. تركاه في باريس وعادا إلى لبنان. بعد وصولهما، لم يسألهما أحد عن رامي، كما لم يسأل أحد أهل ليال عنه من قبل. تمت الأمور كأن شيئاً لم يكن كأن لا علاقة البتة بين العائلتين. كيف تسرب الخبر إلى بيروت وكيف انطفأ، لا أحد يدري. لكن حين ذهب الشيخ فارس إلى الضيعة لأول مرة بعد ما حدث مع ليال، أم قصره كل أهالي الضيعة من دون أن يسأل واحد منهم أي سؤال. كان الشيخ يفهمهم ويفهم سلوكهم. لقد فهم ما عبروا عنه من دون كلام. أتوا ليعبروا عن دعمهم له، كأنهم يرددون ما قالوه مرة حين وقع الشيخ في ورطة. في حينه قالوا له: «شيخ فارس لا تهتم عندك زلم بتشرب دم». ثمّن الشيخ غيرتهم وكثف زياراته إلى الضيعة. إنها معقله الطبيعي، إنها المكان الذي يشعر فيه بكل كيانه. هو في الضيعة كالسمكة في الماء على الرغم من قسوة مناخها ونشاف هوائها، لكنه «منعش» يقول الشيخ فارس.

بعد عودته من فرنسا، حاول رياض المستحيل كي يتمكن من الكلام مع الشيخ، لكن الشيخ كان قاطعاً كالسيف في رفضه. رفض لأن ليال رفضت، بينما الست هلا كانت تود أن تصطلح الأمور لكنها لم تجسر على إبداء رأيها.

بعد عودتها إلى لبنان طوت ليال صفحة من حياتها. انطوت تلك الصفحة باكراً جداً. كانت ليال لا تزال في الواحدة والعشرين من عمرها وقد تلقت صفعة قاسية، تركت بصماتها على كل مسار حياتها اللاحقة.

أمضت كل ذلك الصيف في القراءة وهي تردد في داخلها قصيدة «الوردة» لرونسار تلك القصيدة التي تقول: et rose elle a vécu ce que vivent les roses l'espace d'un matin. ترددها وتبكي لأنها أحبت رامي وكانت كلها أمل بأن يعيشا معاً ومع أولادهما عيشة عادية ككل الناس. «لكن القدر ولعبته لا نفهمها! وتجري الأمور بما لا تشتهي الأنفس». تقول لذاتها.

خلال ذلك الصيف الأول لحياة ليال منفصلة عن رامي، عاملها أهلها وأخوها وزوجة أخيها، بعطف كبير. كانت دمية البيت. بالأخص الشيخ فارس لم يرفض لها أي طلب حتى ولو كان ذلك الطلب نزوة ما كان ليحققها في الظروف العادية. قبل نهاية تلك المرحلة التي أمضتها ليال بالقراءة، قررت أن تتابع دراستها وأن تبدأ مرحلة الدراسات العليا والدكتوراه. بعد الانتهاء من الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية قالت ليال لأهلها:

— سأسافر إلى باريس لأسجل موضوع الدكتوراه وأعود لأحضر الأطروحة هنا. وأزور فرنسا من وقت لآخر للقاء الأستاذ المشرف.

وافق جهاد مباشرة إذ وجد في خيار ليال منقذاً لها من عزلتها، منقذاً يخرجها من اجترار ما حدث معها. الشيخ وافق بشرط ألا تذهب بمفردها إلى فرنسا وبخاصة في البداية. هل لأن رامي كان لا يزال هناك؟ لا ندري. أصر الشيخ أن يرافق ليال إلى باريس أحد والديها الذي تختاره هي. أما الست هلا فوافقت على سفر ليال ووافقت على شرط فارس وذلك بفرض شرط آخر وهو أن ترافقها هي إلى فرنسا. ربما كانت تأمل بلقاء ما مع رامي أو حتى بصلح بين ليال ورامي. كانت ترغب في ذلك؛ صحيح أن ليال ما زالت صبية صغيرة وتستطيع أن تحظى بعريس جيد، لكنها مطلقة! هذا من جهة، أما من جهة ثانية فهي ترى في رامي أفضل نصيب لليال. كانت، في داخلها، مستعدة لأن تسامحه على فعلته وتتمنى أن تفكر ليال مثلها. لكنها لم تعبر يوماً عن دواخلها أمام ابنتها المجروحة.

هل كانت ليال تخطط لتلبية رغبة لاواعية في اللقاء برامي؟ نقدر ذلك من دون إمكانية الحسم وننتظر ماذا سيحدث.

تم الاتفاق في النهاية على أن تذهب ليال مع أبيها إلى فرنسا. لماذا اختارت ليال أباها؟ ربما شعرت أنه هو الأقدر على حمايتها في حال تعرضت لملاحقات رامي لها. لا بل شعرت ما هو أكثر من ذلك؛ شعرت أنه هو القادر على حمايتها من ذاتها ومن ضعفها إذا «لا سمح الله» ضعفت.

ما حدست به ليال وتمنته بشكل غامض لم يرشح إلى عالم الوعي بشكل واضح. في اليوم الثاني لوصولها مع أبيها إلى باريس، ذهبت إلى الجامعة وحاولت أن تسأل عن أستاذ يقبل الإشراف على ما اختارته كموضوع لأطروحة الدكتوراه. كانت قد اختارت، كما هو متوقع، الموضوع التالي: «مفهوم الرغبة من أفلاطون إلى دولوز». مروراً بسبينوزا وفرويد ونيتشه. كان العنوان بالفرنسية: du manque de l'ءtre aux machines désirantes.

في أقل من أسبوع حظيت ليال بمشرف ممتاز وقدمت له موضوعها. بعد ذلك أصبح عليها أن تنتظر قبول الموضوع أو رفضه من قبل لجنة تعين خصيصاً لمثل هذه الأمور.

كان عليها إذاً أن تنتظر قرار اللجنة قبل العودة إلى لبنان، ربما رفض الموضوع أو طُلب منها التغيير أو التعديل أو...

خلال فترة الانتظار، حدث ما كانت توقعته، تريده وترفضه معاً. بعد أسبوع على وجودها في باريس رن جرس الهاتف في البيت، بيت أهلها حيث سكنت مع والدها. حين أجابت، كان رامي على الطرف الثاني من الخط. في لحظة غاب كل لاوعيها ليستيقظ وعيها بكامل أسلحته وبكل رفضه. فتح الجرح من جديد وبدأ ينز دماً. ما هذه اللعبة التي تتحكم بنا؟ حين ينشط اللاوعي نتمنى ما ينشط من أجله، وحين يتحقق ذلك يبرز الوعي إلى الواجهة ويرمي باللاوعي بعيداً. ليال التي تمنت في لاوعيها أن يتصل بها رامي، رفضته حين لبى رغبتها. هل رغبتها تلك كانت فقط لإشباع نرجسيتها وتثبيت كرامتها؟ هل أرادته أن يتصل بها لتسوغ حبها السابق له، ونتيجة لذلك كرهها الحالي له؟

حين سمعت صوته، صمتت للحظة، لا تدري ماذا تفعل: هل تقفل الخط؟ هل تجيب وماذا تقول؟ والدها في ذلك الوقت لم يكن في البيت. هل راقب رامي الأمر واتصل حين تأكد بطريقة ما أن الشيخ ليس مع ليال؟ صحيح لقد فعل ذلك بعد أن علم من بعض الرفاق أن ليال في باريس. غياب والدها في تلك اللحظة رجح القرار عند ليال بالإجابة على رامي:

— ألو، ماذا تريد؟

— فقط أن أسمع صوتك، لقد علمت أنك هنا و..

— لقد سمعته، وأنا هنا فعلاً ولا أريد أن أراك ولا أن أسمع صوتك. اتركني، لقد حطمت حياتي.

— ليال حبيبتي، نستطيع إصلاح كل شيء. دعيني أراك لنتكلم بهدوء.

كادت ليال أن تقبل عرضه، لكن وبسرعة لاح أمامها طيف دومنيك والطفل. غصت بالبكاء وأقفلت الخط من دون أن تجيب على طلب رامي لا سلباً ولا إيجاباً. أما رامي فظل للحظة ممسكاً بسماعة الهاتف قبل أن يقفل الخط في ذلك المركز العام للهاتف على الرصيف بالقرب من بيت الشيخ فارس. لكن الغصة في صوت ليال أيقظت عنده الأمل في

إمكانية ما، ربما العودة إلى ما كانا عليه. تمنى ذلك من كل قلبه وقرر أن يتصل بها مرة ثانية.

حين عاد والدها لم تخبره ليال بما حدث معها. لكنه حين عاد، أعاد القوة إلى ابنته التي بدت حزينة على الرغم من استعادتها بعض قوتها. لم يسألها عن سبب حزنها بل دعاها إلى تناول العشاء في أحد المطاعم وبعد العشاء ذهبا إلى ملهى حيث رقصا حتى ساعة متأخرة. نامت ليال تلك الليلة وهي تعيد لنفسها كلمات رامي. تستكين لحظة لتردادها، ثم تغضب حين تفكر أنه، ربما، قال الكلام إياه لإنسى أخرى وتختم بالقول: «فليذهب إلى الجحيم هو وكل النساء، هو وكل موضوعات «ماكينته الراغبة».

حاول رامي مرة ثانية الاتصال بليال، لكنها في هذه المرة كانت أصلب. ربما ضعف رامي أمامها وإقراره بحبه لها منحاها القوة والثقة بالنفس وبالتالي العزم على الرفض:

— قلت لك منذ البداية إن الموضوع انتهى. اذهب إلى الجحيم وحل عني. قالت ذلك وأقفلت الخط.

لماذا أقفلت الخط؟ للأمر تفسيران: إما أنها اتخذت قرارها برفض رامي نهائياً أو أنها أقفلت الخط كي لا تضعف أمام إلحاحه لأنها تعرف أنها ستضعف إن سمعته يبوح لها بحبه وعذابه وندمه. أقفلت الخط وأنقذت نفسها. حسمت أمرها وأخبرت أباها بالأمر. لماذا أخبرت أباها هذه المرة؟ أخبرته لأن سلوكها هذه المرة هو تماماً كما يريده والدها. أخبرته لتتأكد من حسن تصرفها، أخبرته لتثبت لنفسها أن ما قامت به هو الصواب، أخبرته لتسمع صوتاً آخر غير صوتها يؤكد لها صحة ما قامت به. أرادت أن تسمع من يؤكد لها ما لم تكن متأكدة منه. أرادت سماع صوت يحسم ترددها وتخاذلها.

لم يعرف رامي ماذا يدور في داخل ليال من صراع بين رفضها له أو العودة إليه. لكن سلوكها الظاهر وقولها يدلان على رفضها القاطع له. هل يستمر في إظهار الضعف تجاهها؟ هل يستمر في طلب المغفرة؟ هل يستمر في طأطأة الرأس كأنه المذنب الوحيد في هذا الكون؟ لا! قرر أن ينتهي هو أيضاً من ليال. قرر أن ينساها ويبني حياته من جديد.

هل يعيد بناءها مع دومنيك؟ إنها تعجبه جسدياً، إنها تشكل تجسيداً ما لرغبته الجنسية. لكن لا! والطفل؟ هل هو ابنه فعلاً؟ إنه لا يعرف. «لا وألف لا! انتهى أمرها. ثم إني لا أحبها. إنها تثير رغبتي فقط وهذا لا يكفي، كثيرات غيرها يثرن رغبتي».

بعد ذلك القرار، ترك رامي باريس وعاد إلى لبنان لفترة قصيرة. عاد إلى لبنان واستقبله الأهل، كالعادة، بكل سرور. كان الناس قد نسوا قصته مع ليال كما تناسوها في البداية أيضاً. لهذا السبب بدأت عملية عرض البنات من جديد. كل من كان لديه ابنة في سن الزواج، أتى برفقتها لزيارة رامي. أما هو فقد كان في مناخٍ آخر كلياً، يهرب من ذاته ومن ليال ومن كل النساء. أقام له والده حفلة كبيرة ودعا إليها كل شخصيات البلد وبناتهم. كان رامي في تلك الحفلة كالفراشة يتنقل من صبية إلى أخرى من دون التركيز على واحدة بعينها مما خيب أمل الجميع وأمل والديه أيضاً اللذين كانا يتمنيان أن يعجب رامي بإحدى تلك الجميلات.

بعد شهر على وجودهما في باريس، أتى الجواب إلى ليال بقبول موضوعها في السوربون. زارت الأستاذ المشرف واتفقت معه على كيفية العمل لمدة أشهر محددة وعادت مع أبيها إلى لبنان. كان رامي قد غادره وعاد إلى عالمه الباريسي.

في لبنان طلبت ليال من أبيها أن يشتري لها شقة صغيرة تجعل منها مكتباً إذ إن جو البيت ما عاد يسمح لها بالعزلة الضرورية لتحضير أطروحتها. استجاب الشيخ فارس

لطلبها واشترى لها شقة كبيرة وسيارة وفتح لها حساباً في البنك تسحب منه ما تريد من دون أن تعود إلى أحد.

حققت ليال بذلك أول خطوة نحو الاستقلال. أصبحت تمضي فترة قبل الظهر في مكتبها حيث تستقبل أحياناً بعض الأصدقاء وتعود إلى بيت أهلها لتناول الغداء وأحياناً لا تعود. لكنها في المساء كانت دائماً تنام في غرفتها في بيت الأهل. هذا ما كان في بداية مرحلة الاستقلال، لكن رويداً رويداً أصبحت ليال من وقت لآخر تنام وحدها في شقتها التي رتبتها كما تريد. كانت شقة تتألف من صالون كبير وغرفة طعام وأربع غرف نوم ومطبخ واسع وأربعة حمامات. قسمت ليال الشقة إلى قسمين؛ قسم شكل المكتب واحتفظت بالقسم الآخر لحياتها الخاصة. بما أنها لا تحب المساحات الفارغة، ملأت الجدران باللوحات التي كانت لديها والتي اشترتها فيما بعد من المعارض. أما اللوحة التي أهداها لها والدها وقد أتى بها من مصر وهي تمثل الأهرامات وبالقرب منها عدد من الجمال، فقد علقتها على أحد جدران الصالون قبل أن تنقلها إلى غرفة النوم بعد وفاة والدها لكي تبقى لها وحدها.

أصبح لليال أصدقاء وصديقات عديدون وبدأت تنسى رويداً رويداً رامي وكل المدّة التي أمضتها معه. يقول المثل: كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فتبدأ كبيرة ثم تصغر. الحمل الذي وقع على منكبي ليال حين علمت بخيانة رامي لها أخذ يتبخر، بدأ يخف وزنه وكلما خفّ وزنه شعرت ليال بخفة في داخلها وبنمو لحريتها. رامي يبتعد عنها وهي تقترب من ذاتها. حين التقت الـ«كردينال» بعد سنة تقريباً كان رامي قد دخل الذاكرة كما دخلها قبله الأستاذ كامل. لكنه دخلها وشكلت له صندوقاً زجاجياً فارغاً من الهواء كالذي استرعى انتباهها في المتحف الوطني في لندن. أصبح في ذاكرة ليال حتى الآن زاويتان، تحتل إحداهما صورة الأستاذ كامل الشاب الوسيم الجذاب ويحتل الثانية ذلك القفص الزجاجي وفي داخله رامي موضوعاً sous vide .

بعد مرور سنة على عودتها إلى لبنان وعملها الجدي في أطروحتها، شعرت بضرورة القيام بنشاط ما. ما كانت تبغي العمل المأجور لأنها مكتفية من هذه الناحية، مكتفية من

دون أن تشعر بالحرج لأن الشيخ فارس أفهمها منذ البداية أن ما يقدمه لها هو حصتها الشرعية. كانت إذاً تملك ما يكفيها لتعيش مدى حياتها بكرامة من دون أن تحتاج إلى أحد.

تفاهم الشيخ فارس مع جهاد في قضية الميراث. يقول الشرع إن للذكر مثل حظ الأنثيين. هذا هو الشرع، لكن شرع الشيخ فارس يقول: للأنثى مثل حظ الذكر. حين وقعت ليال في محنتها، صعبت عليه وقرر أن يعوض عليها بما يستطيع. لهذا السبب وبعد أن تشاور مع جهاد الذي كان متفهماً جداً، قرر الشيخ أن يرث جهاد وليال بالتساوي. أضاف جهاد: «على كل حال لن أتركها تحتاج ولو أتى ذلك على حساب حصتي، أنا قادر على العمل وأعمل، لن أتركها تذل نفسها لأي رب عمل مهما كان، سأحميها بعيوني». جهاد إنسان طيب جداً والذي ساعده على الاستمرار في طيبته هو زوجته حنان التي كانت صديقة فعلية لليال. من جهتها، ليال كانت تحب بيت أخيها جداً وتعشق بشكل خاص فارس الصغير الذي كان في تلك الفترة لعبة الجميع وبخاصة عمته ليال. ربما كانت تسقط عليه كل عاطفة الأمومة التي حرمت منها بسبب خيانة رامي لها. لكنها بعد تلك الخيانة أصبحت عدوة شرسة لمؤسسة الزواج.

حين يقف المرء ضد مؤسسة الزواج فهو يميل ربما إلى العلاقات الحرة التي تنشأ وتقوم من دون قيود ولا مؤسسات. هل أصبحت ليال تميل إلى هذا النوع من العلاقات؟ لا! لقد كرهت الرجل، لا بل فقدت ثقتها به. لم تكرهه نهائياً لأن قابلية الحب عادت وبرزت عندها من جديد، لكن الثقة لم تعد إليها؛ هذا ما حدث معها حين أحبت من جديد. يبدو أن فعل الحب هو أقل أثراً في النفس من فعل الخيبة. هذه الأخيرة تحفر في العمق أكثر، تترك أثراً لا يمحوه الزمن بسهولة ولا حتى بصعوبة. الخيبة هي التي تحدد المسارات من بعدها، أما الحب فنستطيع نسيانه. هو لا يؤثر إلا في تفاصيل المسار اللاحق، إذ إننا نحب في المرة الثانية مثلاً من يختلف عن موضوع حبنا الأول، لكننا غالباً ما نستمر في البحث عما يذكرنا بالحب الأول. هل الحب منمَّط كما يقال؟ ربما، نحن ننجذب إلى شيء محدد، وهذا الانجذاب يعود إلى تكوين الشخصية، ولهذا السبب يتكرَّر.

صحيح أن رامي دخل ذاكرة ليال ليتجمد في وضع معين إلا أنه في الحقيقة قد تابع حياته، لكننا لم نعد نعرف عنه الكثير. ما رشح إلينا من أخباره هو أنه لم يتزوج من جديد على الرغم من «نق» والده. كان يتنقل من امرأة إلى أخرى، حتى أن البعض قال إنه انحرف جنسياً وأخذ يعاشر الرجال ومنهم من ربط اسمه بأحد المفكرين الفرنسيين الكبار في هذا العصر. لكنه وبسبب فشل إحدى تلك العلاقات، انتقل إلى ألمانيا ومكث فيها ليدير شركات والده من هناك. حين تأخر رامي بالزواج وظهر الكلام حول انحرافه الجنسي تعزز رأي الشيخ فارس في رفضه له. «الحمد لله أنك تخلصت منه» كان يقول لليال أحياناً. لكنها هي تخلصت منه ليس بسبب ما يقال عنه بل لأسباب أخرى تعود لمرور الزمن، والأهم من مرور الزمن هو حبها الجديد الذي بدأ بانجذاب مفاجئ واستمر حتى تمكَّن ونال من كل كيانها.

اشتغلت ليال على أطروحتها لمدة معينة ثم سافرت إلى فرنسا بعد أن اتصلت بالأستاذ المشرف وحدَّد لها موعداً. حين انتهت من تقديم عملها ومن مناقشته مع أستاذها، نصحها هذا الأخير بأن تبحث عن الدكتور وائل في لبنان، قال لها: «صحيح أنه دكتور في الفلسفة لكنه سيساعدك جداً في هذا الموضوع بالذات ويخفف عنك عناء الاتصال بي والمجيء المتكرر إلى فرنسا. أظن أنه يدرِّس في الجامعة اليسوعية في بيروت. اسألي عنه واطلبي منه أن يساعدك. سأبعث له رسالة بهذا الخصوص وسأطلب منه أن يشرف هو على عملك، وإن قبل فسأدعوه ليكون عضواً في لجنة المناقشة لاحقاً. على كل حال أخبريني بما يجدّ معك». كتب رسالة مختصرة إلى الدكتور وائل وسلمها إلى ليال.

حين عادت إلى لبنان، ذهبت ليال إلى الجامعة اليسوعية في الأشرفية، سألت عن الدكتور وائل، لم تجده. كان في تونس يشارك في ندوة حول الفكر العربي. لكن ليال استطاعت أن تحصل على رقم هاتفه. في البيت أخبرت جهاد بما قامت به وفقاً لنصيحة أستاذها في فرنسا. ضحك جهاد وقال لها: «لا تخافي سآتي بالدكتور وائل إلى هنا. إنه صديقي وأنت تعرفينه جيداً».

— كيف أعرفه ومن أين؟

— إنه الكاردينال، ألا تذكرينه؟ القليلون من الذين كانوا في فرنسا، يعرفون اسمه الحقيقي. إنه فعلاً مميز في حقل اختصاصه، سأدعوه إلى البيت بعد مجيئه من تونس. لكنه يحب النساء الجميلات وقد سبق وسألني عنك في باريس. حين علم أنك متزوجة، قرأت الخيبة في عينيه. إنه لص نساء بكل معنى الكلمة. انتبهي.

— لا أذكره جيداً. حين دار النقاش بينه وبين رامي في ذلك الاجتماع، كان رامي يستحوذ كل انتباهي. وتابعت وهي تضحك: «كان عامي قلبي».

فرح جهاد لتعليق ليال الضاحك وتأكد أنها انتهت من رامي وما عادت تعاني. ضمها إلى صدره وقال: «قريباً سأجمعك بوائل، متى يعود؟».

— الندوة في تونس تستغرق أسبوعاً كما فهمت.

لبى الدكتور وائل دعوة جهاد إلى بيته. حين رأى ليال، استغرب الأمر وفرح به في الوقت نفسه: «السيدة ليال هنا، ما هذه المفاجأة؟».

— إنها هنا كل الوقت. ليال طلقت زوجها وهي تقيم الآن هنا في بيروت، وهي تحضر أطروحة دكتوراه في موضوع مهم وقد نصحها أستاذها أن تتصل بك وتطلب مساعدتك.

حين قرأت عليه ليال الموضوع، فرح به. ربما يكون هذا الموضوع مدخلاً له إلى قلب ليال. قال:

— أنا جاهز، سأساعدك بكل سرور.

أمضى وائل تلك السهرة وهو ينظر إلى ليال كأنه يريد التهامها. كان يفعل ذلك من دون أن يتركها تلاحظ نظراته إليها. ومرّ الوقت في الحديث مع جهاد الذي أعاده إلى أيام باريس وذكرياتها وسأله عن بعض الصديقات اللواتي كن متيمات به. أتت إجابات وائل ابتسامات معبرة من دون كلام.

— أما زلت على حالك مع النساء؟ سأل جهاد.

— ما هذه الدعاية يا صديق؟

— دعاية! أسمع أنك لا توفر حتى الطالبات في الجامعة، أيها الساحر.

— حين لا يكون الأمر جدياً يتنقل الرجل من وردة إلى وردة حتى تظهر وردة تسحر الساحر، فتنقلب اللعبة ويظهر الحب والعشق.

— وهل تؤمن بالعشق والحب؟

— بالعشق نعم. أما الحب فلم أجربه بعد وأرغب جداً بتجربته إذا سمحت الظروف. صمت قليلاً ثم تابع من دون أن ينظر إلى ليال: وأرى أنها ستسمح.

لم يكن جهاد غبياً، لقد لاحظ نظرات وائل إلى ليال. لن يقف ضد حب بينهما إذا حصل، بل على العكس سيشجعه. وائل شاب ممتاز وهو من نمط الرجال الذي يعجب ليال. وهي إن أحبته وتزوجت به، فستخرج من وحدتها وتعيش حياة سعيدة، مرتاحة مع عائلة وأولاد و...

استمعت ليال إلى ما دار من حديث بين جهاد ووائل ولم تحفظ منه إلا ما حدست أنه موجه لها. وجدت أن وائل شاب جذاب وثقافته ولا مبالاته يضيفان إلى شخصيته سحراً غامضاً. وهو يوحي بأنه أكثر مما يظهر. هل هو كذلك بالفعل؟

انتهوا من النقاش في موضوع أطروحة ليال وغيره وهمّ وائل بالرحيل، لكن جهاد دعاه إلى شرب كأس في نايت كلوب ثم العشاء في أحد المطاعم: «يا شيخ من زمان طويل لم نلتق».

— أقبل بكل سرور. هل تعتقد أنني أملك القدرة على رفض مثل هذه الرفقة؟

نادى جهاد زوجته حنان التي سلمت على وائل بحرارة وطلب منها أن تحضر نفسها للخروج.

في الملهى الليلي شربوا من المسكرات كمية تجعل الإنسان خفيفاً ومرحاً. حين يخف الإنسان ويشعر بالفرح، يشف جسده لتمر عبره الموسيقى ويبدأ بالتمايل مع النغمات. تمايل جسد ليال وهي جالسة مكانها. شعر وائل أنها تناديه وأن عليه ألا يفوت الفرصة. نهض من مكانه، أخذ يدها ودعاها إلى حلبة الرقص. في تلك اللحظة تغيرت الموسيقى، أصبحت هادئة مما سمح لليال ووائل برقصة ناعمة أسمعها خلالها بعض الكلام الجميل، بعض الكلام الذي تحلم كل إنسى بأن تسمعه من رجل. كان يضمها إليه ويتنشق عطرها. استسلمت ليال لأحاسيسها، وضعت رأسها على كتفه وتابعا الرقص وهو يسر لها في أذنها بعض طلاسمه وكلماته الجميلة.

كانت تلك الليلة هي الأولى، بعد فراقها عن رامي، التي أدخلت إلى أحلام ليال صورة رجل آخر. كانت ليال إلى ذلك التاريخ ترفض حتى النظر إلى الرجل. «هل هو فعلاً كما قال جهاد لص نساء؟». غفت تلك الليلة وهي تحلم بوائل وبكلماته ولمساته الناعمة. في الصباح قررت أن تنساه وأن تتعاطى معه كأستاذ يساعدها في عملها. لن تضعف. لن تضعف لأنه يوجد في قرارة نفسها رفض قاطع لفكرة الزواج.

قبل فراقهما في نهاية تلك السهرة، قالت ليال لوائل: «سأتصل بك». وأجابها: «كما تريدين»، لكنه تابع: «أنا لست حراً كل الأوقات وأفضل أن أتصل بك أنا حين يكون لدي وقت». كان ذكياً ولا يريد أن يترك لها المبادرة، التي ربما لن تأتي.

— سأعطيك رقم مكتبي. قالت ليال.

— وهل لديك رقم خاص غير رقم البيت؟ — لم يكن الهاتف الخليوي موجوداً في ذلك الوقت

— اشترى لي والدي شقة أعمل فيها خلال النهار.

— وهل تستقبلين فيها؟

— طبعاً، فهي مقر عملي، هي مكتبي.

أخذ وائل رقم هاتفها وعنوان شقتها وانصرف. لمجرد علمه أن ليال تملك شقة لها وحدها، استيقظ في داخله شعور بأنها ستكون له بكل تأكيد. سيزورها في شقتها ويكون وحده معها. سينفرد بها ويتمكن من إقناعها والفوز بها. ثقته بنفسه قوية جداً وقد عززها ترامي النساء عليه كأنه «الدبوق» الذي ينصب لاصطياد الطيور.

لم يتصل بليال إلا بعد أسبوع:

— تركت لك الوقت كي تنجزي عملاً ما، هل لديك ما نتناقش به؟

فرحت ليال باتصاله وأجابت: «طبعاً لدي الكثير من داخل الأطروحة ومن خارجها». «إنها دعوة صريحة». قال وائل لنفسه. والتقيا في شقتها كما اتفقا.

جلسا معاً، قدمت له ليال كأساً من الوسكي وسكبت كأساً لها وتكلما بكل الأمور التي لا تتعلق بعمل ليال في أطروحتها. أخبرته عن تجربتها الفاشلة في الزواج وأردفت: «جنس الرجال جنس منحط». لم يعلق على كلامها ولم يتكلم مباشرة عن حياته الخاصة. لكنها هي التي تعرف من مصادر أخرى أنه يعيش مع صبية، من دون أن تعرف من هي، جرّته إلى الاعتراف.

— أنت غير متزوج، صحيح؟ هل تعيش وحدك؟

— نعم ولا.

— ما هذه الفذلكة؟

— أعيش مع فتاة أعرف أنها تحبني جداً. لكن وعلى الرغم من حبها لي أشعر بالوحدة لأنني لا أحبها.

— كيف تعيش معها إن كنت لا تحبها؟ طبعاً تمارس معها الحب و...قبل أن تتابع صحح لها قائلاً:

— أمارس معها الجنس والفارق كبير بين الاثنين.

— أعرف أن الفرق كبير بين الاثنين مع أنني لم أمارس الجنس يوماً. كيف تستطيعون ذلك أنتم الرجال؟

— نستطيع. متى نهتاج تصبح عملية الإفراغ ملحة ولهذا السبب تتم مع من يتوفر.

— إلى هذه الدرجة أنتم سفلة؟

— وأكثر إن أردت. لكن حين يحب الرجل فالأمر يتغير.

— هل أنت قادر على الحب؟

أخذ وجهها بين كفيه وقال: «طبعاً، طبعاً. كلنا نبحث عن الحب». كاد أن يبوح لها بحبه لكنه كابر وصمت.

— هل لي أن أعرف من هي الصديقة التي تعيش معها؟

— لا تعرفينها. إنها صبية أنهت مرحلة الإجازة وهي الآن تحضر رسالة الدراسات العليا.

— ما اسمها؟

— وهل يهمك اسمها؟

— وهل وجودها معك سر؟

— لا!

وائل هو من الرجال الذين يجرؤون على القيام بعلاقة حرة علناً. والأكثر من ذلك هو من الرجال الذين تجرؤ الإنسى على القيام بعلاقة حرة معهم ولو لم يكن الأمر علناً.

— إذن من هي؟

حين سمعت ليال اسمها صمتت وغارت في ذاتها. ما عادت ترى وائل. غاب عنها لتحضر في ذهنها قصتها مع رامي الذي خانها مع صديقتها. بعد صمت طويل لم يفهمه وائل ولم يقطعه في الوقت نفسه قالت:

— أعرفها، إنها صديقة لي من أيام المدرسة. هل هي سمراء، طويلة...؟

— نعم إنها هي. علاقتنا مستمرة لأنني أنا لم أنهها حتى الآن، لكنني قادر على التخلص منها خلال وقت قصير. إنها لا تعني لي شيئاً، فقط تشبع شهوانيتي وتلبي كل رغباتي ونزواتي الجنسية.

أرادت ليال أن تستفسر أكثر، أرادت من خلاله أن تفهم ماذا جرى بين رامي ودومنيك. كانت سحر، وهو اسم صديقة وائل، هي أيضاً صديقتها. هل تفعل بها ما سبق وفعلت دومنيك بها؟ لا، وألف لا! وقالت لنفسها: «أنا لن أمارس الجنس مع رجل لا أحبه ولن أسمح في المقابل لأي رجل أن يمارس الجنس معي إن لم يكن يحبني».

كل ذلك دار في رأس ليال قبل أن يبادر وائل ويقول: «ما لنا وللآخرين، أدعوك إلى المقهى لتناول أي شيء».

— وصديقتك التي تنتظرك في البيت؟

— أستطيع أن أدعوها هي أيضاً. هي تعرفني جيداً. علاقتنا ليست كالعلاقات المغلقة وهي تعلم أن لي صديقات كثيرات و...

— ما هذا النمط من العلاقات التي لا أفهمها! لكن ادعها إلى المقهى، أود أن أراها وقد مضى الآن أكثر من سبع سنوات على فراقنا.

التقوا في المقهى واستعادت ليال وسحر ذكرياتهما في المدرسة. كان وائل صامتاً يصغي إليهما. ربما قارن بينهما أو قارن بين مشاعره تجاه كل واحدة منهما. منذ ذلك اللقاء بدأت علاقته بسحر تسوء. صعب الأمر عليها هي التي لم تتخيل أنه بإمكانها العيش وحدها إن تركها وائل. ستعيش وحدها لأن أهلها نبذوها بعد أن تورطت مع وائل. لكن وائل استطاع أن يؤمن لها منحة دراسية تمكنها من السفر لمتابعة دراستها في الخارج. هكذا خلال سنة من لقائه بليال تحرر وائل وأصبح يعيش وحده على أمل أن يحظى بليال.

ثابر كل تلك الفترة على زيارة ليال وإخبارها بما يقوم به. يخبرها لأنه كان واثقاً من حبها له ومن حبه لها. كانت ليال تسمعه من دون تعليق، وهي تقرأ الحب في عينيه. حتى أن الأصحاب لاحظوا التغير عند وائل والبعض قال: «وائل مغرم! يا للعجب!». أحب وائل ليال فعلاً لكنه لم يبح لها مباشرة. كانت عزة نفسه أكبر من حبه ربما. توجه إلى جهاد وباح له بمكنون صدره وبحبه لليال. باح له أنه لم يحب مرة في حياته كما يحب ليال وطلب منه أن يساعده.

— طبعاً. لا أرى أفضل منك لليال. أعتقد أنها هي أيضاً تحبك. أنا شبه أكيد. لماذا لا تكلمها وتتفاهمان مباشرة؟

— لمحت لها مرات عديدة وبطرق مختلفة. شعرت أنها تفهمني لكني لم ألمس عندها حماسةً تشجعني على البوح صراحة بحبي لها.

— اترك الأمر لي. أعرف ليال جيداً فإن كابرت أنت ولم تبح لها بحبك، فهي أكثر منك مكابرة ولن تبوح لك إطلاقاً بحبها.

حين عادت ليال، في ذلك اليوم، إلى بيت والديها فاتحها جهاد بالموضوع. لم تتكر حبها لوائل: «إنه الرجل الوحيد الذي أيقظ مشاعري بعد رامي». صمتت قليلاً ثم تابعت: «لكن لن أتزوج به، لن أتزوج من أحد، انتهى الموضوع. ما عدت أثق بالرجل». حاول جهاد إقناعها بأن على المرء أن يحاول من جديد وأن الدنيا لا تنتهي بتجربة واحدة و...

لكنها أجابته: «لا أجرؤ، أنا خائفة. أحب وائل وأحب حبي له ولهذا السبب أخاف أن أفقده إن تزوجنا. سأكتفي بحبي له من بعيد».

التقت ليال بوائل بعد ذلك الحوار مع جهاد. تصرفت معه بكل عفوية ولم تقل له شيئاً. كان سلوكها يدل على قبولها له. هو أيضاً لم يسألها، فضل التوجه إلى جهاد الذي حين التقى به، سأله:

— أخبرني، هل تكلمت معها؟

— تكلمت، لكنها غريبة الأطوار. تحبك ولا تريد الزواج. لقد عقّدها رامي، ما عادت تثق بالرجال. أعتقد أنه يلزمها مرور زمن معين قبل أن تعود إليها الثقة بالرجال من جديد.

— ليال تلبس خيبتها كشادور. لن أيأس، سأتابع. إن كانت تحبني فهذا يسهل الأمور.

— أنا واثق من ذلك.

سافرت سحر إلى الخارج وبقي وائل وحده يحوم حول ليال التي وإن فرحت برحيل سحر من دون أن تكون هي السبب المباشر في ذلك، لم تكن بعد قادرة على اتخاذ القرار، لم تكن تملك الجرأة على خوض تجربة ثانية ترى الفشل في نهايتها. تفكر دائماً بأن شخصاً مثل وائل لن يكتفي بإنسى واحدة، وإن أحبها هي الآن فإلى متى سيدوم هذا الحب؟

من جهته، وائل قدم كل ما يستطيع تقديمه إلى ليال لإثبات حبه لها. واظب على ذلك إلى أن أنهت ليال أطروحتها. حين عينت لجنة المناقشة، وكان هو عضواً فيها، علل النفس بأنه سيكون مع ليال في فرنسا، ربما يساهم تغيير الأجواء في حلحلة عقدتها.

قبل تاريخ المناقشة توعكت صحة الشيخ فارس وتم الاتفاق على أن تبقى الست هلا إلى جانبه وأن يرافق جهاد وزوجته حنان أخته ليال إلى فرنسا. كانت حنان قد أنجبت طفلة هي هلا الصغيرة التي أصبحت حبيبة جدتها تغنجها وتصفف شعرها وتقدمها للنظر كالدمية التي يود كل من يراها أن يدنو منها ويداعبها، وقد داعبها وائل مرات عديدة، ربما ليظهر لليال أنه يحب الأولاد والعائلة. كانت ليال تفهم وتتجاهل الموضوع.

ذهبوا إلى باريس. ذهبوا معاً على متن طائرة واحدة: ليال وجهاد وحنان ووائل. في باريس لم يفترقوا لأن جهاد دعا وائل للإقامة معهم في البيت. قبل وائل بسرعة من دون تردد. إنها فرصته لتدرك ليال كم يحبها وليظهر أمامها على حقيقته. ثمن عالياً دعوة جهاد تلك لأنه أدرك مدى التواطؤ بينهما.

قبل موعد المناقشة كان جهاد يخرج مع حنان وتبقى ليال مع وائل في البيت بحجة أنهما يحضران العرض الذي ستقدمه ليال أمام اللجنة قبل المناقشة. كانا فعلاً يحضران ما ستقرأه ليال لعرض موضوعها. يتركها وائل تكتب وحين تقرأ عليه ما كتبت، يتدخل عند اللزوم لتصحيح أو توضيح أو تعديل بعض النقاط.

بين الحين والآخر كان وائل يحضر لها القهوة. يجلسان معاً في الصالون وهو يتحرق للبوح لها بحبه. هي أيضاً كانت في مثل حالته، لكنها كانت تجر الحديث حول الأطروحة وخوفها من المناقشة و...في إحدى الجلسات لم يعد وائل قادراً على التحمل. حين حملت «صنية» القهوة وتوجهت نحو المطبخ، لحق بها واستطاع أن يضمها إليه ويقبل ثغرها وهو يقول: «إلى متى سنهرب من ذواتنا؟ ليال أحبك، أحبك». تصدع تماسك ليال. كادت أن تنهار، استسلمت لقبلته لحظة ثم انسحبت من بين ذراعيه وعادت إلى توازنها، لكنها اعترفت له: «أنا أيضاً أحبك لكن...» وصمتت.

— لكن ماذا؟ هل تمضين حياتك تجترين خيبة صبيانية؟

— وائل أحبك فعلاً، ربما ساعدني الوقت على تخطي خوفي وحذري.

— إلى متى ننتظر؟ لماذا هذه الطوباوية؟ لماذا هذه المثالية؟ فلنجرب، وإن فشلنا نفترق ونعيد الكرة من جديد.

— ما أسهل الأمور عندك!

— إنها سهلة بحد ذاتها، تصبح صعبة حين ننظر إليها من خلال عقدنا.

توقف الكلام بينهما إذ عاد جهاد وحنان، ولديهما مشروع لتمضية تلك السهرة في المون مارتر. بعد العشاء في مطعم على تلك الرابية، أرادت ليال أن يرسمها أحد الرسامين

الموجودين بكثرة في المحلة. جلست أمامه، فتدخل وائل وقال: «أرجوك ارسم وجهها في الأعلى واترك مجالاً لرسم وجهي على الورقة نفسها». فهمت ليال الإيحاء، سرت به ونُفذت اللوحة بوجهين بالكاد يلامس أحدهما الآخر. أخذت ليال الرسمة واحتفظت بها. حين فردتها بعد سنين طويلة، نظرت إليها بغصة لأنها أيقظت فيها حنيناً كان كالجمر تحت الرماد.

تمت المناقشة على خير وجه وعادوا إلى لبنان. عاد جهاد إلى عمله وحنان إلى أولادها ووائل إلى جامعته. أما ليال فكان لديها مشروع جديد. كانت تخطط لإنشاء دار نشر ولإصدار مجلة متخصصة فقط بالقول الإنسوي.

بدأت بتحضير ما يلزم وأنشأت الدار التي ساعدها في إنشائها وائل. لم يكن قد يئس بعد منها ومن ترددها. لكنه بعد رجوعه من باريس، عاد إلى سابق عهده. بدأ يخرج من جديد مع الصبايا وظل صديقاً حميماً لليال التي أصبحت تكتفي بهذه الصداقة. كانت الشائعات تملأ العاصمة حول علاقته بها وليال تفرح بتلك الشائعات وتظهر علناً مع وائل، وتحسدها كل النساء اللواتي كن يتمنين التقرب من وائل واستمالته. لكنها لم تقبل فكرة الزواج إطلاقاً وظلت تتمنع إلى أن نفد صبر وائل وتزوج من أول امرأة حملت منه.

حين تزوج وائل، لم تشعر ليال بالاستياء. لماذا؟ عادت إلى ذاتها تسألها لماذا هذا الرفض القاطع لوائل كزوج؟ دخلت إلى أعماقها واكتشفت أنها تحبه فعلاً. لكن الاكتشاف الأهم الذي توصلت إليه هو أن هذا الحب كان دائماً مظللاً بطيف لا يفارقه وهو طيف رامي، بل الأصح هو طيف خيانة رامي. عادت بالذاكرة إلى مرحلة زواجها، ماذا وجدت؟ وجدت أنها كانت على اتفاق فكري تام مع رامي. هذا الاتفاق كان يتجسد عشقاً يرميها في أحضانه كطفلة صغيرة. عشقت كل شيء فيه من نظراته إلى ابتسامته إلى نداوة شفتيه وهو يقبلها إلى... من كثرة عشقها له وعشقه لها، كانت أحياناً تنتشي من قبلاته فقط التي كان يزرعها على كل أنحاء جسدها. ابتعد رامي عنها زمنياً لكنه ترك ظلاً يتحكم بها.

عادت إلى وائل وتأكدت من أنها تحبه فعلاً واكتشفت أن رفضها للزواج به هو بالضبط للمحافظة على حبه. كلما كانت تفكر بالزواج مثلت أمامها الخيانة ونهاية العلاقة

التي لا تريدها أن تنتهي. كانت تشعر أن ما بينهما من اتفاق فكري وانفعالي وحتى تهكمي هو أهم من علاقة الزواج التي ستؤدي، بحسب تفكيرها، إلى الانفصال. قالت لذاتها: «إن لم يدخل الجنس انتفت الخيانة. ها هو الآن متزوج وأنا لا أشعر بأية غيرة ولا بأية إهانة. مهما فعل لن يغير ما بيننا إلا إذا تغير فعلاً ولم يعد هو. إذا حصل ذلك فلن يعود يعني لي شيئاً».

هل حالة ليال النفسية تلك ستفرض عليها أن تستمر من دون شريك؟ حتماً لا. لكنها كانت تبحث عن صيغة لا تربطها بشكلٍ نهائي بالرجل، تبحث عن شخص تحبه ويحبها، شرط أن تظل علاقتهما غير ضاغطة بحيث تبقى بعيدة عن مفهوم الزواج التقليدي. كانت مكتفية بعملها ولا تريد أن يشغلها عنه أي عائق حتى ولو كان العائق ولداً. باختصار كانت تبحث عن علاقة حب تعيش فيها متعة الحب من دون نتائجه التي تعتبرها سلبية. وتقول لنفسها: «إن لم أجد ما أريد فسأبقى كما أنا. لست بحاجة إلى أحد. ما أريده هو علاقة لا تترك ظلالها علي حين تنتهي».

ما أرادته ليال، لا يأتي إن بحثنا عنه. لا يأتي إلا مصادفة وقد حصلت تلك المصادفة؛ كان البلد آنذاك يعيش حرباً داخلية شرسة، مما دفع ليال إلى السفر المتكرر إلى بلدان عديدة. في إحدى أسفارها تعرفت، عند صديقة لها، إلى شخص يكبرها سناً. كان مطلقاً ويعيش وحده في فيلا كبيرة في العاصمة السويسرية وهو يبحث مثل ليال عن علاقة غير تقليدية. حين تعرف بها انجذب إليها وأخذ يغازلها ومع الوقت تحول انجذابه إلى حب. بالمقابل مالت إليه ليال. وجدته شديد الشبه بوالدها ويعاملها بكل لطف ودلال. أصبح بالنسبة إليها بين العشيق والأب. أنست إليه وارتاحت لعلاقتها به وبخاصة أن تلك العلاقة اتخذت الشكل الذي فرضته هي. كان هو يقيم طبعاً خارج لبنان وهو وضع يناسب ليال جداً إذ إنها أصبحت تلتقي به في أوقات محددة تكون فيها متعبة وتريد الراحة على أحد شواطئ العالم البعيدة أو في إحدى الجزر أو أحد الجبال المكسوة بالثلج لممارسة رياضة

التزلج أو.... كانت الاحتمالات كثيرة. كانا يلتقيان لمدة أسبوع أو أسبوعين ويعود كل منهما إلى عالمه؛ هو يعود إلى تجارته وإدارة أمواله الكثيرة، وهي إلى دار النشر والمجلة.

أمضت ليال كل فترة الحرب تتنقل بين عواصم العالم وبيروت حيث كان يقيم والدها وأخوها باستمرار، بينما كان الآخرون من افراد العائلة من الست هلا إلى حنان إلى الأولاد، يقيمون في باريس بشكل دائم. يأتون أحياناً إلى لبنان، لكن سرعان ما كانوا يتركونه هرباً من جحيم النار والجهل.

حين طالت الحرب وما عاد أحد يرى لها أفقاً استقرت حنان مع أولادها في باريس بسبب المدارس. أصبح الشيخ فارس والست هلا يتنقلان بين فرنسا ولبنان. كانت الست هلا تبقى أحياناً مع كنتها وأحفادها في باريس، ويعود الشيخ وجهاد إلى بيروت ويزوران الضيعة باستمرار، تلك الضيعة التي وعلى الرغم من توزع أبنائها إلى طائفتين ظلت متضامنة ونجت من الفتنة التي نخرت البلد بكامله. نجت الضيعة بفضل حكمة الشيخ فارس وابنه جهاد.

أما العمل، عمل ليال في الدار والمجلة، فقد تعثر بسبب الأحداث. الدار أقفلت والمجلة بدأت تتخلف عن موعد صدورها وقد ساعد وائل ليال في محاولة الاستمرار في إصدار المجلة وأخذ يكتب فيها على الرغم من أنها كانت مخصصة للقول الإنسوي، إلا أن ليال وافقت أن تترك فيها مجالاً للقول الآخر. كانت تسمي هذا القول، قول الجنس الآخر إذ أصبحت الذكورة هي الجنس الآخر بنظرها، على عكس ما قالته سابقاً سيمون دي بوفوار.

أصرت ليال على استمرار إصدار المجلة ولو متأخرة عن مواعيدها. ربما أصرَّت على ذاك لكي تظل على اتصال بوائل. كلما عادت من سفر، اتصلت به، فيلتقيان ويتناقشان طويلاً ويتبادلان الأشواق من دون أن يفصحا عنها بالكلام. كانت ليال تكتفي بهذا الإفصاح الصامت، تكتفي بالتواجد مع وائل حين تكون في بيروت، تطمئن إلى صمود حبها له وصمود حبه؟ لها. ثم ترحل من جديد بعد أن يسمعها وائل كلاماً تفرح به، يقول لها أحياناً: «ما هذه الرحلات المتكررة، ألا تعلمين أنني أغار؟»، يقول ذلك وهو يضحك

كي لا يؤخذ كلامه على محمل الجد. كانت ليال تضحك أيضاً، تضحك لأن كلامه يغذي نرجسيتها وثقتها بنفسها.

هكذا لم تنقطع ليال عن رؤية وائل وهكذا مرّ الزمن وغيَّر فيه ما غير من دون أن يُلاحظ التغيير. حين نرى شخصاً ما باستمرار، لا نلاحظ مرور الزمن على جسده، ولا كيف تحفر التجاعيد وجهه. نراه كأنه هو هو دائماً على عكس ما يحدث معنا حين نرى شخصاً بعد انفصال طويل. إذاً ظل وائل هو هو في نظر ليال، ظل ذلك الشخص الذي تحيط به هالة من الجاذبية كأنه دائماً في وسط حقل من المغنطيس. هكذا كان بالنسبة إلى ليال. كم كانت إسقاطاتها عليه عظيمة!!

طالت الحرب وتكررت اللقاءات بين وائل وليال، ورزق وائل بابنة وأنجبت حنان ليال الصغيرة، وتبعها رائد، وأصبح لجهاد عائلة مؤلفة من أربعة أولاد كانوا فرح جديهما. يفرح الشيخ فارس كلما رزق جهاد بولد. لكن غصة كانت تمنعه من الاستسلام للفرح ؛ كان مشغول البال على ليال، يريدها أن تتزوج، أن تعيش مع رجل وتنجب أطفالاً. عاش قلَقاً دائماً عليها لكنه قليلاً ما فاتحها بالموضوع. علم بعلاقتها بذلك الرجل السويسري لكنه لم يشر إلى ذلك بكلمة أو يسألها عنه. وثق بها على الرغم من غصته وترك لها حرية التصرف بحياتها.

أما الست هلا فكانت تتدخل في أمور ليال وتكره صديقها وتعبر عن مشاعرها، مما أوجد نوعاً من النفور الخفي بين ليال وأمها. استمر هذا النفور إلى أن مرض الشيخ فارس مرضاً عضالاً، لا مجال لعلاجه. خلال مرض والدها ابتعدت ليال عن صديقها وعن عملها ولازمت بيت أهلها. استعادت حب وعطف أمها، لكنها لم تستطع استعادة والدها أو إطالة عمره ولو لحظة واحدة.

حين أتى الوقت، حين انتهى الزيت في ذلك القنديل، انطفأ بهدوء، انطفأ ليترك ليال تعيش صدمة كبيرة، صدمة جعلتها تغير كل نظرتها إلى الحياة وإلى كل الأمور. هكذا انطوت صفحة ثانية من حياة ليال. نقول: انطوت لأن ما تلاها سيظهر لنا إنسى أخرى.

مات الشيخ فارس قبل أن يرى تحقق أحلامه التي كان يحضر لها بعد انتهاء الحرب. كان يخطط ليجعل من ابنه جهاد نائباً عن منطقتهم. أما جهاد فما كان يرغب في الوصول إلى ذلك المركز وتأكد من صحة عدم رغبته تلك بعدما أجريت أول انتخابات نيابية بعد حلول السلام. لاحظ ما يحدث واقتنع أن غالبية رجالات البلد ليسوا سوى دمى تحركها أصابع خفية لكنها معروفة إذ أتت ما سميت انتخابات بنكرات جعلت اللعبة السياسية في البلد تنحط إلى درجة المهزلة. قبل تلك الانتخابات كان يقول لليال: «انتهى البلد». حين حصل «الانقلاب» في شهر أيار سنة ١٩٩٢ تأكد من تحليله أن البلد سائر نحو الانتهاء، نحو الهاوية وقال: «ها هي سلطة المال تتحكم الآن بالبلد وللمال منطقه الخاص إذ لا حدود لقابليته على السرقة والنهب. هذا البلد سينهب وتتوزع ثرواته شلة من الذين أتت بهم أحداث أيار وانتخابات الصيف». اعتقد الجميع أن من استلم الحكم بعد أحداث أيار ١٩٩٢ سينقذ البلد. أما جهاد فكان يجيبهم: «بارك الله لكم بهم، أما أنا فأقدم استقالتي من هذا المستنقع القذر. لن أغوص في مياهه النتنة».

استقال فعلاً جهاد وعاش في فرنسا حيث أصبح يدرّس في الجامعة هناك. درسّ وتابع أحداث لبنان من بعيد، ثم تحول إلى كاتب يهتم بالشؤون السياسية والاقتصادية. ترك السياسة العملية ليعالج قضاياها نظرياً. حين كانت ليال تذكره أن الشيخ فارس أراد له مستقبلاً سياسياً، كان يجيب: «كتاب في السياسة هو أبقى من ممارسة السياسة، هذا في بلد يحترم ذاته أما في لبنان فقد أصبحت السياسة بهدلة. أفضّل الكتابة على تحولي إلى دمية متحركة كما غالبية نوابنا الكرام».كان مقتنعاً بلا جدوى العمل السياسي في لبنان في تلك الظروف. اتخذ قراره بالابتعاد عن السياسة ونفذه من دون أسف. سافر إلى فرنسا واستقر فيها مع زوجته وأولاده الذين ما عادوا يرغبون في العودة إلى لبنان. فقط ليال الصغيرة، حبيبة قلب عمتها، كانت تزور لبنان باستمرار لتبقى معها وبخاصة في فصل الصيف.

الفصل الثالث

خلال مرض والدي ابتعدت عن صديقي السويسري، أهملته لأهتم بأبي ولأرضي أمي التي ما كانت ترى أفقاً لهذه العلاقة. رفضتها لأنها من دون أفق، وأنا أحببتها وأردت الاستمرار فيها بالضبط لأنها من دون أفق. أهملت تلك العلاقة لفترة، لكن صديقي لم يهملها وقد أتى إلى لبنان، على الرغم من سوء الوضع الأمني، أتى ليقدم لي التعازي. زارني بعد أن عدت مع ليال الصغيرة من الضيعة لنهيئ أنفسنا للسفر إلى باريس حيث أمي وجهاد مع عائلته. أتى صديقي إلى بيروت ليوم واحد، أتى ليواسيني. كان يعلم مدى تعلقي بوالدي. أثر بي ذلك جداً وثمنت عالياً صداقته لأن الأصدقاء هنا في لبنان لم يتمكنوا من زيارتي في تلك الظروف، فقط وائل ظلَّ معنا ورافقنا إلى الضيعة. هو أيضاً ثمنت عالياً سلوكه معنا.

قبل سفره، في اليوم الثاني، دعاني صديقي لتمضية عطلة قصيرة في كان، على شاطئ البحر، عطلة تخرجني من حزني. كنت أود أن ألبي الدعوة لكن شيئاً في داخلي رفض. كنت أعيش نوعاً من صحوة أعادتني إلى حبي القديم ذلك الحب الذي لم ير النور والذي وئد في بدايته. هل كان سينجح لو...؟ هذه الكلمة «لو» تفتح الباب واسعاً على كل الاحتمالات، تفتح الباب على اللامشروط واللانهائي. من الأفضل عدم الخوض في افتراضها والعودة إلى الواقع الملموس.

استمر صديقي بالاتصال بي وبالإلحاح علي لتلبية دعوته إلى «حيث تريدين». ظللت أرفض وأختلق الأعذار إلى أن مضى أكثر من خمسة أشهر وأصبحنا على مقربة من عيد الميلاد. بعد مرور ذلك الوقت قبلت دعوته وحددنا موعد لقائنا في كان. في الموعد المحدد سافرت من بيروت وحطت الطائرة في مطار شارل ديغول حيث كان علي الانتظار لأكثر من ساعتين قبل موعد إقلاع طائرة نيس. في ذلك الوقت اتصلت بكامل.

حين سمعت صوته كان قد مر على فراقنا أكثر من ثلاثين سنة، لكن الصوت ظل هو هو، ذلك الصوت الفرح الذي يتماشى كلياً مع الصورة التي بقيت عن صاحبه في ذاكرتي. هكذا أمضيت كل فترة الطيران بين باريس ونيس مع كامل وقد استيقظت في داخلي كل الأحاسيس والمشاعر القديمة من جديد. عدت معه إلى أيام المدرسة عند الراهبات، عدت إلى أول قبلة وضعها داخل يدي يوم الامتحانات. عدت إلى ذلك الصيف الذي قضيته برفقة كامل وجهاد في اكتشاف كل معالم وأنحاء الضيعة. لكن وقت الطيران بين باريس ونيس كان قصيراً. حطت الطائرة وانتقلت إلى سيارة صديقي وغاب كامل عن بالي.

هل غاب فعلاً؟ لا أعتقد ،لأنني خلال الأوقات التي أمضيتها مع صديقي كنت كثيرة الشرود. حين سألني مرة عن سبب شرودي، ظناً منه أنه عائد إلى حزني على فقدان والدي، فوجئ حين أجبته:

— ربما كان هذا اللقاء، لقاءنا الأخير.

— ماذا تقصدين؟

— لا أدري لكنني أشعر أننا سنفترق.

— هل لديك شخص آخر؟

— لو كان لدي شخص كما تقصد لما كنا التقينا... هناك حدس لدي يقول لي إننا سنفترق.

— ليال أنا مستعد لكل ما تريدين. أنا مستعد للزواج إن قبلت بي زوجاً.

— لا، لا. علاقتنا نجحت لأنها خارج هذا الإطار. لا تفكر للحظة أنني أقول لك ما أشعر به من أجل أن أدفعك إلى الزواج. أنت غلطان. فقط أشعر أنها رحلتنا الأخيرة معاً.

— أقنعيني بسبب واحد وأنا جاهز لتلبية كل رغباتك.

— أنا نفسي لا أدري، قلت لك إنه مجرد حدس.

— سأحاول أن أقتلعه من رأسك.

— الحدس ليس في الرأس.

— سأقتلعه من أينما كان.

لاقتلاع ذلك الحدس، مارس معي الحب بكل جنون. أراد أن يحيط بكل جسدي، أن يحتويني ويدخلني إلى قمة النشوة. حاول المستحيل. كانت البرودة قد بدأت تدخل أحاسيسي وكل جسدي.

قبل أن نبدأ العطلة في كان كنا قد خططنا للذهاب إلى روما، لكنني اعتذرت من صديقي لعدم رغبتي في ذلك ورجعت إلى باريس لتمضية بعض الوقت مع أخي وعائلته ومع أمي قبل أن أعود إلى لبنان.

حين وصلت إلى بيت أهلي في باريس، بادرتني ليال الصغيرة بالقول: «لقد اتصل شخص يدعى كامل وسأل عن ليال. حين أجبته أنني أنا ليال صاح: حبيبتي كيف حالك؟ هل أنت في باريس؟ متى عدت من كان...؟ لم أفهم شيئاً وأجبته بأنني لا أعرفه. قبل أن يتابع، أخذ والدي السماعة من يدي. بعد لحظة سمعته يضحك بأعلى صوته ويقول: إنها ابنتي، أما ليال التي تريد فليست هنا». تابعت الصغيرة بشيء من الخبث المحبب: «هل لديك حبيب اسمه كامل؟ لماذا لا نعرفه؟ أين هو؟».

— إنه صديق وليس حبيباً.

ضحكت ليال الصغيرة وقالت: «لكنه يبدو أكثر من حبيب، يبدو متيماً. لو سمعت صوته ولهفته حين قلت له إنني ليال! هيا اتصلي به».

لم أتصل بكامل وعدت بعد أيام إلى لبنان حيث كان هو أول من اتصل بي. يوم وصولي وبعد أن رتبت أمتعتي وجلست قبالة التلفزيون لأستريح، رن جرس الهاتف وسمعته من جديد، سمعت تلك اللهفة في صوته، سمعته يقول ما تمنيت منذ ثلاثين سنة أن يقوله لي: «حبيبتي لم يعد من مانع للقائنا. أنا وحدي وأنت وحدك. هيا فلنعش حبنا، هذا الحب الذي لم يتح له أن يعيش في السابق. حان الوقت لنثأر من هذا الدهر الذي فرق بيننا. أنت تزوجت ولم توفقي في زواجك، وأنا أيضاً لم أوفق. أنت خانك زوجك وأنا خانتني زوجتي. ليال.. قصتانا متشابهتان وهذا يعني أنه علينا أن نلتقي».

— هل تعيش وحدك الآن؟ أليس لديك صديقة؟ أعرف أن الرجال لا يستطيعون العيش من دون إنسى و... قبل أن أتابع، قال:

— ليس لدي صديقة محددة. كلهن مثل «غزل البنات» لا يتركن طعماً، يذبن كالهواء. ليال حين سمعت صوتك انتفت كل النساء من حياتي. لم يمر يوم لم أذكرك فيه، لم أحبك فيه. وأحياناً كنت أبكي.

— لا تحول الأمر إلى دراما، ربما التقينا يوماً ما.

— متى يأتي هذا اليوم؟ لم يعد أمامنا الكثير. لقد مر العمر بالقهر والظلم، فلنعش أيامنا الباقية بفرح، بحب. آه يا ليال لو التقينا سأعبدك، سأظهر لك كم أحببتك وكم أحبك.

— كيف تمضي وقتك في ليون؟ قلت ذلك لكي يوقف تدفق الكلام الجميل الذي له وقعه وبخاصة في أرض قابلة له.

— أدرِّس في الجامعة، أنا الذي كان من المفترض أن أعلِّم في لبنان. تصوري أنني أعلِّم الأدب الفرنسي للفرنسيين. صحيح أنني أصبحت فرنسياً بحصولي على الجنسية، إلا أنني ما زلت عربياً، أعرف ذلك جيداً لأنني لا أعبر عن حزني إلا بالعربية، وحين أكون مغتاظاً لا أشتم إلا بالعربية وحين أتوجه إلى ليال لا أستطيع أن أقول لها أحبك إلا بالعربية.

انتبهت أنه كان يتكلم بالعربية وأجيبه بالفرنسية. فهمت أنه صادق يعبر عن ذاته وكنت كاذبة أختبئ وراء اللغة. على كل حال لقد ردد مرات عديدة: «أحبك» و«أحببتك» أو

ما شابه ولم ترد تلك الألفاظ مرة واحدة على لساني. لماذا هذا التحفظ؟ لم يكن تحفظاً بقدر ما كان حذراً.

يقول الشاعر «والأذن تعشق قبل العين أحياناً». هذا ما حدث بيني وبين كامل في هذه المرحلة. لقد عاد إلي أو بالأحرى استعدته عبر صوته الذي، كما قلت، كان هو هو، صوت كامل أستاذي في مدرسة الراهبات. الشعر ذاك يفترض أن العاشق لا يعرف المعشوق بينما في حالتنا كنت أعرف كامل لكني أعرفه منذ ما يقارب الثلاثين سنة. إن ثبات الصوت هنا ساهم في تثبيت الصورة واستحضارها كما هي.

تواصلت الاتصالات الهاتفية إلى بداية الصيف. كان على كامل أن يأتي إلى لبنان كما اتفقنا، لكنه لم يأت وانقطعت اتصالاته لمدة شهر تقريباً. أما أنا فاتصلت هاتفياً عدة مرات ولم أجد أحداً في بيته. انشغل بالي ثم استأت من استهتاره لأنه لو مات أو مرض لعلمت بالأمر. استأت جداً من سلوكه الذي لم أفهمه وحاولت نسيانه.

خلال ذلك اتصل بي صديقي السويسري الذي كنت إلى ذلك الحين أرفض ملاحقته لي. قبلت دعوته وقمنا برحلة إلى الهند، رحلة كانت من أمتع الرحلات. قررت من بعدها أن أبقى مع صديقي وأن أنسى كامل من جديد هو الذي سبق ونسيته لمدة تفوق الثلاثين سنة. لكنني تساءلت لماذا عبر لي عن حبه ولماذا استمات كي أزوره والآن صمت من دون أي مبرر على الأقل بالنسبة إلي. من المؤكد أنه التقى إنسى أنسته ليال التي أقسم أنه لم يحب سواها. هراء! يبدو أن الرجل يقوم بهذا القسم لكل إنسى يريد استمالتها.

لم يطل الوقت بعد عودتي من الهند حتى اتصل بي كامل من جديد. كان مهدوداً جداً. قال:

— ليال اعذريني على هذا الانقطاع. لقد مررت بظروف صعبة جداً، سأخبرك عنها لاحقاً. أما الآن وقد انتهت تلك الظروف أصبحت قادراً على التعبير عن حبي لك والقول إنني أنتظرك. أنا لا أستطيع المجيء إلى لبنان، لقد شارف الصيف على النهاية وسأبدأ التدريس في الجامعة قريباً. أما أنت فليس لديك عمل آسر. إنك تملكين وقتك. قرري وزوريني أرجوك.

— لكن ما هذه الظروف التي لم تسمح لك حتى بالاتصال الهاتفي؟ حتى أنك لم تكن في بيتك.

— كنت في المستشفى. لقد تعرض ابني لحادث رهيب جعلني أكرس كل وقتي له. أما الآن وقد تحسن وضعه واستعاد عافيته فأستطيع أن أتحرر وأعود لذاتي. الآن أستطيع الكلام من جديد.

— لماذا لم تعلمني بما حصل؟

— حصل ذلك فجأة وحين تطورت الأمور ظننت أن ابني لن يخرج سالماً من ذلك الحادث وأنه سيتحتم علي البقاء إلى جانبه كل الوقت. لهذا السبب توقفت عن الاتصال بك لكي أنساك وأتركك تنسينني. لقد عانيت الكثير. وأول شخص أتصل به بعد أن تعافى ابني هو أنت ليال.

لم يسألني كيف أمضيت تلك الفترة وأنا بدوري لم أخبره. لكني لاحظت أنه ما زال تحت وطأة حادث ابنه. حاولت أن أواسيه ووعدته بأن أزوره في أول مناسبة.

بات يتصل كل يوم، يعبر عن أشواقه، يخبرني كيف أمضى نهاره، يسألني عن حالي وينهي المكالمة بالسؤال إياه: «متى تأتين؟». ظل هذا السؤال يتكرر إلى أن مر فصل الشتاء وحل الربيع. «ليال، لدي فرصة طويلة، أرجوك تعالي». قال لي كامل في آخر اتصال. وافقت وطلبت منه أن نلتقي في باريس، في مطار أورلي ومنه ننتقل إلى ليون بواسطة القطار.. رحب بالفكرة وتمت الأمور كما خططنا في اليوم الذي حددنا.

خرجت من الطائرة، أخذت أمتعتي، وضعتها فوق عربة دفعتها أمامي وسرت متوجهة نحو الخارج. كنت أسير ونظري يجول على الجموع المنتظرة. سمعت صوتاً يقول: «آ..لقد وصلت أميرتي!». أعرف الصوت جيداً، إنه صوت كامل. نظرت بين الجموع وإذ بأحد يبدو كوالد كامل يلوح بيديه وينظر إلي. زلزلت الأرض تحت قدمي. التجأت إلى الصورة التي في ذاكرتي، صورة كامل الشاب، لأحتمي بها. لكني أصبحت بالقرب منه، يضمني إليه، يقبلني ويردد: «حبيبتي، حبيبتي، كم اشتقت إليك».

ما أصعب أن تقطع زمن أكثر من ثلاثين سنة بلحظة! يا للشعور المتناقض الذي ينتابك وأنت في تلك اللحظة! أن تنظر إلى من أحببت شاباً جذاباً وسيماً فتراه كهلاً بالكاد يذكرك بالشاب الذي كان من قبل. الشعور بالخيبة تلك يرتد على صاحبه، إذ وفي اللحظة نفسها تساءلت: «ترى هل يراني كما أراه؟». لكنه ردد أكثر من مرة: «إنك أجمل مما تركتك». هل يواسيني؟ إنه ليس مضطراً. لو شعر بمثل ما شعرت لكان لاذ بالصمت على الأقل، كما فعلت أنا.

لأول وهلة لاحظت الآتي: لاحظت أن وجه كامل أصبح أضيق وأطول مما كان عليه. شعره قل جداً على رأسه. بدنه كله، هزل وقصر. لم يخطر ببالي في تلك اللحظة إلا التشبيه التالي: تصور أن لديك ثوباً من الحرير الناعم، وتصور أنك رميت هذا الثوب الجميل في الماء الغالي ثم نشلته منه، فماذا تجد؟ تجد أن الثوب شمر أي «كش» كما يقال بالعامية، يعني أنه ضاق وقصر، أصبح أقل حجماً ومجعداً. هكذا بدا لي كامل للوهلة

الأولى. حين أخرجت صورته من ذاكرتي لأحتمي بها، السؤال الذي طرحته على نفسي من دون أن أفكر فيه كان: «ترى أيهما هو؟».

استلم العربة الذي أخذ يجرها بيد واحدة ويطوق بذراعه الآخر خصري وسرنا معاً. «سنذهب إلى المقهى، نتناول القهوة، ترتاحين قليلاً ثم نتوجه إلى محطة القطار. لقد جهزت البطاقات. لدينا كل الوقت».

— أفضل الذهاب إلى المحطة وهناك ننتظر. أليس من مقاه هناك؟

أردت أن أبعد قدر الممكن ساعة الجلوس وجهاً لوجه. أردت أن أتأكد من أحاسيسي التي وضعت في دوامة، تدور وتدور على ذاتها. وافقني الرأي وقال:

— إذاً نأخذ تكسي. رأيك صائب، هناك أيضاً مقاهٍ حيث نستطيع الجلوس وشرب القهوة.

دار كل ذلك الكلام بيننا وأنا لا أنظر إلى وجهه. كنا نسير جنباً إلى جنب، ننظر أمامنا. على الأقل أنا كنت أنظر أمامي، أما هو فكان يتكلم ويقبلني من وقت لآخر على خدي أو على جبهتي.

ركبنا تكسي. جلسنا على المقعد الخلفي. ضمني إليه، أخذ يدي بين يديه، بدأ يقبل باطنها وذكرني كيف سرق قبلة مماثلة أيام المدرسة. لمساته ناعمة وكلماته جميلة، تعبر عن عشق كبير وعن شوق يتفجر بعد أن دفن قسراً لمدة سنين. المسافة بين المطار ومحطة القطار، قربت المسافة بين الصورتين وأخذ الشبه يزداد بينهما. هل هو مفعول اللمس؟ حتماً! إنه أهم حاسة لدى الإنسان في حالات الحب. إنه مع حاسة الشم أداتا تلاقي الأجساد ليتوحدا في عملية العشق.

كان اللمس قد فعل مفعوله حين دخلنا المقهى. جلست قبالته حول طاولة مستديرة صغيرة. أخذ يدي بين يديه، حدق في عيني وقال: «أنت أجمل امرأة في هذا الكون». سألته: «ألم أتغير؟ تعرفني صبية في الرابعة عشرة من عمري وها أنا الآن فوق الأربعين.

لقد تغيرت كثيراً ألا ترى ذلك؟». كنت أود أن يقول لي إنني تغيرت وإنني كنت أجمل مما أنا عليه الآن. لو فعل لاستطعت قول ما في داخلي، لكنه قال:

— تغيرت، صحيح، لكنك الآن أجمل. أنت الآن امرأة ناضجة تضج بالأحاسيس، تضخ بالرغبة. إنك كالثمرة الناضجة التي يشتهيها كل من يراها. أنا حتى لحظة وصولك كنت أحبك فقط، أما الآن فأتحرق حباً وشهوة معاً.

طلبنا القهوة وبدأنا بشربها. لاحظت فيه شيئاً ذكرني بوالدي. للحظة وهو يقوم بحركة معينة، مُثل والدي أمامي. ترى ما الذي أتى به الآن بيننا؟ راقبت الأمور جيداً فوجدت أن لدى كامل حركة محددة وهو يلتقط الفنجان ليرفعه إلى شفتيه. إن طريقة التقاطه أذن الفنجان بين الإبهام والإصبع الأوسط ورفع الأصابع الأخرى في الهواء هي الطريقة إياها التي كان يقوم بها والدي حين يشرب قهوته. أحببت هذه الحركة التي استحوذت كل انتباهي في تلك الجلسة. لقد أعادت إحياء والدي في ذاكرتي. لم أكلمه عنها. أصبحت هي مدخلي إليه، هي التي شفعت بكل التغيرات التي لاحظتها في شكله. هذه الحركة وما تذكرني به ظلت تشفع به كل فترة بقائنا معاً. بقيت تشفع به إلى اللحظة التي لم أعد أستطيع أن أراها حيث هي.

بعد أن تحدثنا طويلاً، بعد أن لامست يداه كل وجهي ويدي ولامست شفتاه جبهتي ووجنتي ويدي، بدأت أشعر به، أشعر بكامل الذي عرفت. بدأت الصورة الخارجية تتبدد لأستعيد ذلك الشاب الذي عشقت منذ زمن بعيد.

ركبنا القطار جنباً إلى جنب. كان يمسك بيدي ولا يتركها، يشد عليها ويقبلها من حين لآخر. حين تحرك القطار، رفع ذراعه فوق كتفي، شدني إليه، أدار وجهي نحوه والتهم ثغري بقبلة ردتني إلى سني المراهقة حيث كنت أتمنى أن يقوم بمثلها. استسلمت للأمر، أغمضت عيني لأرى نفسي في الصف في مدرسة الراهبات والأستاذ كامل يقبلني أمام الجميع بمن فيهم رئيسة المدرسة. استرسلت في القبلة كما استرسلت في الهوام. هل الاسترسال في القبلة كان سبب الهوام أو أن الهوام كان سبب ذلك الاسترسال في القبلة؟ الأمور معقدة جداً. لا أدري أيهما كان الأول، أيهما كان الحافز.

ضمني إليه جيداً. التصق جسدي بجسده. وضع شفتيه بالقرب من أذني وأخذ يخبرني كل ما حدث معه بعد فراقنا. يخبرني ويزرع القبلات على أطراف أذني في الوقت نفسه: «عرفت يا ليال ما حدث بينك وبين زوجك، عرفت أنك طلقته ولم تتزوجي. لكن، يا حبيبتي، حين طلقت زوجك، كنت أنا قد تزوجت وأنجبت. أعترف لك أنني تزوجت بسبب اليأس. حين أخبرني جهاد أنك ستتزوجين، اسودت الدنيا في وجهي. كنت أفكر أنني سأنال شهادة التخصص وأعود إلى لبنان مسلحاً بها علها تقرب المسافة بيننا. كنت أعلل النفس بإمكانية ما. لكن خبر خطوبتك من رامي، هد عزيمتي. ولكي أنساك أغرمت بفتاة هي نقيضك تماماً في الشكل. اخترتها لأنساك نهائياً، لأغيبك من حياتي».

أتى تعليقي صامتاً: هل نختار من نحب؟ ما هذا التحليل الذي يقوم به؟ وهل هو مقتنع حقاً به؟ لكنه تابع: «ألا ترين يا ليال أن قدرنا هو أن نلتقي؟ لقد تزوجت أنت عن حب وزوجك خانك وهدم حياتك. وأنا أيضاً خانتني زوجتي. تصوري أنها خانتني مع أحد أصدقائي. خانتني، سرقت الصبي ورحلت إلى فرنسا. كان يحق لها قانونياً بالولد في تلك المرحلة. تركتني ورحلت».

خطر ببالي أن أسأله لماذا خانته، ألم تكن حياتهما منسجمة؟ كنت أود أن أعرف السبب، ربما ساعدني على معرفة سبب خيانة رامي لي، لكنني صمتّ وتابع: «أردت أن أبقى إلى جانب ابني فاستعنت بنفوذ خالتي الراهبة، هل تذكرينها؟ استفدت من نفوذها في السفارة الفرنسية وحصلت على منحة لمتابعة دروسي. اخترت جامعة ستراسبورغ لأن زوجتي كانت من تلك المدينة. دخلت الجامعة وسجلت موضوعاً للدكتوراه بعنوان: «مفهوم الحب في الأدب الفرنسي المعاصر». استأجرت شقة صغيرة وسكنت تلك المدينة الجميلة. سأصطحبك يوماً لزيارتها، ستحبينها جداً. تصوري أن زوجتي، حين لحقتُ بها، تركت لي الصبي وعاشت مع صديقها وأنجبت منه صبياً. تأخرت أنا في رفع دعوى الطلاق، قررت أن أعذبها في تسجيل ابنها. لكنها هي التي تقدمت بالدعوى. ومن جهتي لم أمانع».
ضمني إليه، قبلني وعرض علي فنجان قهوة. ذهبنا إلى البار، شربنا وأكلنا وعدنا إلى أمكنتنا ليتابع كلامه.

«مررت يا ليال بفترة انهيار فعلي. قلت لنفسي: لم أحصل على ليال، ومن حصلت عليها وأحبتني حتى الموت تخلت عني بأسرع مما كنت أتحمل. ما هذا القدر الظالم؟ منذ ذلك الوقت همت على وجهي وأصبحت أمارس الجنس مع كل فتاة أختارها وتقبل بي. كانت لي طريقة خاصة في اختيار النساء. كل اللواتي مارست معهن الجنس، كنَّ يذكرنني بشيء منك: التي لها شعر كشعرك والتي لها لونك والتي تذكرني بضحكتك أو بصوتك، والتي تذكرني بحيائك. أما التي ذكرتني بعينيك فهذه عشقتها فعلاً. كلما كنت أنظر في عينيها وجدتُ ليال. لكن يا حبيبتي ما الحب إلا للحبيب الأول. أنت أول من أحببت وأنت آخر من أحب وكل الباقي مجرد تفاصيل تدور في فلك ليال».

— والآن أليس لك صديقة؟

— بعد اتصالك الهاتفي ألغيت النساء من قاموسي، أصبحت أعيش الانتظار فقط.

— لكن هذا الانتظار طال أكثر من سنة، هل يعقل أنك بقيت من دون إنسى كل هذا الوقت وأنت وحدك في ليون؟ حين قلت ليون خطر ببالي سؤال آخر وتابعت: لماذا أنت مقيم في ليون وقد درست في ستراسبورغ وابنك هو أيضاً هناك؟

— حين انتهيت من مناقشة أطروحة الدكتوراه، عرضوا علي التدريس في الجامعة على أن أختار بين باريس وستراسبورغ وليون فاخترت ليون وابني كان معي.

— لماذا ليون؟ لا أفهم هذا الاختيار.

— اخترت هذه المدينة لأن أحد أساتذتي كان قد نقل إليها.

لم يقنعني الجواب كلياً. ظل السؤال عالقاً في ذهني إلى أن فهمت لاحقاً لماذا اختار ليون. غيَّر الموضوع وتابع الكلام السابق: «حين وافقت على زيارتي اشتعل في داخلي الشوق، لكنني احترت في كيفية استقبالك. لدي بيت كبير نسبياً، مؤلف من أربع غرف، سترينه. تساءلت هل أترك لها البيت وأذهب إلى الفندق؟ هل أحجز لها في الفندق وأبقى أنا في البيت؟ من كثرة ارتباكي استشرت إحدى السيدات وهي زوجة صديق عزيز، وأتى رأيها أن أحضِّر لك غرفة النوم والغرفة التي إلى جانبها وأنقل أغراضي إلى غرفة ثانية، ويبقى المطبخ والحمام مشتركين بيننا. هذا ما نفذت. على كل حال ستغيرين كما تشائين».

اقترب القطار من محطة ليون بعد عدة ساعات قطع خلالها سهولاً ومناطق جميلة جداً. الريف الفرنسي رائع، هو من أجمل الأرياف في العالم. نزلنا من القطار ركبنا تكسي وتوجهنا إلى بيت كامل. دخلناه، كان مرتباً وتفوح منه رائحة البخور الهندي. رحب بي كامل في بيته. كان مرتبكاً، يتحرك من دون تركيز تماماً كشخص فقد توازنه ويتحرك كي لا يقع على الأرض. لاحظت ارتباكه وطلبت منه فنجان قهوة، فصاح: «هذه فكرة جيدة».

— أرافقك، قلت. ومن دون أن أنتظر جوابه سرت وراءه إلى المطبخ الذي كان فسيحاً. أشعل كامل الغاز وجلست أنا على كرسي أراقب حركاته. لاحظت أنه هو أيضاً يراقبني، كأنه لا يريدني أن أرى كل شيء. خطر في رأسي سؤال: «لماذا هذا البيت الكبير؟ في فرنسا يعيش الفرد في ستوديو صغير. هل يعيش أحد معه في هذا البيت؟»، سألت. وأتى جوابه سريعاً: «كان ابني يعيش معي قبل أن ينتقل إلى باريس».

— الحادث الذي تعرض له وقع في باريس؟

— نعم، ولهذا السبب غبت عن البيت كل تلك الفترة التي لم أتصل بك خلالها.

لدى الإنسى قوة حدس غريب وقليلاً ما يخطئ. شعرت أن إنسى كانت تسكن في ذلك البيت، لكني لم أعلق. أنهى كامل القهوة وتوجهنا إلى الصالون. بعد أن قدم لي فنجاناً، تركني ودخل غرفة كان بابها مقفلاً. بعد قليل عاد وبيده شيء لم أميزه جيداً. اقترب مني، وقدمه لي قائلاً: «هذه ذخيرة العمر نقَّلتها من محفظة إلى محفظة». كان يحمل بيده ورقة جريدة عربية مطوية بشكل إصبع صغير وملفوف عليها بعض الشعر الأشقر.

— ما هذا؟ سألت.

— إنها أربع شعرات من شعرك، لممتها مرة في ذلك الصيف حين أتيت أمام المرآة الكبيرة في مدخل بيتكم في الضيعة وسرحت شعرك قبل أن ترفعيه إلى أعلى رأسك ليعود ويتدلى على ظهرك. حين سرحته، سقط منه على الأرض بعض الشعرات، هذه هي.

ما عدت أتابع كلامه، أثر بي جداً ما سمعت، تأثرت لدرجة أن الدموع سالت من عيني. أخذني بين ذراعيه، قبلني وهو يقول: «هل علمت الآن كم أحببتك وكم أحبك»؟.

لست أدري لماذا خالط تأثري ذاك شعور غريب يقول لي إن كامل يكذب وأن الشعر الملفوف على قصاصة الجريدة ليس شعري.. لكني أبعدت هذا الشعور وقلت لنفسي: «من مصلحتي أن أصدق كلامه، فهو يعزز كبريائي ويرفع من موقع كامل في نظري». كنت قد ألفت صورته الجديدة وبخاصة أنها امتزجت بحركات كثيرة تذكر بالأستاذ أيام الشباب. يبدو أن الوجه والجسد يتغيران، أما الحركات والتعابير فلا، ولهذا السبب نتعرف إلى من تركناهم منذ زمن بعيد.

حانت لحظة الجد، قارب الوقت منتصف الليل. أخذني كامل من يدي وتوجهنا نحو باب مغلق. فتحه وإذ بغرفة نوم فيها سرير عريض، وإلى جانبه طاولة صغيرة عليها باقة ورد أحمر. أمام السرير سجادة قديمة وإلى جانب السرير من الجهة الثانية، خزانة خشبية جميلة جداً.

— هذه هي غرفتك يا سيدتي الجميلة. سأجلب لك حقيبتك. لقد أفرغت الخزانة لكي تضعي ثيابك فيها. جهزت غرفة ثانية وسأنام فيها. الآن أتركك تستريحين.

ترك الغرفة. فتحت حقيبتي، أخرجت منها ثوب النوم وعِدَّة الماكياج وغيرها وتوجهت إلى الحمام كي أغسل وجهي وأنظف أسناني. حين رجعت إلى الغرفة، وجدته فيها وهو بثياب النوم. لما رآني قال: «هل تريد شيئاً أميرتي؟» ثم دنا مني، طوقني بذراعيه وقال: «تصبحين على الخير». قبلني على ثغري قبلة طالت وطالت ولا أدري كيف أصبحنا على السرير. كنت مغمضة العينين حين مارسنا الحب، عدت إلى الرابعة عشرة من عمري وهو إلى العشرينيات. بعد تلك الليلة أصبحت أسأل نفسي بعد كل ممارسة حب معه: «ترى مع من أمارس الحب، هل أمارسه مع الأستاذ كامل كما حفظت صورته ذاكرتي أم مع هذا الكامل الموجود الآن إلى جانبي؟».

استيقظت في الصباح، لم أجد كامل في السرير ولم أجده في البيت. بعد قليل عاد ومعه «كرواسان» وأشياء أخرى للفطور. دخل مباشرة إلى المطبخ وعاد إلى غرفة النوم حاملاً الفطور على صنية كبيرة. كان فطوراً فرنسياً كاملاً، فيه العصير والحليب والزبدة وكل أصناف المربيات. كنت جائعة جداً وأكلت بنهم. ثم شربنا القهوة وبدأ كامل بالتخطيط:

— نستأجر سيارة ونجول فيها أولاً في كل أنحاء ليون وجوارها ثم نتوجه إلى باريس أو نيس أو... ما رأيك لو ذهبنا إلى ستراسبورغ؟ إنها مدينة جميلة جداً.

قررت أن نذهب أولاً إلى ستراسبورغ لأنني كنت أعرف الأماكن الأخرى التي عددها بما فيها ليون وجوارها. استأجرنا سيارة صغيرة وتوجهنا إلى حيث قررنا.

ستراسبورغ مدينة من الطراز الألماني. لها طابع يميزها كلياً عن مدن فرنسا الأخرى. أول مكان زرناه فيها، كان الجامعة حيث درس كامل ويسمونها القصر الجامعي. إنها حقاً قصر عريق بقاعاته الكبيرة وسقوفه العالية والقناطر التي تحيط بالبهو الوسطي، بالأبواب الضخمة التي منها ما يطل على ممرات طويلة ومنها ما يطل على حدائق أرضها مفروشة بالمرج الأخضر وحيث يرتفع الشجر الوارف الجميل. كنا في فصل الربيع والأزهار تملأ الأحواض والأشجار يكسوها الورق الأخضر. في إحدى الحدائق نصب تمثال لغوته.

أمضينا وقتاً طويلاً في ذلك المكان حيث تعرفت إلى بعض الأساتذة الذين دهشوا عندما أخبرهم كامل قصتنا. قبالة القصر الجامعي مقهى يعج بالطلاب والطالبات والأساتذة. دعاني كامل إليه وقال: «لقد أمضيت أوقاتاً طويلة في هذا المقهى، أراقب كل الفتيات وكلما رأيت واحدة تذكرني بك كنت أدعوها إلى شرب القهوة معي».

— وبعد القهوة؟ سألت.

— أحياناً نجحت وأحياناً أخرى فشلت. لكن كلهن، كما قلت لك، مثل «غزل البنات». ليس في الدنيا كلها ما يساوي ذرة واحدة من حبيبة قلبي ليال.

أمضينا ثلاثة أيام في ستراسبورغ نتنزه ونأكل ونمارس الحب كلما عدنا إلى الفندق. أهم الأماكن التي زرناها وعلقت بذهني بشكل واضح، هي الحديقة العامة والكاتدرائية. الحديقة العامة هي من الجمال والهدوء ما يجعل المرء يشعر كأنه في حلم، وهي تحتوي على كل ما تتمناه العين؛ فيها بركة ماء وغابة وحدائق صغيرة منقوشة بالأزهار الملونة كأنها لوحات رسمت باليد. فيها البط والحمام ومتحف للسمك. فيها مقهى ومطعم فخم يعتبر من أهم مطاعم المدينة.

أما المعْلم الثاني الذي استوقفني وأيقظ كل دهشتي، فكان الكاتدرائية في وسط المدينة. هناك ساحة كبيرة للمشاة فقط تتوسطها تلك الكاتدرائية ومقابل واجهتها على طول الساحة مقاهٍ ومحال تباع فيها الصور التذكارية. منتصف الساحة احتلها بعض الرسامين وحولهم كثير من السياح. دخلنا أحد المقاهي حيث انتصبت أمامنا واجهة الكاتدرائية. تلك الواجهة هي فعلاً قطعة فنية. يبدو أن بناءها استغرق ثلاث مئة سنة. نقوشها كانت دقيقة بشكل تخالها من الدنتيل المطرز.

حين وقع نظري عليها تجمدت مكاني لوقت طويل، رأسي مرفوع إلى فوق وعيناي تجولان على تلك المساحة الفنية الفريدة. بعدها طلب مني كامل أن نزور الداخل. فعلنا، لكن دهشتي ظلت في الخارج. ثم صعدنا إلى السطح حيث غابت الكاتدرائية عن نظري لتحل مكانها كل مدينة ستراسبورغ. بانت المدينة بكاملها وبكل جمالها وجمال ذلك النهر الذي يقسمها إلى قسمين والذي على ضفافه تقوم المطاعم ويتنزه الناس مع أولادهم وكلابهم. على تلك الضفاف بعض شجر الصفصاف المتدلي الأغصان والذي يذكر بالصفصاف على ضفاف نهر العاصي في بلادنا.

أحببت تلك المدينة الهادئة وطلبت من كامل أن نطيل إقامتنا فيها. وافق واقترح أن نزور أيضاً مكاناً جميلاً في ألمانيا. يكفي أن نقطع نهر الرين في طرف ستراسبورغ حتى نصبح في ألمانيا. ذلك المكان الذي اقترح زيارته كامل، هو منتجع مائي اسمه كركلا في مدينة بادن بادن الألمانية.

يا له من منتجع ضخم، فيه عشرات البرك التي تختلف حرارة مائها بين واحدة وأخرى. منها ما هو للتدليك إذ يكفي المرء كي ينعم به أن يقف قرب مخرج الماء المضغوط. هناك الماء الفاتر والماء الساخن وهناك بركتان متجاورتان، في إحداهما ماء حار جداً وفي الثانية ماء بارد جداً. كان على المستحمين الشجعان أن ينتقلوا بسرعة من الماء الساخن إلى الماء البارد. حاولنا أن نكون من الشجعان. لكن حين غطسنا في الماء البارد شعرت كأن قلبي قد توقف.

انتهت العطلة، عدنا إلى ليون وباشر كامل عمله في الجامعة حيث رافقته عدة مرات. لكن بعد أسبوع قررت العودة إلى لبنان. ألح علي بالبقاء لكنني رفضت. شعرت بضرورة العودة حتى ولو لم يكن هناك عمل يستوجب عودتي.. رضخ كامل لقراري وعدت إلى بيروت، إلى بيت أهلي الذي لم يكن فيه، في تلك المرحلة سوى الخادمة والناطور.

في لبنان باشرت عملي من جديد في المجلة وفي دار النشر واستعدت علاقتي بالأصحاب وكل الشلة التي تعرفت إليها من خلال عملي. كانت شلة من الرجال والنساء المثقفين. بعد عودتي بوقت قصير دعوتهم إلى العشاء في البيت. لبوا الدعوة. كانت سهرة ممتعة جداً اتصل بي خلالها كامل من ليون. حين أقفلت الخط معه أخبرت الأصحاب عن كامل وعن زيارتي لليون و... قبل أن أنهى كلامي سألني أحدهم: «هل تعرفت إلى زوجته؟».

— لقد طلق منذ زمن بعيد.

— لا، لا، زوجته الثانية.

وقع كلامه علي كالصاعقة. هل كامل متزوج؟ لماذا أخفى الأمر علي؟ أين زوجته؟ لكني تمالكت أعصابي وأجبت:

— لا، لم أرها. على كل حال كامل هو مجرد صديق ولا يهمني إن كان متزوجاً أم لا. قلت ذلك لأنقذ كبريائي.

ذهب الأصدقاء في آخر السهرة. دخلت غرفتي وكتبت رسالة بعثتها في اليوم التالي إلى كامل. ما عدت أريد الكلام معه ولا سماع صوته. ولكي أوقف اتصالاته معي، اشتريت آلة هاتف تريني على شاشته رقم من يخابرني. أصبحت كلما أرى مجموعة أصفار على الشاشة، لا أجيب. لكن بهذه الطريقة كنت لا أميز ولا أعرف من الذي يطلبني من الخارج. لكنني قررت ألا أرد وأن أطلب أنا من أريد الكلام معه وبخاصة بيت أخي في باريس.

بعد عشرة أيام وصلتني رسالة من كامل يشرح فيها كل شيء ويرجوني أن أتفهم وضعه وأن ما فعله هو لأنه يحبني فقط ولا يريد إزعاجي. قال في الرسالة: «حبيبتي ليال التي لم ولن أحب سواها، سأشرح لك كل شيء وأرجوك أن تفهميني وأن تسامحي ارتباكي وسوء تصرفي ربما. صحيح تزوجت مرة ثانية من إنسى فرنسية لكنها تركتني بعد فترة وطلبت الطلاق. فاجأتني بطلبها لأننا كنا نعيش من دون مشاكل. لم أفهم لماذا اتخذت ذلك القرار. لكي أغيظها وأعكر عليها حياتها وأمنعها من الزواج برجل آخر في حال كان طلبها للطلاق من أجله، لكل ذلك قررت أن أرفض طلبها فدامت دعوى الطلاق معلقة وقتاً طويلاً. حين اتصلت بي لأول مرة، قررت أن أنهي قصة الطلاق قبل أن نلتقي ولهذا السبب لم أسافر إلى لبنان كما اتفقنا. قطعت الاتصال بك لأنني كنت محرجاً ولا أدري بماذا أبرر عدم مجيئي إلى لبنان لرؤيتك. حركت الدعوى في شهر تموز في أول العطلة الصيفية. لكن، وكما تعلمين، تتوقف المحاكم عن العمل خلال شهر آب. وهكذا لم أحصل على الطلاق إلا في منتصف شهر أيلول. كانت العطلة قد شارفت على النهاية. لكنني كنت سعيداً لأن كل شيء انتهى ومهد الطريق أمام لقائنا الذي حلمت به طوال حياتي.

«ليال أرجوك سامحيني. كل ما فعلته، حتى الكذبة التي لجأت إليها — حادث ابني — لم تكن إلا بداعي الحب والحرص على عدم فقدانك من جديد. أنت النور الذي يضيء حياتي، أنت سلم سليمان. أنت بكل بساطة، حبيبتي منذ أن عرفت الحب، منذ أن طرق الحب باب قلبي.

«ليال أرجوك أجيبي على الهاتف. أريد أن أسمع صوتك وأعترف لك بجبني وكذبي المبررين. سأظل أتصل بك كل ليلة إلى أن أسمع صوتك، وإلا أتيت إلى لبنان لأقبل يديك وأطلب المغفرة عن ذنب ليس بذنب إلا لأنه أغاظ حبيبتي ولو للحظات....» وتتالت الكلمات الرقيقة.

طويت الرسالة وتساءلت: هل يا ترى هو صادق الآن أم أنه يكذب. على الأرجح أنه صادق. لكن أنا ماذا فعلت حين انقطعت أخبار كامل في ذلك الصيف؟ كنت أطوف الهند

وأتنقل من مكان إلى آخر برفقة رجل. لم أخبر كامل بما قمت به. لكنه لم يسألني. لو فعل لقلت له الحقيقة. لا أكره شيئاً في الدنيا كما أكره الكذب لأنه يفقدني الثقة بالآخر. يقول نيتشه ما معناه: من يكذب علي مرة لا يحزنني لأنه كذب. هو يحزنني لأنني أفقد ثقتي به ولا أعود أصدقه فيما بعد. يصبح آخر من دون نوافذ. لماذا كثرة التفكير والتحليل؟ سأجيب على الهاتف وأصارحه بالحقيقة. سأقول له إني ما عدت أثق به وهذا يعني أن كل شيء بيننا قد انتهى.

كنت أفكر بما سأفعل حين رن جرس الهاتف. رفعت السماعة وإذ بكامل.

— ليال هذا أنا، هل وصلتك رسالتي؟

— وصلتني، قرأتها ولم أجد ما يبرر كذبك. لهذا السبب قررت أن أقفل الموضوع. لقد انتهى كل شيء بيننا.

— أرجوك لا تتسرعي. امنحيني الفرصة لأبرهن لك عن صدقي وحبي.

— أنا لا أشك في حبك، ربما كنت صادقاً فيه، بل أشك في صدقك في الأمور الأخرى. في مطلق الأحوال شيء ما قد انكسر ومن الصعب تخطيه بسهولة. اعذرني سأقفل الخط.

أقفلت الخط وعدت إلى ذاتي أسائلها: هل تسرعت؟ هل قراري هو القرار الصحيح؟ لكن الأهم من كل ذلك هل أحبه؟ أمام هذا السؤال توقفت أبحث عن جواب لا لبس فيه لأنني شعرت بتناقض في داخلي؛ أحبه ولا أحبه في الوقت نفسه. أحب فيه كل ما يذكرني بمرحلة المراهقة وهو لا زال يحتفظ بالكثير من مكوناتها. أحب فيه هذا المزيج من البدائية والحداثة. في بعض الأحيان هو في قمة الحداثة ويظهر ذلك حين يتكلم بالفرنسية ويناقش موضوعاً ثقافياً ما، فأرى فيه أرقى ما توصلت إليه الحضارة الغربية التي أحب. أحياناً أخرى أجد فيه ذلك الشخص الذي لم يترك الضيعة قط، الضيعة بصيغتها الماضية، قبل أن يصلها ما يسمى التمدن. هذا التناقض الحاد، لم أجده عند غيره. وأنا معجبة به، لأنني أنا أيضاً تعيش في داخلي طفلة قروية ألجأ إليها كلما ضجرت من أقنعة الحضارة وبخاصة تلك التي نعيشها في مجتمعنا. هذه الطفلة هي التي تشدني إلى الضيعة، هي التي تسوقني كلما سمحت الظروف إلى قضاء وقت ممتع في ضيعتي.

حين فكرت بالموضوع، شعرت أن الضيعة تستيقظ في داخلي. تحولت إلى طفلة صغيرة تركض في حديقة بيتنا مع جهاد. رأيت والدي جالساً بعباءته الحريرية والناس حوله. رأيت أمي بأناقتها المعهودة جالسة هي أيضاً وحولها النساء. كانت تحذرني من الوقوع وتطلب مني أن أجلس معهن، وأسمع والدي يقول لها بصوته الحنون: «اتركيها تلعب مع أخيها». كان ينظر إلينا ويبتسم وأحياناً يحاول اللعب معنا.

حين اكتشفت الضيعة على حقيقتها، كان ذلك مع كامل. كبر حبي له في ذلك الإطار، لكن! ما الذي يجعلني أقول: لكن؟ ما الذي أرفضه فيه؟ لماذا حبي له الآن ليس صافياً كما كان في مرحلة المراهقة؟ لماذا كلما كنت برفقته مع آخرين، شعرت كأنني أرتدي ثوباً «شامراً»، ثوباً أحاول شده من كل الجهات كي يعود إلى حجمه الأول قبل الغسيل؟ رن جرس الهاتف من جديد. لن أجيب. لم أنتهِ بعد من تحليلي. لم أصل إلى قرار نهائي. لكن استمرار رنين الهاتف أوقفني عن التفكير. حين توقف بعد بضع دقائق، اتصلت بإحدى صديقاتي واتفقنا على اللقاء في المقهى.

صديقتي هذه، أثق بها وأبوح أمامها بكل ما يجول في خاطري. أفكر أمامها بصوت عالٍ. حين رأتني في المقهى، لاحظت أنني لست مرحة كالعادة. سألت عن السبب. وهي تعرف كل شيء عن علاقتي المتجددة بكامل.

— إنه كامل. قلت

— ما به كامل؟

— إنه كذاب. وأخبرتها كل ما حدث معي مؤخراً. أجابت بكل الثقة بالنفس التي تملكها إنسى مجربة:

— إنه يحبك فعلاً، كما ألاحظ. ربما أخطأ في طريقة معالجة الموضوع، لكنه، حتماً، تصور أنه الحل الأمثل كي لا يزعجك. لا بل أجد أنه غاية في النبل، أراد أن يلتقي بك وهو متحرر من أي ارتباط. أراد أن يحرر نفسه كلياً قبل أن يواجهك، قبل أن يقدم على أية خطوة معك. على العكس، أعتقد أنه يحترمك جداً و...

تابعت منطقها التبريري وأنا تابعت كلامها بكل جدية. كنت بحاجة إلى من يخرجني من حيرتي، إلى من يساعدني على اتخاذ قرار ما. كنت في داخلي أميل إلى القرار الذي تفضله صديقتي. أصغيت إليها. أراحني تحليلها. صفحت عن كامل. لكن قررت ألا أتصل به، سأنتظر اتصاله وسأقول له: «إن قبلت هذه المرة أعذارك فلن أقبلها إطلاقاً إن تكرر الموضوع».

مساء اليوم التالي قرع باب بيتنا. فتحت الخادمة الباب ثم أتت إلي. كنت في غرفة التلفزيون، أقرأ رواية لمشيما. قالت: «رجل يريد مقابلتك». خرجت إلى الصالون. كان هو، كامل. لم أستوعب المفاجأة، لم أتمالك نفسي. وقبل أن يباشر بالكلام أصبحت بين ذراعيه. تعانقنا طويلاً وعندما نظرت إلى وجهه رأيت دموعاً تبلل خديه.

— ليال لن أعيش يوماً بعد الآن من دونك. إنني مستعد لكل ما تطلبينه. أنا الآن ملك يديك تفعلين بي ما تشائين.

— ما هذا الجنون؟ كيف أتيت بهذه السرعة؟

— لم أستطع النوم مساء أمس. حين أقفلت الخط بوجهي، اتصلت بشركة طيران وحجزت لليوم وها أنا أمامك أطلب السماح عن خطأ لم أقصد منه أذيتك، بل على العكس كنت أبغي منه تحييدك عن كل ما يمكنه أن يزعجك. ربما كان من الأفضل ألا أخفي عنك الموضوع، لكنني أحبك، أحبك، أنت حب حياتي.

كنا لا نزال واقفين نمسك بأيدي بعضنا. دنوت منه، قبلته وقلت: «فلننس، أنا أيضاً أحبك». شد على يدي، ضمني إليه وتصالحنا.

رحل بعد يومين أمضاهما معي في البيت. لم يره أحد سوى الخادمة التي تصرفت كأنها لا تراه. تصالحنا خلال ذلك وأخبرته عن صديقي السويسري الذي انتهت علاقتي به منذ مدة وأعطاني هو كل الأوراق التي تثبت صدق قوله عن الطلاق وغيره. لم أنظر إلى تلك الأوراق إلا بعد رحيله من دون أن أكترث لها. قبل مغادرته اتفقنا على لقاء قريب في ليون.

بعد رحيله اتصلت بصديقي السويسري الذي حين سمع صوتي صاح: «أين كنت؟ أتصل كل يوم ولا جواب. هل أنت بخير؟».

— أنا بخير. كنت خلال الأيام الماضية أحضر مؤتمراً في كوبا.

لماذا اخترت هذه الكذبة؟ ربما لأنني دعيت منذ فترة قصيرة إلى ندوة تعقد في هافانا حول موضوع الإنسى ولم أذهب.

— كوبا؟ لماذا لم تخبريني؟ لكنت وافيتك إلى هناك. منذ زمن طويل لم نلتقِ، ما بك؟ متى تأتين؟

صمت للحظة قصيرة أهيئ ما سأقول له، لكنه استعجل وسأل: «ليال ما بك لا تتكلمين هل من مشكلة؟».

— ليس من مشكلة. القضية هي أهم. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر، لكنني أقترح أن نوقف علاقتنا لأنني سأتزوج.

قلت ذلك بسرعة وبكل فجاجة. صمت لحظة ثم ضحك وقال:

— هيا فلنتزوج، لقد عرضت عليك الموضوع مراراً، كنت ترفضين، هل غيرت رأيك؟ هذا يسرني جداً.

— لم أغير رأيي، لن أتزوج بك. لم يتركني أتابع وسأل مندهشاً.

— ماذا تقصدين؟ هل من شخص آخر؟

— نعم! هناك شخص أريد الزواج به. أنا لم أكذب عليك لأنني منذ البداية قلت لك بوضوح إن علاقتنا لن تنتهي إلى زواج.

ذكرته أننا اتفقنا على ذلك وذكرته أننا اتفقنا على أن نكون حرين إذا أراد أحدنا الزواج.

— هل أنت جادة في ما تقولين؟

— كل الجدية. لهذا السبب قررت ألا أتصل بك ولا أجيب على الهاتف علك تنساني... يمكن أن نبقى أصدقاء إذا أردت.

— اتركي لي الوقت كي استوعب الموضوع. سأتصل بك لاحقاً. قال ذلك وأقفل الخط.

أقفلت الخط بدوري وشعرت بنوع من الراحة تتسرب إلى جسدي. كنت في لحظة انسجام مع ذاتي. لقد تصالحت مع كامل وأنهيت ما كان عالقاً مع صديقي السويسري. لم يطل استرخائي إذ رن جرس الهاتف من جديد. كان هو.

— ليال هل أنت جادة في ما قلته لي؟ لماذا لا نلتقي ونناقش الموضوع؟ أدعوك إلى حيث تريدين وهكذا نقرر بهدوء ونتفاهم على كل شيء.

— لا شكراً لن نلتقي بعد الآن إلا كأصدقاء عاديين.

— ألهذا السبب قلت لي مرة إننا ربما لن نلتقي فيما بعد؟ هل منذ ذلك الوقت أنت مصممة على الزواج؟

— لم أكن مصممة على الزواج ولم أكن قد التقيت الشخص بعد. كان مجرد حدسٍ ،كما قلت لك في حينه، وقد تحقق.

— أتمنى لك التوفيق ولو أنني سأتألم كثيراً. قال ذلك بصوت متقطع وتابع: سنبقى أصدقاء كما تريدين. على كل حال إن غيرت رأيك فأنا هنا بانتظارك.

أنهيت الموضوع مع السويسري وأصبحت مع كامل الذي ما إن وصل إلى بيته في ليون حتى اتصل بي ليقول لي كم هو سعيد وكم يحبني. فرحت بكلامه لكن حين عدت إلى ذاتي وجدت أن أمرين ما زالا عالقين في ذهني ولم أتأكد من صحتهما. الأمر الأول هو لماذا يكذب كامل في سبب اختياره لمدينة ليون. كنت واثقة أنه اختارها لأن زوجته الثانية هي من الجوار وهذا ما بينته لي الأوراق التي تركها لي. لكنه ظل ينفي تاركاً في ذهني نقطة استفهام حول صدقه. قررت أن الأمر لا يهم ولن أتوقف عنده. الأمر الثاني هو قصة الشعر الملفوف على قصاصة الجريدة. هل هو شعري فعلاً؟ حتى الآن أتساءل ولا أدري لماذا لم أصدق كامل في هذا الأمر.

بعد سفر كامل عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي. عدت أنا إلى عملي في المجلة وفي الدار. كانت عودة نشيطة لاحظ الجميع خلالها تغيري واندفاعي للعمل. عاد كامل إلى

التدريس وإلى الاتصال بي كل مساء حيث أصبحت أنتظره ولا أترك البيت إلا بعد مكالمته. كنت أحب صوته على الهاتف وأحب لهفته وكلامه عن الحب وعن سعادته بلقائنا من جديد. مكالماته تشبع نرجسيتي بكل معنى الكلمة إذ إنه كان يردد دائماً كم أنا جميلة وكم أنني لم أتغير لا بل كم أنني أصبحت أجمل. أطرب لكلامه وأفرح بتقبله كل ما أطلب وأقول. لم يخالفني الرأي إطلاقاً. شعرت بأن الانسجام تام بيننا.

دام ذلك الوضع إلى أن اقتربت عطلة الصيف. اقترح كامل أن نلتقي خارج لبنان. وافقت على اقتراحه لأنني كنت راغبة في السفر. ثم إن مجيئه إلى لبنان سيطرح أسئلة عديدة ونحن غير متزوجين. التقينا في ليون مجدداً وزرنا معاً معالم تلك المدينة التي كنت أعرف من قبل. زرنا تلك الكنيسة المشهورة على رابية عالية وتسمى notre dame de fourvière. زرنا المكتبة الوطنية. زرنا متحف القديس بطرس. قمنا برحلة في الـ bateau mouche على نهر الرون الذي يمر في تلك المدينة. لكن الأهم من كل ذلك هي المطاعم التي تقدم أرقى أنواع المأكولات. لا عجب في ذلك فمدينة ليون هي عاصمة المطبخ العالمي كما مدينة ديجون هي عاصمة المطبخ الفرنسي. أشهى ما أكلته في مطاعم ليون ما يسمونه «باتيه الخضار» إذ يأتيك الصحن وفيه ضمة من الألوان المتناسقة مشكلة لوحة يتردد المرء كثيراً قبل أن يباشر في أكلها.

بعد استمتاعي بالمطبخ الليوني لمدة أسبوع طلبت من كامل أن نذهب إلى مكان آخر. تداولنا في الأمر واتفقنا على تمضية أسبوع في جزيرة صغيرة تدعىL'Ile du levant وهي جزيرة للعراة فقط. أمضينا في تلك الجزيرة وقتاً ممتعاً وكنا نضحك كثيراً حين نهم للخروج من الشاليه التي استأجرنا. داخل الشاليه كنا نرتدي ثيابنا، صحيح ثياباً خفيفة، لكنها تستر كل جسدنا. حين كنا نقرر الانتقال إلى الخارج، نخلع ثيابنا ونحن نضحك لهذا الخروج على المألوف. لكننا تمتعنا بهذه العطلة وانتقلنا بعدها إلى نيس، حيث أمضينا وقتاً قصيراً على شاطئ البحر. ثم زرنا مدينة غراس، مدينة الزهور بامتياز، مدينة العطر. زرناها في يوم عيد الزهور. كانت المشاهد لا توصف وكمية الورود المعروضة لا تحصى والفضاء، كل الفضاء عابق بالعطر الذي فاح من تلك الزهور.

انتهت العطلة. عدنا إلى ليون حيث تركت كامل ورجعت إلى لبنان لأحضر كل الأوراق الضرورية للزواج. اتفقنا بسبب اختلاف انتمائنا الديني على الزواج المدني في فرنسا لأن الزواج المدني لا يحرج أحداً منا. على الأقل لا يحرجني أنا لأنه أمر مكرر في عائلتي. والدتي مسيحية وزوجة أخي مسيحية وتربيت في جو لا يفرق بين الأديان. حين تناقشنا في الموضوع قلت لكامل: «لا زواج مدني ولا زواج ديني. أنا ما عدت أحترم هذه المؤسسة. الزواج لا يقدم ولا يؤخر في العلاقة». أجاب:

— صحيح أن الزواج لا يقدم ولا يؤخر في العلاقة، إلا أنه ضروري فهو يشرعن العلاقة. ثم لا تنسي، إن عدنا إلى لبنان، تعرفين أنت العقلية هناك، لا نستطيع أن نعيش معاً من دون زواج.

— أعرف ذلك. لكن إذا قلنا إننا متزوجان فمن سيطلب منا الأوراق الثبوتية؟

— لا أحد، أعرف ذلك. لكن إن أردنا التجول في الدول العربية مثلاً، فلا نستطيع أن نقيم في غرفة واحدة في الفنادق من دون إثبات زواجنا.

— طيب، طيب، زواج مدني وانتهى الموضوع. سأحضر المستندات الضرورية وأعود قرابة عيد الميلاد. ما رأيك لو التقينا في اليونان؟ نتزوج هناك ونمضي العطلة ثم...

— أية عطلة؟ نتزوج ونقيم معاً في ليون حتى نهاية السنة. بعدها نقرر. السنة القادمة هي سنة عطلة عندي لأنها السنة السابعة كما يسمونها في الجامعة. نذهب خلالها إلى لبنان وهناك نقرر أين سنعيش بشكل مستمر. ما رأيك؟

— موافقة. سأحضر الأوراق وأسلم إدارة المجلة ودار النشر إلى بعض الأصدقاء وآتيك كي نعيش معاً بقية هذه السنة.

عدت إلى بيروت. كنت مقتنعة جداً بما خططنا له ومسرورة بالعيش مع كامل بشكل عادي خارج إطار العطل والرحلات. كنت متشوقة لحياة مستقرة مع رجل يحبني وأحبه، مع رجل أمضى حياته يحلم بي. وجدت نفسي في تلك العلاقة كأنني في حلم يتحقق. هذا ما حاول كامل أن يشعرني به. لهذا السبب تحول الواقع إلى مزيج من واقع وخيال حيث كنت فيه «فينوس وأفروديت» وكل ما يمت إلى جمال الإنسى بصلة. كانت غبطته العارمة واندفاعه المتهور أحياناً يحولانني إلى كائن فوق البشر. كل ذلك أفرح قلبي ودغدغ مشاعري، لكن في زاوية ما من ذهني ظل سؤال غامض، لم يتضح إلا بعد عودتي إلى لبنان وهو التالي: «هل أحب كامل أو أحب حبه لي؟». كلما فرض هذا السؤال نفسه علي تهربت من الإجابة عنه لأنني ما كنت أميز بين الحبين. لكنني كنت سعيدة مهما أتت الإجابة.

جمعت الأوراق المطلوبة للزواج، ترجمتها إلى الفرنسية وصدقتها من وزارة الخارجية. قبل عيد الميلاد بقليل سلمت المجلة والدار إلى صديقتين أثق بهما وطلبت من وائل أن يساعدهما إذا احتاجتا إلى ذلك. حين أخبرت وائل أنني سأتزوج من كامل، قال بكل هدوء: «ليال، لماذا الزواج؟» ثم اعتذر وتابع ببرودة: «افعلي ما تشائين، أتمنى لك التوفيق. اذهبي إلى ليون، لا تحملي هماً بالنسبة للعمل، سأساعد الصبايا إن احتجن إلي». ودعني وانصرف.

ليلة سفري إلى ليون رن جرس الهاتف في البيت. قرأت الأصفار على الشاشة. إنه من الخارج. رفعت السماعة. لم أصدق أذني. «ألو ليال». قال. اختلج شيء في صدري، شيء هو مزيج من الحب والكراهية. عرفت صوته.

— ألو ليال، ألم تعرفي صوتي؟

عرفت صوته، لكني قلت: «لا، من يتكلم؟».

— هل نسيت صوتي؟

لم أكن قد نسيت صوته لكني أصررت على التجاهل وعلى السؤال: «أرجوك قل من أنت وإلا أقفلت الخط».

— لا، لا تقفلي الخط، أنا رامي. ليال لقد مضى العمر بالقهر والعذاب، لماذا لا نعود للعيش معاً؟ ألم تغفري لي بعد تلك الغلطة؟ ألم يمر الزمن على عمل صبياني أمضيت حياتي أدفع ثمنه؟

مر بسرعة في ذهني شريط حياتي مع رامي. كم أحببته! لكن سرعان ما ظهرت صورة دومنيك فأجبت:

— رامي لقد انتهى الأمر منذ زمن بعيد. لا نستطيع إحياء ما مات. اترك الماضي يرقد حيث هو بسلام. إنس وعش حياتك من جديد. ترددت قليلاً ثم تابعت: «ثم إنني قادمة على زواج».

صمت قليلاً ثم سأل: «بمن ستتزوجين؟».

— كامل. أنت تعرفه وتعرف، كما أخبرتك في حينه، أنه حبي الأول. التقينا من جديد وسنتزوج قريباً.

— لماذا هو وليس أنا؟ ليال، لم أنسك يوماً واحداً. حياتنا معاً كانت جميلة ألا...

قاطعته وقلت: «اخترت كامل لأنه لم يخنّي. ثم إن الأمر في الحب والعلاقات الإنسانية ليست عملية حسابية. نختار وربما نخطئ لكننا نختار و...

— ليال أرجوك تمهلي. لا تتسرعي. لقد أمضيت سنين طويلة ترفضين الزواج، كما علمت، لماذا غيرت رأيك؟

— أحياناً تجري الأمور خلاف ما نكون قد قررناه وتسوقنا الأقدار إلى حيث لم نخطط وننفذ كأننا نحن من قرر وخطط. أليس هذا مكر التاريخ؟

— هل قرارك نهائي؟ أليس من إمكانية للقاء بيننا قبل...

— لا! لن أسمح للزمن أن يحبطني مرة أخرى.

— ليال، أنا كبرت وأعرف ذاتي جيداً. لما اتصلت بك لو لم أكن واثقاً من مشاعري وكل أحاسيسي.

— ألم تعد ماكينة راغبة كما كنت؟

— بلى، أنا ما زلت ماكينة راغبة، لكن كل موضوع رغبتي أصبح أنت. أنت أيضاً كنت ترددين أنك ماكينة راغبة.

— علمتني الأيام أن الماكينة الراغبة الأنثى هي غير الماكينة الراغبة الذكر. إنها عميقة وشاملة عند الإنسى، بينما هي عند الرجل كناية عن فقاقيع هواء تنتهي مع الانتهاء من ممارسة الجنس.

— لماذا إذاً تعيدين التجربة؟ لماذا ترتبطين برجل؟

— لأن كامل ماكينة راغبة تشبه الماكينة الإنسوية وهذا ما أحببته فيه.

انتهى الحوار بيننا بقول رامي: «كما تريدين، أود لو نلتقي يوماً ما». وأعطاني رقم هاتفه وعنوانه في ألمانيا.

أقفلت الخط وتساءلت: لماذا قلت لرامي إن كامل ماكينة راغبة تشبه الماكينة الإنسوية؟ هل هذا صحيح؟ ما الفرق بين الماكينتين؟ فكرت قليلاً وقررت أن الاختلاف بينهما يعود إلى مفهوم الـcristallisation الذي تكلم عنه ستندال في أحد كتبه حيث المعشوق يصبح كغصن شجرة تكسوه حبات الجليد فيشع بشكل يدفعنا إلى تثبيت نظرنا عليه. لكن هل قلت ذلك لرامي لأسوغ ما أنوي القيام به؟ لقد خضتني المكالمة المفاجئة مع رامي. أعادتني إلى زمن أحبه وأكرهه في الوقت نفسه. بقيت لفترة طويلة تحت وطأة تلك المكالمة لكني قررت ألا أستسلم للتحليل وللذكريات وقلت لنفسي: «أنا قادمة على خطوة

جدية، سأقوم بها وأتحمل كل نتائجها. لن أترك لرامي أن يدمر حياتي مرة ثانية». بعد هذا القرار، عاد رامي إلى الزاوية التي كان يحتلها في ذاكرتي. زاوية أقفلت بابها واسترحت.

جهز كامل كل الأمور وحدد موعد الزواج في الثالث والعشرين من كانون الأول. وصلت إلى ليون في العشرين من الشهر ومعي المحابس التي اشتريتها من لبنان. في الموعد المحدد وضعنا المحابس في إصبعينا وذهبنا إلى مبنى البلدية حيث كان ينتظرنا أصحاب كامل وبينهم الشاهدان، رجل وزوجته هما أقرب الأصدقاء إلى كامل.

تمت المراسم كما ينبغي. دعا كامل الأصدقاء إلى مطعم حيث تناولنا العشاء وشربنا الخمر وانتهى الأمر بقالب الكاتو والشامبانيا. انصرف الجميع وهم يتمنون لنا حياة سعيدة. عدنا إلى البيت حيث بدأت مرحلة جديدة. أصبحنا زوجاً وزوجة. غريب هذا الشعور الجديد! حين عدنا إلى البيت شعرت كأنني فقدت شيئاً ما، شيئاً ثميناً. شعرت كأن المقاييس انقلبت. ماذا يعني أن أصبح زوجة كامل؟ هذا السؤال ستجيب عليه الأيام الآتية كما سنرى.

بعد الزواج، وبالتحديد في اليوم الثاني صباحاً، اتصلت بأخي في باريس وأخبرته بما فعلت. لم يكن جهاد يعلم بعلاقتي بكامل. حين سمع ما قلت، صمت قليلاً ثم قال: «مبروك إذا كان الأمر صحيحاً».

— الأمر صحيح وأنا الآن مع كامل في ليون.

— إذاً تعالي معه لتمضية عيد الميلاد معنا. هيا، تعالي إننا ننتظرك. ليال مشتاقة جداً إليك.

أقفلت الخط من دون أن أكلم والدتي. أعرف أن الخبر لن يسرها. كانت في أعماقها تريدني أن أعود إلى رامي. كانت دائماً تقول لي إنه من غير المعقول أن نحكم على شخص بالإعدام بسبب غلطة صغيرة. هي تحب رامي ولذلك اعتبرت أن ما قام به هو غلطة يمكن إصلاحها. لم تدرك يوماً حجم الجرح في قلبي.

حين وصلت مع كامل إلى باريس، استقبلتنا والدتي، كما توقعت بشيء من البرودة. جهاد رحَّب بنا. بالغ في ترحيبه كي يخفي اغتياظ أمي. أما ليال الصغيرة فجلست بالقرب مني تقبلني وتقول: «هذا هو كامل؟ لقد كذبت علي حين قلت إنه مجرد صديق. إنه يكبرك بكثير، لكنه يبدو طيباً». ملاحظة ليال ترددت على مسمعي مرات عديدة. كامل يبدو أكبر من عمره الحقيقي وكنت أقول لنفسي حين أسمع تلك الملاحظة: «لا يهمني الشكل، المضمون هو الأهم، وكامل كتلة مشاعر طيبة ورقيقة».

في السهرة وزعت الهدايا وحصل كل من فارس وهلا وليال ورائد على الهدية التي كان ينتظرها. قدّم لي جهاد في تلك السهرة مغلفاً فيه مبلغ من المال وهو يقول: «إنها هدية الزواج وهي مني ومن الست هلا». أضاف اسم والدتي من دون أن تعلم، كانت مشغولة بما قدم لها جهاد والأولاد إذ إن هديتها هي دائماً الأهم.

أمضينا يوم العيد في باريس وعدنا إلى ليون لإكمال العطلة بين الأصدقاء الذين أبدوا إعجابهم بعلاقتنا التي تجددت بعد أكثر من ثلاثين سنة. كل واحد عبر بطريقة مختلفة عن إعجابه وشبّه علاقتنا بإحدى القصص الخيالية التي قرأها أو سمع عنها. كل تلك الأقاويل كانت تنعش ما بيننا لدرجة أننا خلنا أنفسنا أبطالاً في رواية وليس أشخاصاً حقيقيين. دعانا الأصحاب إلى بيوتهم وزارونا في بيتنا. هكذا تعرفت إلى محيط كامل المؤلف بغالبيته من أساتذة في الجامعة. انغمست في عالم جديد حيث كان علي أن أبني شبكة علاقات قائمة كلها على عالم كامل وتحركاته.

خلال الفصل الثاني من السنة الجامعية، دعي كامل إلى برلين لإلقاء محاضرة. رافقته طبعاً. كان أسبوعاً ممتعاً قضيناه بين أصحاب كامل. في ألمانيا خطر ببالي عدة مرات رامي الذي يعيش في هامبورغ. في كل مرة كنت أبعده وأنغمس أكثر في عالم كامل الذي أعجبت محاضرته الجميع. أعجبت أنا أيضاً بها. كانت المرة الأولى، بعد ثلاثين سنة، التي أنظر فيها إلى كامل كأستاذ. جلست بين الحضور أنظر إليه وأرى نفسي تلميذة في الرابعة عشرة من عمرها في مدرسة الراهبات في بيروت. أعجبت بكلامه وبثقافته. حين انتهى قبلته

وعبرت له عن إعجابي. هذا الإعجاب زاد من حبي له وهذا بدوره انعكس على كامل الذي زاد عشقه لي. كانت الرحلة تلك من أجمل ما قمنا به معاً.

في ليون أمضينا أوقاتاً ممتعة إذ إن كامل كان يدرس ثلاثة أيام في الأسبوع ويعطل أربعة أيام كنا خلالها نطوف في كل أنحاء المنطقة ونكتشف الغابات والسهول والوديان. ننام حيث يطيب لنا ونعود إلى بيت كامل الذي أصبح بيتنا. صحيح أنه أصبح بيتنا لكني لم أشعر يوماً أنه بيتي. كل ما فيه لم يكن من اختياري. كان بالنسبة لي كفندق ليس إلا. ما عزز هذا الشعور هو أن كامل لم يتركني أقوم بأي عمل. كان هو ينظف ويرتب ويغسل و...يقوم بكل أعمال البيت. كان يقوم به وهو سعيد، على الأقل بحسب قوله. «لا تتحركي، أنا معتاد على القيام بكل ذلك. لا تنسي أنني عشت وحدي لمدة طويلة». كنت أقدر همته لأنني لم أحب يوماً ما يسمونه شغل البيت الذي لم أمارسه قط. لقد أمضيت حياتي بالترحال والسفر، من دون استقرار. أحببت تفاني كامل وقيامه بكل ما يحتاج له البيت. شعرت معه بالاستقرار ولو أنه لم يكن استقراراً دائماً.

بين أوائل زواجنا ونهاية السنة عدت مرتين إلى لبنان لتفقد سير العمل في المجلة والدار. كنت أعود إلى بيروت وكلي شوق للرجوع إلى حيث كامل. هو بدوره كان يعد الساعات، لا بل الدقائق التي تفرقني عنه. كنت سعيدة وأخبر رفاقي في بيروت أنني أعيش كأميرة مع كامل الذي يعاملني بكل حب واحترام ودلال. كلهم قالوا: «إنشاء الله بتتهنو». فقط وائل قال لي مرة بعد أن سمع كلامي حول حياتي مع كامل: pourvu que cela dure. قالها باللهجة الكورسيكية كما قالتها أم نابوليون حين أخبروها عن انتصارات ابنها. لم أعلق على كلامه واعتبرته نوعاً من الغيرة المحببة والخفية.

في أواخر السنة تلك، حزمنا أمتعتنا وعدنا إلى لبنان للإقامة فيه خلال السنة السابعة، سنة العطلة عند كامل. اتفقنا أن نختار خلال هذه السنة أين سنستقر نهائياً. في لبنان أقمنا في بيت أهلي. بعد بضعة أيام طلب مني كامل أن نزور الضيعة لمدّة قصيرة. كانت إجابتي له: «بل لكل الصيف».

فرح كامل بإجابتي تلك لأنه مثلي يحب الضيعة وقال: «كم سيكون هذا الصيف جميلاً. سنعيش ما لم نستطع عيشه منذ سنين. هذه المرة أنت لي ولن أتحايل كي أراك أو ألمس يدك. سأقبلك أمام الجميع. أنت زوجتي».

قبل ذهابنا اتصلت بجهاد وطلبت منه أن يأتي مع عائلته وأمي لتمضية الصيف معنا في الضيعة. رحب بالفكرة واتفقنا على لقاء قريب. لست أدري لماذا كانت ابنته ليال تحب

الضيعة بشكل خاص. ربما ارتبطت الضيعة في ذاكرتها بشعور معين تخفيه كما أخفيت من قبلها مشاعري تجاه كامل.

فتحنا البيت الذي عادت إليه الحياة والذي لم ينتعش فعلياً إلا حين وصل جهاد. زارنا كل أهالي الضيعة وقدموا لنا تهانيهم. أصبحت الحديقة تضج كل يوم بالناس تماماً كما كانت تضخ بهم أيام والدي الذي ترحم عليه الجميع وطالبونا بأن لا نهجر الضيعة.

كان جهاد يصغي إليهم ويفكر. بعد فترة على إقامتنا في الضيعة، قال لي: «يجب أن يظل البيت مفتوحاً. سأعود إلى لبنان، وإن اختارت العائلة أن تبقى في باريس سأوزع أوقاتي بين لبنان وفرنسا. ما رأيك؟ صحيح أني أعيش مرتاحاً في باريس لكنني نكرة، لا أشعر بكياني كما هنا في لبنان حيث أعرف الجميع ويعرفني الجميع. سأعود. أنا لست بحاجة للعمل كي أعيش، تعرفين ذلك، رحم الله والدي الذي ترك لنا ما ترك. سأفتح البيت هنا وفي بيروت تماماً كما كان الوضع أيام والدي». تابع كلامه في هذا الاتجاه كأنه يقنع نفسه بضرورة العودة. أصغيت إليه وأدركت أنه يتكلم كي يسمع تشجيعي. شجعته وكنت مقتنعة بضرورة العودة لأنني بعد التجربة شعرت بأني لا أستطيع العيش إلا في لبنان. ربما عاد ذلك إلى ما قاله جهاد حول الشعور بالكيان. في مطلق الأحوال أنا لا أحب تحويل الإنسان إلى رقم كما هو الحال في البلدان الصناعية الكبرى. هنا في لبنان لم نصل بعد إلى هذه الدرجة من الرقي الاجتماعي الزائف. ما زال للحياة طعم عندنا. ما زالت الحرارة تلف علاقاتنا. هنا نشعر بجذورنا كما يقول كامل.

خلال ذلك الصيف، كان كامل منشرحاً جداً وطلب مني أن نقوم بعدد من الزيارات التي «أحرص على القيام بها برفقتك. أريد أن يراني الجميع وأنت زوجتي». أول زيارة تمت داخل الضيعة. «سنزور أرملة الأستاذ نزيه. كان شخصاً عزيزاً على قلبي. هو أول من ساعدني لأصل إلى ما وصلت إليه الآن». حين سألته لماذا لم تزرنا هي، أجابني بأنها شبه مقعدة، وتابع كلامه حول مساعدة الأستاذ نزيه له في أول حياته.

زرنا تلك المرأة الفاضلة التي يحبها الجميع. كانت فعلاً مقعدة وتتحرك بصعوبة. حين دخلنا عليها حاولت أن تنهض، لكن كامل اقترب منها بسرعة ومنعها من النهوض. قبلها وقدمني إليها. هي تعرفني جيداً، لكنه أصر على تقديمي كزوجته لا كليال التي تعرف. أخبرناها عن حالنا وسألناها عن أولادها و...كلهم كانوا بخير. لكنها بعد قليل صمتت، اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «لو أن الأستاذ لا زال حياً لفرح بك جداً. كان يعزك بشكل خاص». رد عليها كامل بأنه هو أيضاً كان يحترمه ويحبه كثيراً.

الغريب في الأمر أنني شعرت نفسي خارج ذلك الحوار الذي بدا لي ثنائياً. حدس كامل بشعوري وقال متوجهاً إلى الأرملة: «قولي لها كم عانيت من أجلها، قولي لها كم بكيت هنا أمامك وأمام الأستاذ رحمه الله».

— المهم أن كل شيء انتهى على خير. صحيح أنه تأخر، لكنه تم وأنتما الآن معاً.

بعد أن شربنا القهوة التي أحضرتها إحدى قريباتها، تركناها وعدنا إلى البيت.

الزيارة الثانية طلبها كامل بعد أيام: «سأزور معك دير حريصا حيث تم انتقالي من البداوة إلى الحضارة في يوم واحد». وافقت على طلبه وزرنا الدير الذي تغير قليلاً وأضيف إليه جناح جديد. لكن ما أفرح قلب كامل في تلك الزيارة أنه التقى بشفيق، الشماس الذي ساعده حين وصل إلى الدير. كان شفيق لا يزال مقيماً في الدير، لكنه أصبح مطراناً. حين سلم عليه كامل، انحنى أمامه وحاول تقبيل يده، لكنه سحبها وعانق كامل الذي ما أن جلسنا حتى باشر بإخباره قصتنا.

في الزيارة الثالثة توجهنا إلى مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في الأشرفية. كانت المدرسة في عطلة وخالية من الطلاب. لكننا زرناها وزرنا القاعة التي شهدت أول لقاء بيننا. أصر كامل على زيارة قاعة ثانية وهي القاعة التي تمت فيها الامتحانات الشفهية، تلك الامتحانات التي عبر خلالها عن حبه لي. حين دخلنا تلك القاعة، أخذ كامل يدي وطبع قبلة في داخلها. لكن خالة كامل لم تكن في الدير. تقاعدت «وهي الآن في بيت

للراحة في منطقة كسروان». أجابتنا الراهبة التي رافقتنا وأصغت إلينا وهي تردد: «مش معقول، مش معقول». ربما كانت تتمنى لو يحدث معها الشيء نفسه.

تركنا المدرسة في بيروت وتوجهنا مباشرة إلى حيث خالة كامل. كانت عجوزاً جداً، لكنها فرحت بنا وقالت لكامل: «يا شيطان حققت ما تريد». ضمها كامل إلى صدره وقبلها على جبينها قبل أن نغادرها ونعود إلى الضيعة من جديد.

انتهت عطلة الصيف. مرت همروجة التهاني في الضيعة على خير. حان وقت الرحيل. حان وقت استعادة الحياة لدورتها العادية. غادر جهاد مع أولاده وزوجته إلى باريس واعداً ليال أنه سيعود بأقرب وقت. بقيت الست هلا لبعض الوقت مع ابنتها وصهرها في بيروت. بقيت لأنها كانت تريد القيام ببعض الاتصالات وإنجاز بعض الأمور العالقة. لم تخطط أبداً للعيش مع ابنتها وبخاصة الآن وقد تزوجت من كامل. كانت تفضل البقاء مع ابنها وأولاده وزوجته الذين يعاملونها بحسب ما تتمنى من احترام وتقدير.

أمضت إذاً الست هلا وقتاً قصيراً في البيت الكبير في بيروت. أمضته من دون أن تتدخل بأي أمر من أمور ابنتها. إن استشارتها ليال في موضوع ما، أجابت: «افعلي ما ترينه مناسباً». لم تكن مستاءة جداً من ليال، لكن هذه هي طبيعتها، أن تبقى على مسافة من كل الناس، حتى من أولادها. هذه الطبيعة هي التي سهلت، ربما، إقامتها مع كنتها حنان تاركة لها كل صلاحية القيام بما يتطلبه البيت والأولاد وكل ما يتعلق بدورها كزوجة وأم وسيدة مجتمع.

بعد أن انتهت من القيام بما تريد القيام به في بيروت، رحلت الست هلا إلى باريس تاركة ليال وزوجها وحدهما في البيت. كانت ليال في تلك الفترة تخرج مع كامل إلى مكتبها وإلى المقاهي والمطاعم حيث تلتقي الأصحاب والمعارف. لكنها لاحظت أن كامل يتعامل معهم بنوع من الحذر لا تفهمه. لهذا السبب قررت أن تقيم حفل عشاء تدعو إليه كل الأصدقاء كي تعرفهم إلى كامل وكي يتعرف كامل إلى محيطها وأجوائها والفضاء الذي تتعامل معه وتعيش فيه.

اتصلت بكل الأصحاب وحدد موعد الحفلة. تحمس كامل جداً لما قامت به ليال وشاركها في وضع لائحة الطعام الذي سيحضرانه للعشاء. طُلب قسم منه جاهزاً من أحد المطاعم وحُضر ما تبقى في البيت. كانت الطاولة، طاولة الطعام، في تلك الليلة غنية جداً كما توقعا.

لبى جميع الأصدقاء الدعوة وهم حوالى الثلاثين شخصاً. كانوا رجالاً ونساءً بينهم رجال متزوجون مع زوجاتهم وآخرون من دون زوجاتهم والباقون غير متزوجين. أما النساء فكن في غالبيتهن مطلقات والقليل منهن مع أزواجهن. هذا يعني أن عدد الرجال بين المدعوين كان أكبر من عدد النساء. لم تنتبه ليال إلى ذلك إطلاقاً. لم يخطر ببالها وهي تحضر لائحة المدعوين أن توازن بين الجنسين. انحصر همها في دعوة أصحابها فقط.

استقبلت ليال الأصحاب واحداً واحداً وقدمت لهم كامل الذي استقبلهم إلى جانبها. حين امتلأت المقاعد في الصالون الكبير، وزعت كؤوس المشروب لكل بحسب طلبه وشرب الجميع نخب ليال وكامل، وبدأت الأحاديث والحوارات التي تشعبت في كل الاتجاهات: السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية و...كان كامل إلى ذلك الحين منسجماً، لكن شيئاً في داخله لم يكن مرتاحاً مما جعله قليل التوتر. ما كان شعوره الحقيقي؟ شعر بأن الآية قد انقلبت. في ليون كانت ليال هي التي تسبح في عالمه، وعليه هو الآن أن يسبح في عالمها. ليال أجادت السباحة ونجحت، فهل سينجح هو؟

بعد الكأس الثانية توجهت ليال إلى زاوية حيث توجد الآلات الموسيقية. بعد قليل بدأت الموسيقى الهادئة. اقتربت ليال من كامل، دعته إلى الرقص وتبعهم الكثير من الأصحاب. شعرت ليال بتوتر كامل لكنها تجاهلت الأمر ورقصت معه وقتاً طويلاً قبل أن يتركها ويعود إلى مكانه.

علا صوت الموسيقى وصخب النغم فتمايلت ليال وحدها في الساحة الصغيرة وسط الصالون. تبعها أحد الرجال وأخذ يتمايل معها. حين انتهيا صفق الجميع وصفق معهم

كامل. لكن تصفيقه كان مجاملة وتوتره يتزايد. أصبح صامتاً لا يكلم أحداً، فقط يرد على من يطرح عليه سؤالاً. كان الجميع يسايرونه. لكنه شعر أن تلك المسايرة ليست إلا كرمى لليال. لم يدرك أن الأمر طبيعي لأن لا أحد يعرفه.

لم يستطع تحمل هذه الهامشية. لم يستطع تحمل فكرة أنه زوج الست. حين لا يكون الرجل، ضمن العائلة، هو الرأس بشكل واضح، يشعر بالدونية والتهميش. وما زاد في الطين بلة هو أن الرجال وبخاصة غير المتزوجين، رقصوا مع ليال وتمايلت أمامهم ولفّوها بأذرعتهم كأنها وحدها وليس لها زوج يراقب. كان كامل فعلاً يراقب كل ما يدور حوله. كاد ينفجر، لكنه تحمل، بلع غيظه وحاول تمثيل دور الزوج السعيد، الزوج الأكيد من أن زوجته تحبه مهما فعلت ومهما رقصت وكيفما رقصت مع غيره. لا بل أحياناً كان يصفق لها وحده ويقول بصوت عالٍ: «برافو حبيبتي».

انسجمت ليال تماماً بجو الحفلة التي لم تختلف عن تلك الحفلات التي كانت تقوم بها مع أصحابها إياهم. لكن حين صفق مرة كامل وقال: «برافو ليال»، فهمت من نبرة صوته أنه مستاء. أتت إليه، جلست بالقرب منه وأخذت يده تداعبها. ظل بارداً. نهضت من مكانها ودعته إلى الرقص فرفض بحجة أنه لا يعرف وصاح الجميع: «كلنا لا نعرف ونتمايل كما يطيب لنا». لكنه تشبث بموقفه وشعرت ليال بالإهانة فتركته، توجهت إلى أول صديق بالقرب منها ورقصت معه. كان ذلك الصديق هو وائل الذي أتى إلى الحفلة من دون زوجته.

خلال الرقص سألها وائل بصوت منخفض: «ما به كامل؟ يبدو متوتراً، أعتقد أن الجو لا يعجبه. من الأفضل أن ننهي السهرة».

— كيف ننهيها وما زلنا في البداية؟

— نسرِّع وقعها، أتكفل بذلك.

أنهى وائل الرقص مع ليال، توجه إلى علبة الموسيقى، أسكتها وقال: «ألا تريدون إطعامنا؟ لقد متنا من الجوع». وافقت ليال وقالت: «هيا بنا، كل شيء جاهز». أما كامل

فقد انتابه شعوران متلازمان ومتناقضان في الوقت نفسه: من جهة فرح بانتهاء الرقص ومن جهة ثانية استاء لأن وائل هو الذي أخذ المبادرة. «تصرف كأنه صاحب الدار». قال بصمت. لكنه لم يظهر استياءه وساعد ليال في توزيع الصحون وتقديم الطعام. ليال كانت في مكان آخر، يعني أنها كانت منسجمة مع ذاتها تقوم بما تراه مناسباً وبما تقوم به عادة مع أصحابها في مثل تلك المناسبات. تمارس ذاتها بكل بساطة ومن دون عقد.

ملأ كامل صحنه وعاد إلى مكانه وساد الصمت مدَّة انشغل خلالها الجميع بالأكل وهم يتابعون الشرب. ماذا لاحظ كامل؟ لاحظ أن ليال اهتمت بالجميع ولم تهتم به. أما من وجهة نظر ليال فالأمر يختلف إذ إن كامل لا يحتاج إلى اهتمامها لأنه صاحب الدعوة مثلها. هو لاحظ أنها لم تهتم به وهي لم تلاحظ أنه لم يهتم بها حتى أن الموضوع لم يخطر ببالها على الإطلاق. هل لأن البيت بيتها؟ هل لتملّك المكان دور في تملك القرار والسيادة؟ ربما.

بعد صمت الطعام عاد الكلام من جديد. دارت أحاديث مختلفة كان أهمها حول المجلة التي تصدرها ليال وعن دار النشر التي تملكها. تكلمت ليال عن عدد الكتب التي ستنشر هذه السنة وعن التواريخ المقررة لنشرها. كان بين هذه الكتب كتاب لأحد المدعوين وهو روائي معروف. توجهت إليه ليال وقالت: «سأحاول الإسراع قدر الممكن بنشر روايتك. إنها جميلة جداً».

— أشكرك على اهتمامك بي. أعرف أنك تحبين كتاباتي.

ظل كامل صامتاً وتوتره يتزايد. هو نفسه لا يعرف بوضوح سبب ذلك التوتر. ترك الصالون، دخل غرفة النوم واستلقى على السرير. حين طال غيابه بحثت عنه ليال: ذهبت أولاً إلى الحمام ظناً منها أنه أسرف في الشرب ويحاول إفراغ معدته، لم تجده. توجهت إلى غرفة النوم، رأته وسألت: «ما بك هل تشعر بسوء؟».

— أشعر بقليل من الدوار. ربما أكثرت من شرب الوسكي. سأستريح قليلاً ثم أعود. لا تهتمي... هل ستطول السهرة؟

— لا، لا أعتقد لقد شارفت على النهاية.

— أين كامل؟ سألها البعض حين عادت إلى الصالون.

— يستلقي لأنه أسرف في الشرب. سيستريح قليلاً ثم يعود ليكمل السهرة معنا.

— لا! قال وائل. ننهي السهرة. على كل حال كلنا تعبنا. ثم صحح وقال: على الأقل أنا تعبت وأريد الانصراف.

رفع ذراعيه في الهواء، طوح بهما علامة الوداع وغادر. هكذا فعل الجميع. غادروا وهم يقولون لليال: «سلمي على كامل».

انزعجت ليال من سلوك كامل. انزعجت أن لا يكون معها لحظة وداع الأصحاب. أقفلت باب الدار وتوجهت مباشرة إلى غرفة النوم. وجدت كامل قد خلع ثيابه وغط في النوم. حين رأته قالت لنفسها: «كان إذاً مصمماً على الانسحاب كأنه يريد أن أفهم أنه مستاء وغير راضٍ عما قمت به. فليفكر ما يشاء! لن يتحكم بي وبسلوكي إطلاقاً».

خلعت ثيابها بهدوء وهي تفكر بسخافة كامل. رفعت طرف الغطاء من الجهة الثانية عن السرير وتمددت. لأول مرة منذ بداية علاقتهما شعرت بثقل وجوده إلى جانبها. أما هو فكان يدير لها ظهره. توقع ربما أن تندس به وتراضيه أو على الأقل تسأله هل لا زال منزعجاً. لكنها أدارت له هي أيضاً ظهرها وحاولت النوم.

النوم لم يأتها. لقد أصيبت بأول خيبة في علاقتها بكامل. لم تفهم ماذا جرى له وبماذا شعر حتى توتر وانسحب. استعادت كل ما حدث خلال تلك السهرة، لم تجد أمراً واحداً من شأنه أن يخدش كرامة كامل. بل على العكس من ذلك لقد بالغت في مسايرته. هل أزعجته تلك المبالغة؟

أخذها النوم وهي لا تزال غير مدركة لما حصل لكامل. في الصباح، حين استيقظت، لم تجده إلى جانبها. كانت معتادة على ذلك. لكنه كان يعود بسرعة ليقبلها ويساعدها على النهوض لأن القهوة قد جهزت وتنتظرهما. استفادت ليال من فراغ السرير لتمدد عليه كل

جسدها وتتمطى وهي تتثاءب بكسل. انتظرته ولم يأت. نهضت من السرير وخرجت إلى الصالون. رأته هناك يشرب القهوة وحده.

— لماذا لم توقظني لنشرب القهوة معاً كالعادة؟

ليال تحب شرب القهوة برفقته كل صباح لأن طيف والدها يحضر بينهما كلما رأت كامل يمسك الفنجان كما كان يمسكه والدها. أما اليوم وبعد أن راقبت كامل وهو يشرب القهوة فقد شعرت أن تلك الحركة التي تذكرها بوالدها لم تعجبها، لم تحبها كما في السابق. شعرت كأنها تريد الفصل بينها وبين كامل. لا يحق له بها. ليس أهلاً لها.

— ظننت أنك متعبة بعد سهرة البارحة ولم أرد إزعاجك.

الكلام الذي قاله كامل هو كلام منطقي ومعقول أما اللهجة التي استعملها فلم تعجب ليال. لكنها تجاهلت الأمر وفضلت أن تلعب اللعبة حتى النهاية.

— كانت سهرة جيدة، أليس كذلك؟

— طبعاً جيدة! كيف لا تكون جيدة وأنتِ محاطة بشلة من الرجال المعجبين!

— إنهم أصدقائي منذ زمن بعيد. منذ أيام الحرب في لبنان. أنت لم تعش هذه الأجواء التي قربت كثيراً بين الناس على الرغم من كل مساوئها.

— أصحاب، أفهم ذلك. أنا أيضاً لدي أصحاب، كما رأيت، في ليون. لكن لماذا كل هذا الغزل؟ ألم تلاحظي كم تغزل بك الرجال؟ أو أنك معتادة على ذلك؟

— لم أسمع غزلاً كما تدعي.

— الغزل كان في نظراتهم أكثر من كلامهم.

ضحكت ليال وحاولت أن تغير مسار الحوار بينهما:

— ألاحظ أنك تغار وهذا يسرني.

إنها ليست غيرة. بل الأمر أخطر من ذلك. صمت قليلاً وليال تنتظر ما هو الأمر الخطر. تابع: ألم تلاحظي أنك اهتممت بالجميع إلا بي؟

— أنت الداعي وعليك أن تهتم بالضيوف مثلي.

— أنا لست الداعي. ليسوا أصحابي أنا. شعرت كأنني مدعو مثلهم لكني كنت مدعواً مهملاً.

لم تعد ليال قادرة على التحمل لكنها صمتت. نادت الخادمة وطلبت القهوة.

— الفطور جاهز. قالت الخادمة. هل آتي به إلى هنا أم..

— لا، لا، أنا آتية إلى المطبخ.

تركت كامل في الصالون وهي تفكر بما يحدث معها. هل بدأ العد العكسي لعلاقتهما؟ لا، حادث واحد لا يهز العلاقة. غمامة رمادية ستمر بسرعة لتعود الأمور إلى مجراها. هذا ما كانت تردده ليال في داخلها وهي تتناول فطورها. لكنها سرعان ما انتبهت إلى شيء مهم: لقد بدا لها كامل، حين كانا يتحاوران في الصالون، كما رأته لأول مرة عندما التقيا في مطار أورلي بعد انفصال أكثر من ثلاثين سنة.

كانت تفكر بكل ذلك حين دخل كامل المطبخ ليتابع الكلام: «وهذا الكاتب الذي تحبين كتاباته، من هو؟ هل هو عشيق سابق؟ وماذا قصد بتعليقه ذاك؟

— يا إلهي كم عقلك صغير! هذا الروائي هو صديق عزيز. أحبه كأخ لي وهو ينشر كتبه عندي في الدار. وأنا أنشر له لأنني معجبة بما يكتب. أين الخطأ في ذلك؟

— ثم هذا الذي اسمه وائل، لماذا تصرف كأنه في بيته؟ أهو صديق عزيز آخر وتحبينه كأخ لك؟ وهل للصداقة عندك مفهوم خاص لا أفهمه؟

هنا صمتت ليال قليلاً لأن وائل كان أكثر من صديق عادي. إذا استعملنا مصطلح صديق في حالته، لكان الصديق بامتياز لليال لأنه الأقرب إليها وإلى دواخلها والأكثر معرفة بها وبكل ما يدور في خاطرها.

— وائل صديق عزيز جداً، نعم. لكنه صديق فقط، ولا يذهب خيالك إلى أبعد من ذلك.

— لماذا لم يأت مع زوجته إذاً؟

— هكذا اعتدنا أن نلتقي.

— وكثرة النساء المطلقات؟

— لا تنس أنني كنت مطلقة.

لكنها ما عادت تتحمل وصاحت بأعلى صوتها:

— أخبرني ماذا تريد. تريد أن نقفل الباب علينا ولا نعود نرى ولا نعاشر أحداً؟ أنا لست مستعدة لهذه الحياة. ثم إنك في ليون كنت تدعو الأصحاب وبينهم نساء كثيرات، لم أسألك يوماً عن واحدة منهن.

— لأنك تعرفين أنه ليس لي علاقة بأية واحدة منهن.

— ماذا تقصد؟

— للحقيقة لست أدري. خيل إلي أن كل الرجال الذين كانوا هنا البارحة هم عشاق لك و...أكثر من ذلك..

— هل جننت أم ماذا؟ ربما كنت بالأساس مجنوناً ولم ألاحظ ذلك إلا الآن. اغرب عن نظري وإلا أصبحت مجنونة مثلك.

— طبعاً الحقيقة تجرح. قالها وهو يخرج من المطبخ.

وضعت ليال رأسها بين يديها وأخذت تفكر. لأول مرة راودها الندم على ما قامت به. ندمت على اتصالها به وإعادة إحياء علاقة كانت قد ماتت: «كان علي أن أتبع حدسي حين رأيته لأول مرة. بعد أن أهملت ذلك الحدس، كان علي أن أوقف كل شيء حين كذب علي بقصة حادث ابنه وبقصة طلاقه. ماذا يجري لي وماذا يحصل معه؟ لماذا هذه العدائية لأصحابي ولكل عالمي؟». لكنها انتفضت وقالت لنفسها: «سأعيش حياتي كما اعتدت أن أعيشها من قبل. سيدرك رويداً رويداً صدقي، وإن لم يدركه فليذهب إلى الجحيم».

تركت ليال البيت من دون أن تكلم كامل وذهبت إلى مكتبها. زارها من كانت على موعد معهم وبقيت كل ذلك النهار في المكتب. بقيت فيه إلى ما بعد الوقت المعتاد. انصرف الموظفون وبقيت بمفردها تفكر بما ستفعل. لم يطل مكوثها في المكتب إذ أتى كامل كأن شيئاً لم يحدث بينهما.

— حبيبتي أدعوك إلى العشاء. هيا بنا.

— هل صحوت من جنونك؟ وهل اقتنعت أنني لست على علاقة بأحد؟

فرح كامل حين سمع كلامها. شعر بأنه يعزز رجولته التي وبسبب سوء ظنونه ليلة البارحة، شعر بفقدانها.

— ليال، أنا نسيت كل شيء. حبي لك هو أقوى من كل ما يمكن أن يعكره. فقط أريد التأكد من أمر واحد، هل تحبينني؟

— صحيح أنت مجنون! لماذا تزوجت بك إذاً؟

اقترب منها، ضمها إلى صدره واعتذر لها عن سوء فهمه لما حدث في الأمس. قبلت اعتذاره لأنها لا زالت تحبه. لكن شيئاً ما كان قد جرح في غشاوة روحها. شعرت أن طوقاً رفيعاً أخذ يلتف حول عنقها.

صالح كامل ليال لكنه لم يكن صافياً كلياً في قرارة ذاته. أراد فقط أن يتلافى الأسوأ. ربما اصطلحت الأمور لاحقاً. ربما بينت له الأيام كذب ظنونه. ربما ضُخمت الأمور وهي بسيطة كما تقدمها ليال. لكنه أصبح شديد الحذر وتزايد لديه حب التملك واستمر في التزايد إلى أن...

بعد تلك المصالحة وما تبعها من عشاء عادا إلى البيت ومارسا الحب كما يفعل الناس المتزوجون بعد خصام. انتهيا من ممارسة الحب ليستأنف بينهما الحوار من جديد، لكنهما استأنفاه لوضع النقاط على الحروف وللتفاهم حول برنامج الأيام الآتية.

في تلك المرحلة كانت ليال مأخوذة بمتابعة ما سينشر من كتب في الدار التي تملكها وهي منسجمة جداً بهذا العمل الذي من خلاله تنشر كل ما تكتب. واختمر في رأسها موضوع لا تريد التخلي عنه إطلاقاً. تريد البحث عن أسس قول جديد يتميز عن القول الذكوري السائد. كانت مقتنعة أن للإنسى قولاً خاصاً بها لكنه ما زال صامتاً، وهي تشعر بضرورة بلورة هذا القول وإخراجه إلى العلن. كل محاولاتها صبّت في هذا الاتجاه. حين عرضت فكرتها أمام كامل، قال:

— طبعاً لا أطلب منك أن تتوقفي عن العمل، عملك بالذات. كل ما أطلبه هو ألا أمحى من حياتك، أن أظل موجوداً.

— أنت أيضاً عليك القيام بعمل ما أثناء عطلة السنة السابعة. إن أردت تستطيع العمل معي في مؤسستي.

— لا، منذ السنة الماضية وأنا أفكر بتنفيذ دراسة مهمة حول النظر le regard في الأدب الفرنسي المعاصر. سيكون عملاً جديداً. لقد جمعت له كل المراجع. سأبدأ به قريباً.

— ممتاز. تقوم أنت بعملك وأنا أتابع عملي ونعيش بهناء. كل ما أطلبه منك هو أن تثق بي وإلا قتلتني وحولت حبي إلى كراهية.

كامل يحب ليال جداً. لكن منذ أن عادا إلى لبنان تملكه حدس أنها تفلت من بين يديه. بعد حفلة العشاء تأكد حدسه أكثر. حاول مراراً أن يبعد هذا الحدس عنه، لكنه لم ينجح. صحيح قال لليال إنه يثق بها ووعدها أن لا يسيء الظن مرة ثانية، لكن في داخله كانت قد ولدت سوسة ستنخر أحشاءه رويداً رويداً.

تكريماً لليال وزوجها، دعاهما بعض الأصحاب في أوقات مختلفة إلى العشاء في بيوتهم. في كل مرة تكرّر الأمر إياه: أثناء السهرة يشعر كامل بالتهميش، يشعر كأن ليال تنساه، يشعر أنه أصبح شفافاً كلوح زجاج تخترقه نظرات ليال من دون أن تراه. ليال من جهتها كانت تشعر بأن كامل يراقبها، يراقب كلماتها وحركاتها ونظراتها، تشعر بالاختناق وتحاول تجاهله كي تتمكن من ممارسة ذاتها بشكل طبيعي كما في السابق. تشعر بأن نظرات كامل إليها، تلك النظرات التي كانت سابقاً شعاع نور يدفئها، تشعر بأنها تحولت إلى شلال من الماء البارد الذي يجلد ويجمد كل عفويتها المعتادة. تنتهي السهرة ويعودان إلى البيت بصمت كلي. حين يبدآن بالكلام يكون ذلك نوعاً من الانفجار إذ يصيح كامل:

— أنا، ماذا أنا بالنسبة إليك؟ هل أنا موجود أم أنني نكرة ورفيق الست فقط؟ ألم تلاحظي أنك قلت كذا وكذا؟

ويعدد أموراً لا تخطر ببال ليال ولا تعيرها اهتماماً. يتخيل أموراً تعتقد ليال أنه يذكرها فقط لافتعال مشكل.

أحياناً كانت ليال ترد عليه ويعلو صوتها وأحياناً أخرى تصمت، تتجاهل انفعالاته وتهرب إلى النوم. هذا التجاهل كان يزعجه أكثر من أجوبتها اللاذعة. تهرب ليال إلى السرير لا لتنام بل لتسأل نفسها: «هل تغير كامل بعد الزواج أم أنه بالأساس هكذا ولم أعرفه على حقيقته؟». ثم تطرح السؤال إياه واضعة نفسها محل كامل: «هل تغيرت أنا في نظره كما تغير هو في نظري؟ ممكن! هل الزواج هو حقاً مقبرة الحب كما يقال؟ لكننا تزوجنا بعد أن خبرنا الحياة، بعد أن جربناها بحلوها ومرها. كنا ناضجين وقررنا الزواج عن اقتناع كلي، ليس عن نزوة طائشة. تهيأ لنا أننا نعرف بعضنا جيداً وأن ما قمنا به ليس زواجاً تقليدياً عادياً بل لقاء حتمي من صنع القدر. أدخلنا في قرارنا ذاك كل الميتولوجيا والأساطير الغرامية المعروفة عبر التاريخ. ما الذي يحدث لنا ولم يمض بعد سنة واحدة على زواجنا؟».

في البداية ظنت ليال أن الأمور ستتحسن وأن كامل سيغرق في دراسته ويعتاد شيئاً فشيئاً على هذا النمط الجديد من الحياة. لكن الحالة كانت تسوء أكثر فأكثر: شعور ليال بالاختناق يزداد وشعور كامل بتهميشه يزداد. كان الشعوران ينموان معاً: كلما شعرت ليال بطوق جديد يلتف حول عنقها ويشد عليه، كلما شعر كامل بأنها تفلت من بين يديه ويبعد عن حياتها.

تلافياً للوصول إلى جدار مسدود، حاولت ليال أن تصلح الأمور وكان ذلك بابتعادها عن كل أصحابها وعالمها. عاشت معزولة بين بيتها وعملها. بعد فترة على هذه الحال زاد شعورها بالاختناق. بدأت تشيخ بسرعة، تهدل وجهها وحفرت جبهتها التجاعيد العميقة. هل أصلح ذلك الوضع بينها وبين كامل؟

صحيح أن ليال انقطعت عن أصحابها لكنها لم تنقطع عن عملها. لا بل على العكس، غرقت فيه أكثر، بينما كامل لم يباشر بإنجاز الدراسة المعهودة. شعوره بإهمال ليال

له كان يلتهمه من الداخل. أصبح يعيش في دوامة من الفراغ الذي أبعده عن كل نشاط فكري وأصبح همه الوحيد أن يعرف لماذا تبتعد ليال عنه. هي أصبحت تبتعد فعلاً لأن انقطاعها عن عالمها الذي ألفته كل حياتها، وضعها في عزلة وانطوت على ذاتها. ابتعدت بالفعل عن كامل وأصبحت مع ذاتها تدور وتدور في حلقة مفرغة.

تحولا إلى حلقتين مفرغتين يدوران معاً لكن في اتجاهين مختلفين. ليال تدور بصمت وتغرق في ذاتها إلى أن انقطعت حتى عن عملها. أهملت المجلة ودار النشر. أهملت الكتابة واختفت عن الساحة كلياً. احتفظت فقط ببعض الأصدقاء الحميمين ومن بينهم كان وائل، تلتقي بهم من وقت لآخر وأحياناً تخبرهم عن حالها، فيواسونها وأحياناً يشجعونها على العودة إلى ما كانت عليه وأحياناً أخرى يصمتون عاجزين عن أية نصيحة.

أما كامل فكان يقبع في البيت. أحياناً يفاجئ ليال في مكتبها حيث لا يطيل المكوث. ينسحب ويطوف بسيارته في شوارع العاصمة ثم يعود إلى البيت. عجز عن القيام بأي عمل، نخرت عظامه الغيرة وفتت أعصابه الانتظار:

— على الأقل اتصلي وقولي إنك متأخرة. دعيني أشعر بأنك تبالين بوجودي. كان يقول حين تعود ليال إلى البيت.

سؤاله الدائم كان: «ماذا أمثل أنا بالسبة إليك؟ أين موقعي في حياتك...؟». وتصيح ليال: «لا أحد يحدد دور وموقع الآخر. كل واحد يحدد قيمته بنفسه. افرض نفسك وحقق ذاتك في عملك. لماذا تهمل كل شيء وتحصر همك في مراقبتي وانتظاري؟ إنني أشعر بالاختناق». وتتابع بالفرنسيةj'étouffe ألا تفهمني؟

ما كان ليفهم صيحة ليال ولا لماذا تشعر بالاختناق. كان يعتبر أن من ينطبق عليه هذا القول هو هو الذي لا يشعر بالاختناق بل بما هو أصعب. يشعر بالإهمال والإبعاد كأنه غير موجود. أخذ يزور بعض صديقات ليال ليشكو لهن همه. أتت نصائحهن متشابهة، قلن له: «اترك لليال الحرية، لا تخنقها، إنها إنسى عاشت كل حياتها وحدها، سيدة قرارها. إنها معتادة على الحرية، لا تُشعرها بالقيود. إنها طيبة وصريحة جداً، لا تكذب

إطلاقاً. لو أنه يوجد شخص في حياتها لقالت لك ذلك بوضوح، نعرفها جيداً... حاول أن تفهمها».

ما كان يعجبه هذا الكلام، يتوتر لسماعه ويشعر أن صديقات ليال متواطئات معها. هذا ما كان يظهر من بعض حواراته الشجارية مع ليال حيث يقول: «..أما صديقاتك، فما شاء الله! كلهن معقدات ولا يفهمن شيئاً. تقولين لي إنهن مثقفات، خر... على هكذا ثقافة...».

طبعاً في جو كهذا أصبحت العلاقات الجنسية بينهما شبه معدومة تتحرك ضمن آلية هي التالية: ليال تتحاشى تلك العلاقات لأنها ابتعدت عن كامل وما عادت تحبه. كيف نعرف أن الحب بدأ يموت؟ نعرف حين يصبح وجود الآخر ثقيلاً. حين نحب يكون الآخر موجوداً لكن وجوده يتصف بالخفة وهكذا يحلق الحبيبان عالياً، فوق الواقع. حين يصبح لوجود الآخر كثافة وثقل يحط الحب على الأرض، أرض الواقع. في الواقع تتكسر الأقنعة. وكما يقول المثل العربي الشهير: يذوب الثلج و... وتتحول الحياة من أكل عسل إلى أكل خر... حقيقي.

أصبحت ليال إذاً تتحاشى تلك العلاقات وكامل يفسر سلوكها هذا على هواه. كان يرى فيه غالباً أن لليال عشيقاً فتزداد مراقبته لها ويزداد في الوقت نفسه هروبها منه وبالتالي تزداد شكوكه. حين كانت تطول المدة من دون علاقات بينهما، ينفجر قائلاً:

— أأنت من جليد؟ ألا تدركين أنني كائن حي وأنني بحاجة إلى علاقات جنسية كما كل البشر؟ هل تريدين أن أمارس الجنس مع إنسى أخرى أم ماذا؟

كانت تصمت ليال وتتساءل كيف يستطيع الرجل أن يمارس الحب في جو مثل الجو السائد بينها وبين كامل. هي لا تستطيع إطلاقاً. حين كانت تحاول أحياناً لتفادي الشر كان ينتابها القرف وتكره حالها وهذا القرف بدوره كان يزيد من بعدها عن كامل. أما هو فكان يستعيد نوعاً من التوازن بعد العلاقة، فترتاح ليال من تعليقاته.

في هذا الجو الجديد بدأت صورة كامل تتحول في نظر ليال. أصبح يفقد شيئاً فشيئاً كل جاذبية. نشأ مكان الجاذبية ما هو مزعج ومدمر: أصبح وجود كامل يطارد ليال حتى في غيابه. تعليقاته واستياؤه المستمر من كل ما تقوم به جعلاها تعيش عقدة ذنب مستمرة. إن تركته وحده في البيت شعرت بالذنب وإن رافقها إلى أي مكان مع الأصحاب، نغّص حياتها بعد عودتهما. لا يرتاح إلا حين يخرجان وحدهما تلبية لتعبيره: «اتركي حيزاً لحياتنا الخاصة» الذي يردده باستمرار. ليال كانت تهرب من هذا الحيز. لا تريده لأنها ما عادت تحب كامل. سؤال فرض ذاته عليها: أيهما هو كامل؟ هل هو هذا الشخص الذي أعيش معه الآن أم هو الشخص الذي أحببت في فترة المراهقة؟ أيهما كامل الحقيقي؟ للإجابة عن سؤالها لم يخطر ببالها ألا رواية كافكا والتي عنوانها «التحول». في كتاب كافكا كان المتحول يعي تحوله أما كامل فلم يعي تحوله وأسقط كل شيء على ليال. ربما هي أيضاً مسؤولة وتحولت من حال إلى حال. لكنها كانت تعي أنها تتحول. حين يقول لها: «أصبحت كتمثال من رخام بارد، لا حياة فيه» كانت تعرف ذلك تماماً. كانت تعي أنها أصبحت فعلاً من دون حياة.

ثابرت ليال خلال كل ذلك الوقت على الاتصال بأخيها وأمها في باريس لكنها لم تخبرهما عن وضعها. قرابة عيدي الميلاد ورأس السنة، قالت لأمها: «سآتي إلى باريس لتمضية الأعياد معكم». حين أقفلت الخط سألت كامل: «هل تذهب معي؟» وأتى جوابه سريعاً: «لو تودين أن أذهب معك لقلت: سنأتي لتمضية...». كانت ليال فعلاً لا ترغب في أن يرافقها كامل. هي بحاجة أن تستريح لمدة قصيرة وترفع عن عنقها الأطواق التي تراكمت مع الوقت. كامل كان يود أن يرافقها، لكنه كابر ورفض وهي لم تلح. ليلة سفرها قال: «سأذهب إلى الضيعة لقد اشتقت إلى الأصدقاء، أصدقائي أنا».

حين وطأت قدما ليال سلم الطائرة، بدأت تشعر بالخفة تتسرب إلى جسدها وكل كيانها. إنها وحدها! أسعدها هذا الشعور الذي حوّلها، حين وصلت إلى بيت أهلها في باريس، إلى طائر من دون ثقل. فرح بها الجميع وسألها جهاد لماذا لم يأت معها كامل. أجابت بسرعة بأنه مشغول وغيرت الموضوع. أما أمها فكانت تنظر إليها وتراقبها بصمت. حين اختلت بها بعد يومين سألتها: «ليال، لا أرى الفرح في عينيك كما رأيته حين زرتنا السنة الماضية، ما القصة؟ هل أنت سعيدة مع كامل؟».

— كل شيء على ما يرام مع كامل. لكنني متعبة بسبب العمل. لم تخبر أمها عن الجحيم الذي تعيش فيه. لكن أمها أصرت:

— ليال، أرى أنك كبرت أكثر من عشر سنوات في هذا السنة. ألم تري نفسك في المرآة؟ ما هذه التجاعيد التي حفرت وجهك فجأة؟ ما هذا الترهل؟ هل يعقل أن كل ذلك قد حصل في زمن قصير؟ منذ آخر الصيف؟

أصرت ليال بدورها على إخفاء الواقع الذي تعيش فيه. حين تركتها أمها، ذهبت إلى المرآة تسألها. بدا ترهل وجهها واضحاً وبدانتها أكثر وضوحاً. لكنها قررت أن تنسى كل ما تركت وراءها لتعيش أياماً سعيدة مع أولاد أخيها الذين فرحوا جداً بقدومها، وبخاصة ليال الصغيرة التي أصبحت ترافق عمتها في كل تحركاتها وتعلقت بها جداً. يوم رحيل ليال بكت ليال الصغيرة وتمنت لو يسمح لها والدها بمرافقة عمتها. أجاب والدها: «سأسمح لك بالذهاب إلى لبنان خلال عطلة الثلج» (vacances de neige). تلك العطلة لم تكن بعيدة لأنها تقع، عادة، في شهر شباط.

خلال غياب ليال، لم يذهب كامل إلى الضيعة. حين كلمته هاتفياً ليلة عيد الميلاد، كذب وقال إنه في الضيعة. طلبته ليال على الخط الخليوي لأنها تعلم أنه ليس في بيروت. بقي في البيت يجتر غضبه وحقده ويحاول اتخاذ قرارات حاسمة. لم يستطع فهم سفر ليال بمفردها إلا أنه يوجد لديها عشيق في باريس. هل يترك كل شيء ويعود إلى فرنسا، إلى عمله في ليون، وينسى ليال؟ يعز عليه أن تنتهي قصة حبه هكذا. تلك القصة التي تحولت في رأسه، في فترة معينة، إلى أسطورة إذ إنه هوّم حولها كثيراً. يبدو أنه ولكثرة ما فعل ذلك،

خنقها وخنق معها ليال التي كانت تقول له دائماً: «ما عدنا مراهقين، لقد كبرنا». ربما كان يشعر في داخله بأنه ما زال مراهقاً ويجيبها: «ليس في الحب أعمار». خلال سفرها تساءل: «ما معنى أننا ما عدنا مراهقين؟ هل هذا يعني، في عرفها، أن يسافر كل واحد منا وحده ويترك الآخر للوحدة والوحشة؟ لا، لن أغفر لها إهمالها لي هكذا».

حين عادت كان كامل لا يزال مستاءً من سفرها لكنه حاول أن يخفي حالته إذ حضّر لها عشاءً تحبه وأتاها بالورود. حاول استعادة ما لا يمكن استعادته. كان يحلم ربما. تناولا العشاء معاً وأخبرته ليال عن سفرتها وشكرته على الورود محاولة أن تسايره. في أعماقها كانت تشعر بالذنب لأنها تركته وحده في الأعياد وبخاصة أن تلك الفترة هي ذكرى مرور سنة على زواجهما.

بعد العشاء، دخلا غرفة النوم وحاولا. كان الاثنان يمثلان. الرجل يستطيع أن يمارس الجنس لمجرد أنه اهتاج. إنها عنده عملية إفراغ بعد امتلاء. أما الإنسى فلا! على الأقل هذا ما كانت ليال مقتنعة به لأنها لم تشعر بأي شيء وهما يمارسان «الحب»؟. على العكس شعرت كأنها تقوم بنوع من الأشغال الشاقة. صحيح أنها قد تحولت إلى تمثال من رخام بارد! صحيح، لأنها ما عادت تحبه. لماذا لا تبوح له بذلك وتنهي الموضوع؟ لكن لماذا لا يشعر هو به؟ ألا يفهم الرجل أن رفض الإنسى لممارسة الجنس معه، يعني أنها لا تحبه؟ كانت تحار كيف يسألها كامل، بعد شجار ما بينهما، إن لا زالت تحبه. لكن لماذا صعب عليها أن تصارحه بحقيقة مشاعرها؟ ربما كانت تراهن أن الأمور ستنهار من تلقائها حين تنتهي السنة السابعة ويعود كامل إلى فرنسا.

لم يستمر الوضع مستقراً إلى نهاية السنة. كانت ليال قد بدأت تفكر أن الزواج خدعة لا تستمر إلا لإنقاذ الأولاد. في حالتها مع كامل لا ضرورة للاستمرار في الخدعة لأنه لا وجود لمن هو بحاجة لإنقاذ سوى هي وهو، إنقاذهما من وضع أصبح عبئاً عليها وعليه.

عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل سفر ليال؛ كل منهما غرق في عالمه الداخلي، في تأويلاته لسلوك الآخر. اتصل جهاد بأخته وأخبرها أنه سيأتي مع ليال الصغيرة لتمضية عطلة الشتاء معها ومع كامل اللذين أصبحا بعيدين عن بعضهما البعض.

أتى جهاد وابنته. فرحت بهما ليال وتفرغت كلياً لهما: أسندت إدارة العمل إلى بعض الأصدقاء وتحررت من عبء الذهاب كل يوم إلى المكتب. إضافة إلى ذلك أصبحت هي التي تحضر الطعام في البيت وفقاً لرغبات أخيها وابنته التي ما كانت ترفض لها طلباً. تحولت إلى «ست بيت» بكل معنى الكلمة.

هذا التغير في سلوك ليال لم يرق لكامل كثيراً وتفادياً للمشاكل، قال لها إنه سيتركها لفترة مع أخيها ويذهب إلى الضيعة: «أرى أنك مشغولة جداً بهما لدرجة أنني ما عدتُ موجوداً، ثم إنني لأول مرة منذ تزوجنا أجدك تهتمين بالطبخ وغيره من أعمال البيت. كنت تتكلين في تلك الأمور على الخادمة. هذا يعني الكثير. لا أريد مشاكل بحضور جهاد الذي أحترم. سأغيب مدة إقامتهما هنا لأتركك تتصرفين كلياً لخدمتهما».

حاولت ليال أن تثنيه عن قراره، لكنه أصر على موقفه. فاقترحت عليه أن ينتقل مؤقتاً إلى مكتبها الذي هو بيت في الوقت نفسه. قبل اقتراحها لأنه لم يكن راغباً في الذهاب إلى الضيعة والتعرض للأسئلة وغيرها. قبل الاقتراح ونفذه فوراً إذ انتقل إلى مكتب ليال ومعه بعض أمتعته.

— على كل حال ستأتي لتناول الطعام معنا، وأنا سأحاول المبيت في المكتب معك. قالت له ليال قبل أن ينصرف.

حين سألها جهاد عن زوجها بررت غيابه بأنه مشغول بإنجاز تلك الدراسة المزعومة التي لم يكن قد بدأ بها حتى ذلك الوقت.

ترك كامل البيت واستراحت ليال من ثقل نظراته إليها. لكنها كانت تتصل به قبل الغداء أو العشاء وتدعوه إلى الطعام. كان أحياناً يلبي الدعوة وأحياناً يرفض وليال لا تصر. حين يأتي في المساء، كان يقف بعد تناول العشاء بقليل ليقول: «هيا ليال سنذهب». يقول ذلك بصيغة الأمر التي لا تروق لليال. لكنها كانت أحياناً تلبي رغبته وترافقه إلى الشقة حيث يناما جنباً إلى جنب كأنهما غريبان.

في إحدى الليالي وقبل أن يغط كل منهما في النوم ويغرق في أحلامه وكوابيسه، تنحنح كامل وقال: «إذا كانت هذه الشقة للعمل، فلماذا يوجد فيها غرفة نوم؟».

— هذه الشقة هي مكان عملي وبيتي في الوقت نفسه. اشتراها لي والدي كي أشعر باستقلاليتي. رحمه الله كم كان واعياً وعادلاً.

— هل كنت تنامين هنا؟

— أحياناً، نعم.

— طبعاً حين يكون معك رجل.

— ....

— لماذا تصمتين؟ هل لأنني على حق؟

— لا أرد على تفاهاتك.

— تفاهات نعم! ... وهل يعقل أن يعلق لوحة تمثل الأهرامات المصرية وبعضاً من الجمال في غرفة النوم؟ هل كان لك عشيق مصري؟

لم تعد ليال تتحمل. تلك اللوحة هي هدية من والدها وقد علقتها في غرفة نومها بعد وفاة والدها كي تبقى لها وحدها ولا يراها أحد سواها. تلك اللوحة كانت غالية جداً على قلبها وقد تعلقت بها أكثر بعد وفاة والدها. لم تعد تتحمل وصاحت بأعلى صوتها:

— اصمت يا... ولا تتلفظ بكلمة واحدة حول صاحب اللوحة.

— لماذا؟ هل صاحبها كان مميزاً؟

— أكثر مما تتصور. ولكي ترتاح وأرتاح من تعليقاتك السخيفة وأقفل الموضوع لأنني سئمت من أسئلتك، إنها تذكار من والدي يا غبي.

— إن صدق كلامك أطلب المعذرة.

ساد الصمت بينهما. هو أسف لتسرعه. هي ارتاحت لصمته، استفادت منه لتقول: «تصبح على خير» كي تخلد إلى النوم قبل أن يحاول مصالحتها وما يتبع المصالحة من أمور أصبحت تمجُّها.

بعد رحيل جهاد وابنته، عاد كامل إلى العيش مع ليال وعادت ليال إلى عملها وقررت أن تمارس حياتها بكل حرية كما كانت تمارسها من قبل. شعرت بأن ابتعادها عن أصدقائها وعالمها، بعد الزواج، رماها في عزلة عقيمة ما عادت تتحملها لأن الزواج لم يقدم لها سوى النقار والنق وقلة الثقة و... اتخذت قرارها وحاولت إقناع كامل بأن يقوم بما كان مصمماً على القيام به خلال عطلة السنة السابعة:

— انسني للحظة واهتم بأمورك. حقِّق نفسك، هذا هو الأهم. أنا سأحاول تحقيق ذاتي في العمل. فليغرق كل منا في نشاطه وفي ما خطط لنفسه. ربما...

— وأين تصبح العلاقة؟ العلاقة هي ما هو موجود بين اثنين l'entre deux.

— قبل أن ننقذ ما هو بين الاثنين فلينقذ كل واحد منا نفسه أولاً، إن أُنقذت العلاقة فهذا جيد وإن لم تُنقذ فمعنى ذلك أنها غير سليمة.

أصبحا على موجتين مختلفتين: هو مع إنقاذ العلاقة وهي مع إنقاذ الذات. العلاقة بالنسبة إليه كانت الأساس وبالنسبة إليها كانت نتيجة.

أصبح الواقع يزداد سوءاً بعد أن قررت ليال استئناف حياتها الطبيعية. من ضمن هذه الحياة الطبيعية تلبية الدعوات إلى مؤتمرات أو ندوات حول مواضيع متعددة وبخاصة المواضيع التي تتعلق بشؤون الإنسى والتي تدعى إليها ليال بصفتها صاحبة مجلة متخصصة بالقول الإنسوي.

لم يطل الوقت حتى دعيت ليال إلى ندوة في ألمانيا حول العنف ضد الإنسى. لم تتردد في تلبيتها من دون أن تعلم كامل. لكن ليلة سفرها قالت له:

— أسافر غداً إلى ألمانيا للمشاركة في ندوة...

— ممن الدعوة؟

— ممن يسمونهم الخضر أو حزب البيئة. والدعوة موجهة من قبل السيدة... وهي نائب في البرلمان الألماني.

— وكم يدوم المؤتمر؟

— ربما أسبوعاً.

أُقفل الموضوع وغادرت ليال في اليوم التالي.

كانت ندوة جوالة إذ عقد جزءٌ منها في مدينة هامبورغ وجزء عقد في برلين، والجزء الأخير عقد مجدداً في هامبورغ حيث اختتمت الندوة.

كانت ليال تعلم أن رامي يعيش في هامبورغ وقد أعطاها عنوانه ورقم هاتفه حين اتصل بها إلى بيروت قبل زواجها بأيام قليلة. عنوانه ورقم هاتفه معها في المفكرة الصغيرة الموجودة دائماً في محفظة يدها. هل تتصل به؟ أبعدته عن ذهنها في البداية وتابعت الندوة. لكن حين رجعوا إلى هامبورغ من جديد عاد رامي إلى ذهنها. عاد بهدوء لم يزعجها. شعرت بأنها لا تكرهه وأصبح بإمكانها رؤيته كصديق عادي. لم تتردد كثيراً، رفعت سماعة الهاتف في غرفتها في الفندق، طلبت الرقم وانتظرت. لم يطل انتظارها، رد عليها صوت رجل يتكلم الألمانية لكنها ألمانية مكسرة. لاحظت ذلك على الرغم من أنها لا تعرف تلك اللغة. ارتبكت للحظة لكنها سألت بالفرنسية: «هل هنا بيت السيد رامي...؟». أتاها الجواب بلغة فرنسية جيدة:

— نعم. من يطلبه؟

— قل له صديقة قديمة.

— لحظة إذا أردت.

انتظرت قليلاً وسمعت صوته:

— ألو، من؟
— ألو أنا...قبل أن تلفظ اسمها صاح رامي:
— ليال! أين أنت؟
— أنا هنا في هامبورغ، أشارك في ندوة حول العنف ضد الإنسى.
— أين أنت الآن؟ أعطني عنوانك.
أعطته ليال اسم الفندق فقال: «إنني آتٍ، مسافة الطريق فقط».

بعد أقل من نصف ساعة، رن جرس الهاتف في غرفة ليال. كان رامي في مكتب الاستقبال: «هل أصعد؟» سألها.
— لا، إنني آتية إلى الهول.
رأته جالساً على إحدى الكنبات في صالون الفندق حين خرجت من المصعد. رأته قبل أن يراها. قالت بصمت: «ما زال يحافظ على وسامته والشيب زاده وسامة». حين اقتربت، رآها، نهض من مكانه وتوجه نحوها. تابعت بصمت: «... وأناقته أيضاً على الرغم من بدانته الجديدة».
— رامي، لم تتغير، ما زلت جميلاً. قالت بالفرنسية.
— وأنت ليال أجمل من السابق. قالها بالعربية.

تعانقا. ضمها إلى صدره وقال: «آه كم حلمت بهذه اللحظة!».
حين لامس جسده جسدها، غاب عن نظرها ولم تفهم بأية آلية خرج من ذاكرتها ذلك الصندوق الزجاجي الذي استرعى انتباهها في المعرض الوطني في لندن منذ أكثر من عشرين سنة. غاب رامي وكل وسامته ليحل مكانه ذلك الصندوق الزجاجي، لكنه هذه المرة، صندوق مصدع. رأته وقد بدأ الهواء يتسرب إلى داخله من تلك التصدعات الرفيعة على سطحه. رأت الجسد المجفف في داخله وقد بدأ يتفتت، يتفتت ببطء كبير. وسمعت صوت رامي كأنه آت من بعيد: «هيا سنذهب إلى المطعم، نشرب كأساً ونتناول العشاء».

تركا الفندق معاً. كانت سيارة رامي تنتظر في الخارج وفي داخلها السائق. جلسا في المقعد الخلفي، لفظ رامي اسماً فأدار السائق محرك السيارة وانطلقوا ورامي يردد كل

الطريق: «مش معقول، إنها أجمل مفاجأة حصلت لي في حياتي». أما ليال فما كانت ترى إلا التفتت البطيء لذلك الجسد داخل الصندوق الزجاجي. حتى أن صوت رامي بالقرب منها كان يخرج من ذلك الصندوق. لم تدرك ليال أن رامي قد مات في داخلها، قد انتهى فعلاً بالنسبة إليها، إلا في تلك اللحظات. هو يتكلم ويعبر عن مشاعره وأشواقه و... وهي شاردة تفكر بما أصابها. يبدو أن الجسد وبخاصة جسد الإنسى لا يسامح. جرحه لا يشفى، يحمل دائماً أثر الخيانة له.il garde toujours des séquelles .

حاول رامي أثناء العشاء أن يستعيد الماضي بينهما. حاول أن يصف الجنة التي كان يعيش فيها قبل سقوطه في التجربة. حاول كأنه يطلب المغفرة علّ الغفران أصبح سهلاً مع مرور السنين وبخاصة أنه، بذكائه الحاد، قد لاحظ أن ليال غير سعيدة. لاحظ ذلك من بعض تنهداتها العميقة المتقطعة والمتكررة كأن جسدها أصبح بحاجة إليها. في علم النفس تسمى هذه الحالةdyspnée وهي دلالة على كبت ومعاناة. قال:

— ليال، هل؟ صمت لحظة ثم تابع بتلعثم ملحوظ: ليال هل نعود...

— لا تكمل، أرجوك. ما كان بيننا أصبح من الماضي الذي لن يعود.

بعد صمت قصير قال: «هل أنت سعيدة في حياتك؟».

— نعم. قالت بكل جدية كي تقفل الموضوع.

— لقد عدت إلى حبك الأول، أنت محظوظة. أما أنا ولسوء حظي، فأنت حبي الأول و... الأخير.

— فلنقفل الموضوع. أنا أغلقت الباب على الماضي نهائياً. فلنعد إلى الحاضر. أين أصبحت؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تعود إلى لبنان حيث أهلك وعالمك و... لماذا لم تتزوج وتنجب؟ أبوك كان متلهفاً على حفيد أو حفيدة، لا بل على دزينة منهما.

— لدي ابنة هي الآن في العاشرة من عمرها. وقبل أن يتابع سألته:

— أنت متزوج؟ متى تزوجت؟ أين زوجتك؟ لماذا لم تأت معك؟

— لم أتزوج. لقد ساكنت إنسى ألمانية وأنجبت مني طفلة. ولأنني رفضت الزواج بها، أخذت الطفلة ورحلت. كانت الطفلة قد بلغت السنة الوحدة حين تركتني أمها وأبعدتها

عني. في تلك الفترة تعلقت بالطفلة كثيراً واعترفت بها، لكن الأم لم تكتفِ بذلك الاعتراف. أصرت على الزواج.

— لماذا رفضت الزواج، ألم تحبها؟ هنا لاحت في ذهنها مقولة رامي الشهيرة حول الماكينة الراغبة، وتابعت: أم أنها كانت من ضحايا الماكينة الراغبة التي اسمها رامي؟

— لا، بل انتهت القصة بمأساة. قتلت الأم بحادث سيارة بعد سنتين.

— والطفلة؟

— تعيش معي، وهي الآن صبية صغيرة. إنها رائعة الجمال وتملأ حياتي بالنور.

— هل عرف والداك بالأمر؟

— أخفيت الأمر عنهما لفترة، فترة وجود ليال مع أمها، لقد أسميتها ليال، لكن بعد موت أمها وحين أصبحت تعيش معي أخبرت أهلي. يحبانها جداً وتمضي عندهما كل عطلة. هما يزورانني باستمرار. يصران علي كي أتزوج وأنجب حفيداً ذكراً، تعرفين العقلية. والدي يحلم بوريث يحمل اسمه. وأمي استاءت لأنني لم أعطِ اسمها لابنتي. لكن بعد أن فقدتك وقطعت الأمل من عودتك لم يبق لي سوى حرية الاحتفاظ بالاسم فقط ومنحته لأعز ما عندي. أما بالنسبة للعمل، فأنا أتنقل من بلد إلى بلد لمتابعة مشاريع والدي الواسعة. وتابع ليخبرها عن سفره وعمله و...

كانت ليال صامتة تسمعه ولا تراه كأنها تسمع قصة شخص لا تعرفه. فقط حين سمعته يلفظ اسمها تحرك في داخلها شعور غامض وتراءى لها رامي للحظة ثم غاب داخل الصندوق الزجاجي. تابع رامي:

— أما أنت فأعرف كل شيء عنك. أعرفه من جهاد الذي لا يزال صديقي وأتصل به باستمرار وقد زارني مرات عديدة هنا وزرته في باريس وتعرفت إلى أولاده... أحسده فعلاً على عائلته واتفاقه مع زوجته... نشاطك أيضاً أتابعه وأقرأ مجلتك ولدي كل الأعداد. قبل أن تسأله كيف يقرأها وهي لا توزع في ألمانيا، بل تصل فقط إلى إحدى المكتبات التي تهتم بالكتب العربية في باريس، تابع: أوصيت مكتبة... في باريس أن تحفظ لي كل الأعداد وهكذا كلما مررت في باريس، وأمر فيها باستمرار، أجلب مجلتك وأقرأ كل ما فيها.

نظرت ليال إلى ساعتها، كانت قد قاربت منتصف الليل.

— هيا، أوصلني إلى الفندق.

— كما تريدين. غداً نلتقي ونمضي النهار معاً وأعرّفك إلى ابنتي.

— لا، لا أستطيع أن أكون معك إلا بعد الظهر. في الصباح سأتابع أعمال الندوة.

— اتركي الندوة، دعيني أتمتع بوجودك هنا. دعيني أشبع نظري على الأقل، منك.

— غداً سيكون دوري في الكلام وقد حضرت مداخلة صغيرة. لا أريد أن أفوت فرصة إبداء رأيي حول كل ما سمعته في هذه الندوة.

— إذاً سأحضر الاجتماع الصباحي، أستمع إليك ونرحل معاً. أين تعقد الندوة؟

أعطته ليال العنوان. «إلى الغد». قالا معاً قبل أن يفترقا وقد رافقها رامي إلى باب غرفتها.

أقفلت ليال باب غرفتها، خلعت ثيابها واستلقت على السرير. لم تستطع النوم، كانت تفكر بذلك الترابط بين رامي الذي رأته اليوم بعد أكثر من عشرين سنة وبين ذلك الصندوق الزجاجي الذي يحفظ في داخله جسداً يابساً. يبدو أن انفصالها عن رامي قد تم بغير الطريقة التي يتم بها الانفصال عادة بين شخصين في الحالات العادية. في الحالات العادية تحفظ ذاكرتنا عن الآخر صورته كما كانت لحظة ابتعادنا عنه، ولهذا السبب نفاجأ حين نراه بعد سنين طويلة، كما حصل مع ليال حين التقت كامل في مطار أورلي. أما ما حصل مع ليال حين انفصلت عن رامي فهو أنها أماتت رامي قبل أن تقذف بصورته إلى الذاكرة. من هنا دخل رامي ذاكرتها أو الحيز الذي احتله من ذاكرتها وهو ميت وحفظ فيها تماماً كما حفظ ذلك الجسد اليابس داخل الصندوق الزجاجي: «لهذا السبب، قالت ليال لنفسها، حين رأيت رامي، انفتح باب ذلك الركن من ذاكرتي، ذلك الركن الذي كان رامي قابعاً فيه منذ سنين وحين انفتح الباب أخذ الهواء يتسرب إلى الداخل وبدأت عملية التفتت....».

لم تتابع ليال التحليل إذ غلبها النعاس. في الصباح، حين وصلت إلى «هول» الفندق، فوجئت برامي ينتظرها. أقلها بسيارته إلى مكان انعقاد الندوة. جلس بين الحضور، استمع إليها وصفق لها. في آخر الجلسة دعاها إلى الغداء في بيته. وافقت على دعوته وانتقلا معاً إلى أحد الأحياء الفخمة في هامبورغ.

البيت الذي يسكنه رامي هو فيلا كبيرة مع حديقة فسيحة يسيجها سور عالٍ تغطيه الأشجار الوارفة. دخلا بالسيارة من باب حديدي. أوقف رامي السيارة أمام المدخل مباشرة ودعاها للترجل. كان في استقبالهما رجل متوسط العمر، أسود اللون. حين رحب بها باللغة الفرنسية عرفته ليال. إنه الشخص الذي رد على الهاتف حين طلبت بيت رامي. «أقدم لك يورو، هو سنغالي الجنسية ويهتم بكل أمور البيت». قال رامي.

لم تفاجأ ليال بفخامة بيت رامي، تعرف ذلك عنه وعن أهله. تذكرت فخامة بيتها السابق في باريس، لكنها أبعدت هذه الذكرى عن ذهنها بسرعة وأشادت بجمال البيت وبهدوء الألوان التي تضفي على المكان جواً حميماً. لكن رامي قال: «أفضل مكان بالنسبة إلي هو مكتبي حيث أمضي أغلب أوقاتي حين أكون في البيت، سنزوره أولاً».

دخلا المكتب. كان فعلاً يوحي بالراحة. مساحته كبيرة. تكسو جدرانه المكتبات المليئة بالكتب والمجلات. فيه حاسوب وتلفزيون وفاكس وستيريو وكل ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة. فرشه من الكنبات المصنوعة من الجلد الطري والذي يوحي بالاسترخاء. على المكتب أكثر من آلة هاتف وفي إحدى زواياه صورة صبية صغيرة: «إنها ابنته» قالت لنفسها. في الوقت نفسه رفع رامي الصورة بيده وقال: «هذه هي ليال، انظري كم هي جميلة».

الصبية ليال هي فعلاً جميلة. حين نظرت ليال إلى الصورة، ضحكت. سألها رامي عن سبب ضحكها فأجابت: «تعلم يا رامي، لو كان لدي ابنة مثل ليال هذه لربيتها بشكل يجعلها تضع قدماً في الشرق وقدماً في الغرب صانعة من ساقيها جسراً يعبر تحته نهر من الرجال مطأطئي الرؤوس».

— ما هذا الخيال ولماذا أتتك هذه الفكرة؟

— فقط لأن ليال جميلة جداً.

— يعني؟

— يعني حرام أن تذبل هذه الابتسامة، حرام أن يمسها رجل. ولإقفال الموضوع سألت: «أين هي الآن؟».

— في المدرسة. ستعود بعد الظهر. سترينها. إنها أجمل من الصورة ولهذا السبب أسميتها ليال.

هو أيضاً أراد إقفال الموضوع. لم يعلق على ما قالته. أدرك مدى خيبة ليال من الرجال.

تناولا الغداء وانتقلا من جديد إلى المكتب حيث قدمت لهما القهوة. لم يطل مكوثهما معاً إذ أتت ابنة رامي. دخلت عليهما وتوجهت مباشرة نحو والدها الذي طوقته بذراعيها وهي تقبله من دون أن تنتبه إلى وجود ليال. حين رأتها انزعجت من وجودها وقالت لوالدها: «لديك زوار، سأنسحب وأنتظرك في غرفتي. لا تتأخر».

— لا تذهبي. السيدة ليست غريبة، إنها صديقة عزيزة. اسمها هي أيضاً ليال وكانت تنتظرك. هيا اقتربي منها وسلمي عليها.

ترددت الصغيرة قليلاً فاقتربت منها ليال، انحنت عليها وقبلتها على وجنتيها. أخذتها من يدها، أجلستها بالقرب منها وحاولت أن تسألها عن المدرسة وغيره. كانت الصغيرة حذرة وتجيب عن أسئلة ليال باقتضاب كبير. أما رامي فأخذ ينظر إليهما ويتمنى لو تعود ليال إليه ليعيشا معاً ومع ليال الصغيرة. لكن ليال أخرجته من أحلامه حين قالت: «يمكنني الآن الذهاب. أتركك مع ابنتك».

— لا، أرجوك، ابنتي ستذهب إلى غرفتها. لديها دروس وعليها الانتهاء منها قبل العشاء. أراها لاحقاً.

تركتهما الصغيرة وعادت إلى عالمها بالقرب من مربيتها. أما هما فصمتا وقتاً كأنه لم يعد من كلام بينهما. ثقل الجو عليهما. لكن ليال أنقذت الوضع حين قالت: «إنها، كما قلت، رائعة. على الأقل تجد فيها معنى للحياة».

— إنها كل حياتي وكل ما تبقى لي من فرح و...

طرق الباب، دخل السنغالي يورو وقال: «هناك شاب في الخارج يريد مقابلتك ليسلمك رسالة».

— خذ الرسالة منه.

— أصر على تسليمها باليد.

نهضت ليال من مكانها: «أتركك مع زوارك، فليوصلني السائق إلى الفندق. علي حزم أمتعتي لأنني أرحل غداً».

«انتظري قليلاً» سمعته يقول من دون أن تراه. كان تفتت الجسد الجاف داخل الصندوق الزجاجي قد شارف على النهاية. «انتظري أنت لست غريبة، أنت أغلى شخص على قلبي». كانت ليال تسمع كلمات رامي لكنها تشعر بأنها آتية من فراغ. لقد تحول ذلك الجسد اليابس إلى حفنة من رماد. سمعته أيضاً يقول: «دع الشاب يدخل».

كانت ليال تهم بالخروج حين مثل أمامها رامي وهو في العشرين من عمره. رامي بكل تفاصيل وجهه وطوله وعرضه وحتى بتلك الحركة للحاجبين حين يرى أحداً فجأة. نظرت إلى الوراء ولم تر أحداً. «هل رامي كطائر الفينيق يولد من رماده؟ أيهما هو؟ هل هو هذا الشاب الذي أراه أمامي أم هو تلك الحفنة من الرماد داخل الصندوق الزجاجي؟».

دخل الشاب وتقدم نحو رامي الذي ما عادت ليال تراه. كانت تخرج من الباب حين سمعت الشاب يقول بالفرنسية:

— اسمي رياض... ووالدتي دومنيك كلفتني أن أوصل إليك هذه الرسالة.

نظرت إليه ليال قبل أن تقفل الباب وراءها وقالت لنفسها: «ها هي الخيانة وقد أصبحت جسداً». نادت يورو وطلبت منه أن يوصلها السائق إلى الفندق.

حين خرجت ليال كان رامي مجمداً مكانه لا يستوعب ماذا يجري ولا يفهم ماذا يسمع. تجمد ولم يمد يده لاستلام الرسالة وهو ينظر إلى الشاب الذي اسمه رياض، ينظر إليه كمن يرى صورة قديمة له. حين ننظر إلى صورنا القديمة، نتعرف إلى ذواتنا دائماً لكن لا أحد منا يعرف كيف سيصبح بعد عشرين سنة. لهذا السبب تعرف رامي إلى صورته القديمة، ورياض لم يتعرف إلى الصورة التي سيصبح عليها بعد عشرين سنة. عرف رامي ابنه إذ لم يكن من مجال للشك. مد يديه وقال كأنه يهذي: «رياض... ابني... اقترب... لا تخف». أخذ الرسالة منه، رماها على المكتب وضمه إلى صدره. لم يفاجأ الشاب كثيراً. أمه قد أخبرته. حين ضرب المرض كل جسدها أخبرته كي يجد أباه بعد موتها.

بكى رامي حين قرأ الرسالة، بينما كان رياض ينظر إليه وهو يتخبط بين شعورين متناقضين. هذا الشخص الذي يبكي الآن أمامه هو والده الذي أهمله ورماه ولم يعترف به. هل سيعترف به الآن؟ وإن اعترف به فهل سيغفر هو له؟ أنهى رامي القراءة، توجه إلى رياض: «سنذهب الآن إلى باريس، إلى حيث أمك».

— إنها مريضة جداً.

— أعرف، لقد قرأت كل الرسالة. سننقلها إلى المستشفى. ربما استطعنا إنقاذها.

عادت ليال إلى غرفتها، وضبت أغراضها وفي صبيحة اليوم التالي أقلعت بها الطائرة إلى بيروت. في الطائرة كانت تفكر أنه يوجد الآن في ذاكرتها صورتان لرامي؛ صورة ذلك الشاب الوسيم الذي أحبت وصورته حين كرهته وحولته إلى جسد يابس قبل أن تلغيه نهائياً وتحوله إلى حفنة من رماد لا تعني لها شيئاً. تساءلت: «أيهما هو؟ هل هو الذي أحببت أم هو الذي كرهت؟». ثم عادت إلى واقعها وقالت «هناك أيضاً صورتان لكامل واحدة في الذاكرة والثانية في الواقع. تحفظ الذاكرة صورة ذلك الشاب الجذاب الذي أضرم النار في كل كياني والواقع يقدم صورة مختلفة تماماً هي أيضاً ستصبح في الذاكرة ربما جثة هامدة».

عادت إلى بيروت وسألها كامل: «هل اتصلت برامي في ألمانيا؟». كانت ليال قد أخبرته قبل زواجهما عن اتصال رامي بها من ألمانيا.

— لا، لم أتصل به.

أجابت من دون أن تعير اهتماماً لما سيفكر به. إن صدَّق كلامها أو لم يصدقه فالأمر سيان عندها. لكنها كذبت لأنها ما عادت قادرة على تحمل أسئلته وتعليقاته.

قاربت السنة المدرسية على النهاية وقرر جهاد أن يعود مع عائلته لتمضية فصل الصيف في لبنان. حين عادوا انتقلت ليال مع كامل إلى شقتها. أقفلت مكتبها طيلة الصيف وعاشت مع كامل في تلك الشقة حيث الواقع لم يتغير عما كان عليه في فصل الشتاء خلال زيارة جهاد الأولى إلى بيروت. أصبحت ليال تمضي وقتها في البيت الكبير مع بيت أخيها وتعود أحياناً إلى شقتها وأحياناً لا تعود. أحياناً يرافقها كامل وأحياناً لا يرافقها. كانت تتصرف بكل حرية وبحسب ما ترغب لأنها أدركت وشعرت بأن علاقتها بكامل قد انتهت ولم يبق سوى عملية الإخراج لهذه النهاية. لم تستعجل الأمر وتركت له اتخاذ القرار، القرار بالطلاق. تركت له إمكانية ممارسة ذكورته. «إن لم يفعل فلدي كل الوقت لإقامة الدعوى. سأنتظر رحيله أولاً».

عاد جهاد مع أبنائه الأربعة. فارس كان قد أنهى دراسة إدارة الأعمال والمعلوماتية والحاسوب وما إلى ذلك. هلا كانت قد حصلت على إجازة في الأدب الفرنسي. رائد كان في السنة الأولى في كلية الطب وليال كانت قد أنهت المرحلة الثانوية وتريد التخصص في علم النفس كعمتها ليال. حنان بقيت هي هي الأم المثالية التي تحضن أولادها وتهتم بزوجها ولا تترك لحماتها مجالاً للتذمر. أما الست هلا فقد شاخت، لكنها لا تزال تحافظ على جمالها وأناقتها وحبها للحياة المرهفة.

عادوا وامتلأ البيت بالحركة وجهاد يردد: «سنعيد الحياة إلى هذا البيت. سنبقى هنا». هذا الكلام أفرح قلب ليال التي طالما تمنت عودتهم. لم تحب إطلاقاً العيش في الغربة ولا

تتمناه لأحد. عادوا وعادت معهم الحيوية وبدأ الناس يزورونهم كما كانوا يفعلون في حياة الشيخ فارس. عادت الحياة أيضاً إلى القصر في الضيعة الذي قام جهاد بصيانته وإعادة حدائقه كما كانت في السابق وحيث أمضى قسماً من الصيف برفقة ابنته ليال وعمتها اللتين كانتا الأكثر تعلقاً بالضيعة.

من بين زوار البيت في بيروت، والذين هم أصدقاء جهاد، كان وائل الذي أصبح يأتي باستمرار وتدور معه النقاشات والحوارات وتطول السهرات التي لا تروق لكامل الذي حاول غالباً أن يتلافاها. يتركهم ويذهب إلى شقة ليال. تبقى هي وأحياناً لا تلاحظ انسحابه.

من بين الأصدقاء، أصدقاء جهاد، كان رامي أيضاً. لكنه لم يزرهم بل اتصل هاتفياً بجهاد وأخبره أنه في لبنان مع ولديه وأنه يود لو يستطيع زيارته لكنه لا يجرؤ: «لا أجرؤ على مواجهة ليال». لكن جهاد شجعه قائلاً: «لقد انتهى الموضوع منذ زمن بعيد، وليال قد تزوجت وهي الآن تعيش سعيدة مع زوجها».

— أفضل أن نلتقي في أحد المقاهي.

التقيا وعلم منه كل ما حصل لدومنيك: «أصرت أولاً على تسمية طفلها رياض لأنها حين رأت الشبه بينه وبيني تأكدت أنه ابني. بعد أن أعالته كل هذه السنين بواسطة ما كانت تتقاضاه من المصرف كل شهر، فتك بها المرض. حين شارفت على الموت أخبرت ابنها بأمري وحصلت على عنواني من أحد موظفي المصرف في باريس. لو تراه يا جهاد! إنه نسخة عني. اعترفت به وهو الآن حبيب جده الذي لم يندم على شيء في حياته كندمه على ما فعل مع دومنيك. لم يتأثر لموتها. لكن عز عليه كثيراً أن يعيش حفيده كل هذه السنين فقيراً. يحاول أن يعوض عليه الآن ويلاحقه كخياله ليؤمن له كل ما يطلب. أما المسكينة دومنيك فحين نقلتها إلى المستشفى كانت في حالة يرثى لها. لو رأيتها لما عرفتها. لكنها توفيت مطمئنة. رحمها الله... أنا الآن سعيد برياض، لكن قلبي في قراره تعيس ولن يسعد أبداً».

أما كامل، بعد عودة جهاد وعائلته من فرسا، فقد شعر بأن ليال تفلت أكثر فأكثر من بين يديه. في المرحلة الأخيرة أعادت علاقاتها بأصدقائها وبالعالم الخارجي، لكنها، كانت

تعود إلى البيت كل مساء. كان لا يزال بينهما خيط ولو رفيع من الحوار على الأقل. أما بعد عودة الأخ فما عاد كامل يراها إلا في بيت أهلها. وحين تأوي إلى حيث أصبح بيتهما تكون كالصنم لا تتكلم. لقد حاول كامل مرات عديدة أن يفهم ما بها ولماذا هذا التغير فيها هي التي كانت له وله وحده حين عاشا في ليون. كان دائماً يطرح على نفسه السؤال حول تغير ليال. لم يخطر بباله أن يطرح يوماً السؤال حول تغيره هو. ليال من جهتها كانت ترى التغير في كامل فقط. ولكي لا تغوص أكثر في التحليل والتساؤلات، كانت تقول لنفسها وللآخرين إن سألوها عن كامل: «لقد انتهى، إنه شخص ممتاز لكنه انتهى بالنسبة إلي». هو انتهى بالنسبة إليها وهو لم يفكر إلا أن لدى ليال علاقة جديدة.

في هذا الواقع الذي ما عاد يطاق، لم يبق أمام كامل سوى التفكير بالخلاص. شارف فصل الصيف على النهاية وشارفت معه السنة السابعة لدى كامل على الانتهاء. اقترب وقت عودته إلى ليون، إلى جامعته وعمله. كان يشعر من خلال ما مر معه هذه السنة، بأن ليال سترفض مرافقته إلى ليون. لكنه تجاهل الواقع كلياً وتعامل معها كأنها زوجته التي عليها أن تتبعه أينما ذهب. قبل السفر بأيام استطاع أن ينفرد بها ليدور بينهما الحوار التالي:

— لقد حان وقت السفر، سأحجز للأسبوع القادم. قال كامل.

— ممتاز.

— لديك الوقت الكافي لتسليم العمل هنا إلى من ترينه مناسباً.

— لماذا؟ لن أسلمه لأحد.

— وكيف ستدار الأمور في غيابك؟

— غيابي؟ إلى أين؟

— إلى حيث بيتنا، إلى حيث عملي، إلى ليون.

— لا، ستذهب وحدك إلى ليون، أنا سأبقى هنا.

— وتسمين هذا الوضع زواجاً؟

— سمه كما تشاء.

خبط يده على طاولة أمامه وصرخ بأعلى صوته: «إما تذهبين معي أو لا أعود أرى وجهك إطلاقاً». هذا ما كانت تريده ليال وأجابت:

— أنت حر. افعل ما تريد. أما أنا فقد اتخذت قراري. حياتي هنا وسأبقى هنا.

— ألا تفكرين بي أنا؟ ماذا أمثل بالنسبة إليك؟

كان قد فقد كل معنى بالنسبة إليها. لم تجب، بقيت صامتة مما أثار غضبه أكثر فأكثر وقال:

— في هذه الحالة، لا يبقى أمامنا سوى الطلاق. أهذا ما تريدينه؟

— أنت قلت.

هنا دار بينهما حوار طويل حول الزواج ومعناه ولماذا قبلت به إن كانت تنوي الطلاق و.... وهي ترد وتقول إن الزواج ليس آخر الدنيا و...كان حواراً عاصفاً وسع الهوة بينهما بدل أن يضيقها. لهذا السبب قدّم كامل موعد السفر ورحل بعد يومين.

في الطائرة كان شارداً يستعيد كل شريط حياته منذ ما قبل دخوله الدير إلى ما هو عليه الآن مروراً بلقائه الأول بليال وبزواجيه الأول والثانيّ و...حين حطت الطائرة على أرض المطار كان قد استنتج أن لا حظ له من النساء.

حين غادر كامل، أدركت ليال أنها النهاية وأنها ستخرج من هذا الكابوس الخانق. وجدت أن هذه النهاية هي نتيجة حتمية لما عاشته مع كامل خلال السنة الأخيرة. لكنها كانت دائماً تتساءل: «أيهما كامل الحقيقي؟ أيهما هو؟ هل هو كامل الذي سافر مؤخراً أم هو ذاك الذي سافر منذ أكثر من ثلاثين سنة؟». لم تستطع التوفيق بينهما، كانا مختلفين جداً، وهكذا دخل كامل إلى ذاكرتها كشخصين لا يوحِّد بينهما سوى الاسم.

بعد رحيل كامل، سافرت ليال مع ابنة أخيها إلى فرنسا لأن ليال الصغيرة كانت بحاجة إلى بعض الأوراق من المدرسة التي تعلمت فيها، لكي تتمكن من الالتحاق بالجامعة اليسوعية في بيروت. بعد أسبوعين على وجودهما في فرنسا وصلت إلى عنوان ليال في بيروت، رسالة من المحكمة المدنية في ليون. حين استلمها جهاد، استغرب الأمر واتصل بليال التي طلبت منه أن يفض المغلف ويقرأ الرسالة. تلك الرسالة تطلب من ليال حضور جلسة للحكم بالطلاق بعد ثلاثة أشهر من تاريخه. حين أكمل جهاد القراءة تعجب من الأمر وسأل ليال: «ماذا يجري بينكما؟ لماذا لم تخبريني؟».

— لا أريد لأحد أن يتدخل في قراري، لقد تزوجت من دون أن أعلمك مسبقاً وها نحن نطلق من دون أن نأخذ برأي أحد. نحن متفقان على الطلاق. انس الموضوع أرجوك.

— معك حق. لن أتدخل، حياتك تخصك أنت وحدك. سؤالي هو من باب حرصي عليك وعلى سعادتك، تعلمين ذلك.

— أعلم جيداً مدى اهتمامك بي ولهذا السبب لم أرد إزعاجك بهمومي ومتاعبي التي انتهت الآن والحمد لله.

تعليق الست هلا التي سمعت ما قرأه رامي لليال، أتى على الشكل التالي: «خيراً فعلت. لم أهضم ذلك الزواج ولم أفهمه إطلاقاً». تابع جهاد الكلام مع ليال:

— هل ستبقيان طويلاً في باريس؟

— حوالى العشرة أيام على ما أظن، لن نتأخر أكثر.

— ليال، إن وائل في باريس، دُعي إلى هناك لحضور ندوة حول فكر هوسرل. لكني لا أعلم أين تعقد هذه الندوة بالضبط.

— سأسأل وأعرف. منذ متى أتى إلى هنا؟

— البارحة بالذات.

كان وائل يعرف أن ليال موجودة في باريس. لهذا السبب ما كادت تقفل الخط مع جهاد حتى رن الهاتف من جديد وكان وائل.

— هل فاجأتك؟ أنا في باريس. نلتقي مساءً ونتناول العشاء معاً.

— لم تفاجئني. علمت بقدومك من جهاد. كم ستبقى هنا؟

— أسبوعاً أو أكثر، لا أدري بالتحديد.

— ممتاز. تعرف أنك تستطيع أن تقيم معنا في البيت. غرفتك جاهزة.
— شكراً. أتمنى ذلك، لكنهم حجزوا لنا في فندق...
— على كل الحال الدعوة قائمة وتستطيع المجيء ساعة تشاء.

في المساء أتى وائل إلى بيت ليال واصطحبها مع ليال الصغيرة إلى العشاء. ساروا على الأقدام مسافة طويلة والسير في شوارع باريس ممتع جداً. وصلوا إلى المطعم متعبين وأكلوا بنهم وهم يشربون النبيذ. كان وائل خلال العشاء يساير ليال الصغيرة مما دفع بليال العمة إلى التدخل وقالت بدلع وهي تبتسم: «أنا بدأت أغار». ضحكت الصغيرة وهي تقبل عمتها. لكن وائل الذي كان ينتظر ردة الفعل تلك، لم يتردد لحظة، اقترب من ليال، ضمها إليه وقال: «يسرني قولك هذا، هل صحيح تغارين؟». وضعت ليال رأسها على كتفه وقالت:
— إن أردت الحقيقة لم أغر يوماً من علاقتك بإنسى. شعرت دائماً أن ما بيننا لا علاقة لأحد به.

ابتسم وائل من دون أن يجيب. لكن علاقتهما الجدية بدأت مع ذلك العشاء. أصبح وائل يزورها كل يوم، يخرجان معاً للتسكع في شوارع باريس ومطاعمها ومقاهيها ولحضور السينما أو المسرح أو...

حين ذهبا في نهاية الأسبوع إلى المون مارتر، استعادا ذكريات لم يكن أحد منهما قد نسيها. لكن ليال التي كانت أكثر عفوية من وائل أرادت أن تحول تلك الذكريات إلى كلام فأخبرت ليال الصغيرة عن تلك اللوحة التي رسمها أحد الرسامين لها ولوائل منذ أكثر من عشرين سنة.
— أحتفظ بها، قالت لابنة أخيها، سترينها حين نعود إلى لبنان. أنجزت في حينه بناءً لطلب وائل الذي أحب أن يُرسم وجهانا على ورقة واحدة.

أتى تعليق وائل على الشكل التالي: «يبدو أنك تفضلين الكلام على الفعل. .. هل صحيح ما زلت تحتفظين بتلك اللوحة؟».
— طبعاً. وأنت أيضاً ستراها. أحافظ عليها... أنها لا تزال حية كما لحظة إنجازها.

فرح وائل بكلام ليال وشعر بقربها منه. طوق خصرها بذراعه وتابعوا السير والتسكع في زحمة تلك التلة التي تعج دائماً بالناس والفنانين والكتاب والشعراء و...

أمضيا معاً في باريس عشرة أيام مشحونة بالعواطف والمشاعر المتأججة. أحياناً كثيرة كانت ليال الصغيرة تتركهما معاً وتذهب مع أصدقائها. يجلسان معاً ويتحاوران بأمور كثيرة وبأمورهما بشكل خاص.

علم وائل بطلاق ليال وعلق بأنه كان يحدس بذلك. علمت أيضاً ليال أن زوجة وائل تهدده بالانفصال لأنها ما عادت تتحمل نمط حياته المستهتر بكل شيء والذي تصفه بالإهمال والأنانية: «تتهمني بأنني لا أهتم بشيء ولا بها. إن أرادت أن تغادر فلا مانع لدي، هي حرة. كل واحد منا حر. على كل حال أنا نادم على قيامي بالزواج، ليس منها بالتحديد لكن بالزواج بحد ذاته». كانت ليال تعلم جيداً مدى الإحباط الذي يعيشه وائل بعد تجربته الحزبية والنضالية خلال الحرب في لبنان.

— أنت تشكو من الزواج؟ الكل يحسدك على حريتك ويحسدك على زوجتك التي تتحمل ما لا يمكن لإنسى أن تتحمله.

— ليست مضطرة للتحمل ولا غيرها مضطر.

— وكيف تستوي العلاقة إذاً؟

— العلاقة تكون أو لا تكون، لا تحدد بإطار مؤسسي.

هذا الرأي كان بالفعل رأي ليال، ما عادت تؤمن بأية علاقة قائمة على رباط مؤسسي. حين تنتهي العلاقة لا يعود أي رباط قادراً على تثبيتها.

تلك الأيام في باريس قربت جداً بين ليال ووائل اللذين حين عادا إلى لبنان أصبحا دائماً يعملان معاً ويخرجان معاً. شكلا ثنائياً محبباً من الجميع الذين كانوا يعلقون تلميحاً وأحياناً تصريحاً على تلك العلاقة.

كان وائل بالنسبة إلى ليال شخصاً مميزاً. هذا ما لمسته منذ أن تعرفت إليه لأول مرة في باريس حين كان اسمه الكاردينال. نظرتها إليه لم تتغير، بقيت هي هي من دون تبدل.

لكن بعد لقائهما في باريس أصبحت تراه أكثر جاذبية، كأنها في ذلك اللقاء قد رمت عليه عباءة من المغنطيس. حين تكون معه تشعر بأنها مشدودة إليه بقوة، لكنها كانت تقاوم. لم يكن حاله غير حالها، هو أيضاً أصبح شديد الانجذاب إلى ليال.

أصبح وائل يمضي وقته بعد الجامعة مع ليال في مكتبها، يساعدها في إعداد مجلتها وينصحها ببعض الكتب للنشر. في نهاية العمل كانا يخرجان معاً إلى المقاهي والبارات حيث يلتقيان الأصحاب. هؤلاء أصبحوا يدعونهما معاً. بعد فترة أصبح الأمر عادياً جداً أن يرى أحدهم ليال ووائل معاً في أي مكان. تقبل الجميع هذا الوضع حتى إن البعض قال: «إنهما يشكلان أجمل ثنائي في العاصمة». هذا ما سمعته ليال من بعض الصديقات. كانت تفرح لسماعها مثل هذا القول، تبتسم ولا تعلق.

في المرحلة هذه كانت ليال تتخفف من ثقل ما عانته خلال الزواج. عادت إلى سابق عهدها في المرح وحب الحياة مما دفع بصديقة لها إلى القول في إحدى المناسبات: «نرحب بليال لأنها عادت إلينا من جديد». جواب ليال كان: «شكراً على الترحيب، لكني عدت إلى ذاتي أولاً».

استمرت العلاقة بيني وبين وائل على هذا النحو إلى بعد ظهر ذلك اليوم وقد مر على عودتنا من باريس أكثر من شهرين. في ذلك اليوم كنت وحدي في المكتب حين رن جرس الهاتف وسمعت صوت وائل.

— ألو، نحن هنا في مقهى الغاسبر... في وسط المدينة. ننتظرك، هل تأتين؟

— من نحن؟

— أنا وصديقنا المشترك طلال.

— إني آتية انتظراني.

— لا تتأخري.

«لا تتأخري» قالها بنوع من الإلحاح جعلني أدخل في حالة من الشبق الغامض الذي دفعني إلى التركيز على تأنقي. مر وقت طويل وأنا أمام المرآة قبل أن أتوجه إلى الغاسبر. وصلت وسط المدينة ودخلت إلى موقف السيارات كي أترك سيارتي وأسير نحو المقهى. لكن عند مدخل الموقف اكتشفت أنني نسيت في البيت المحفظة التي أضع فيها المال، لم يكن معي حتى بدل الموقف. اعتذرت من العامل المسؤول عن إيقاف السيارات وسألته إن كان باستطاعتي دفع ما يتوجب بعد عودتي. لم يمانع، كان لطيفاً جداً ودعاني للدخول حتى ولو لم أدفع. لكنني، وقبل أن أدخل إلى الموقف، اتصلت عبر الهاتف الخليوي بوائل لأتأكد من وجوده في المقهى.

— عزيزي هل ما زلت في الغاسبر؟

— طبعاً، ننتظرك، أين أصبحت؟

— أنا على مدخل موقف السيارات ولا أملك فلساً واحداً، نسيت محفظتي في البيت. أردت التأكد من وجودك كي تدفع عني حين نخرج.
— تعالي، سأتكفل بالموضوع، لا تهتمي. قال ذلك وهو يضحك.

حين رأيته من بعيد كان مع طلال يشربان البيرة. وصلت إليهما، قبلتهما وجلست. من دون أن يسألني طلب لي وائل كأساً من الفودكا. لم أمانع، نظرت إليه وابتسمنا معاً. كانت عيناه تلمعان، كانتا عاشقتين. نظراتهما اخترقت كل جسدي الذي دخل في حالة من التوتر اللذيذ، في حالة من الـtrans، في حالة من الخدر الذي أخذت وتيرته تتصاعد مع كل جرعة من الفودكا.

هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ استأذن طلال، تركنا ورحل. هل حدس بما يدور بيننا بصمت؟ ربما. لقد تركنا لنصبح وحدنا. لم نكن وحدنا في المقهى، طبعاً، لكننا ما عدنا نرى أحداً. من جهتي ما عدت أرى غيره. التقت عينانا وتبعتهما أيدينا. شد على يدي واخترقت نظراته كل كياني. كدت أرتمي بين ذراعيه، شعرت به يضمني إلى صدره. لكني تمالكت نفسي وقلت له: «هل نذهب إلى البيت؟
— هل أنت جادة؟
— بكل تأكيد.

دفع للنادل الحساب وتركنا المقهى. كان ذراعه يلف خصري ونحن نعبر الطريق نحو الموقف. حين وصلنا قلت له: «أعطني ألفي ليرة». فما كان منه إلا أن ضحك بصوت عالٍ وقال: «هذه أول مرة أدفع سلفاً، لكن ما هذا الرخص». ضحكت للدعابة، ركبنا كلٌّ سيارته وتوجهنا إلى شقتي.

دخلنا مباشرة إلى غرفة النوم. تعرينا ونحن نضم بعضنا. لم نتفوه بكلمة. كان وصال وكان حب وممارسة للحب ممتعة رمتنا في شبه غيبوبة، حين عدنا منها كنا نتلمظ ونحن نستعيد لحظات المتعة.

— لماذا تأخرنا إلى هذا الوقت؟ لماذا لم نتمتع من قبل؟ آه لو كنت أملك آلة لإرجاع الزمان إلى الوراء!

— لا تندم على شيء، قلت له، أمامنا كل الوقت لنعوض ما فاتنا.

— أنا لست نادماً لكنني ما كنت أعرف أنك هكذا؟ لماذا...

— لا تكمل. أحببتك منذ زمن بعيد، تعرف ذلك. الآن فقط سمحت لي ظروفي الذاتية أن أكون ذاتي فعلاً. الآن وقد تخففت من كل عقدي وأقنعتي، الآن وقد قبلت ذاتي، أصبحت أحبك كما أريد وأقبل أن تحبني كما أنا على حقيقتي لأنني أشعر بأنني أولد من جديد بعد أن دفنت الماضي، القريب منه والبعيد.

ضمني إليه وقبلني. ثم نهضنا من السرير، ارتدينا ثيابنا وخرجنا إلى الصالون حيث جلسنا قليلاً قبل أن يستأذن ويرحل.

تركني ورحل، رحل إلى بيته وعائلته وعالمه. لم يزعجني رحيله، بل على العكس شعرت بأن هذا النمط من العلاقات هو الذي يناسبني. فلتكن علاقتنا حرة، لا يعكر انسيابها الحر أي شعور بالتملك أو أية رغبة به. عصفوران طليقان، يلتقيان حين يناديهما الحب، فيمارسانه على أرضية لقاء مستمر على الرغم من استقلالهما التامين. هذا هو نوع العلاقات التي كنت أحلم بها من دون أن أجدها لأن الآخر كان دائماً مسكوناً بحب التملك. لم ألمس عند وائل مثل هذا الحب وقلت لنفسي: «إنها علاقة مختلفة عن كل العلاقات السابقة التي وصلت جميعها إلى الفشل. هذه علاقة مميزة وتاريخها مختلف ومميز. ستدوم لأنها تحمل بذرة الدوام وهي عدم الالتفاف على الآخر وخنقه». باختصار كنت أنظر إلى تلك العلاقة كأنها العلاقة النموذجية بين مثقفين يحرص كل منهما على حريته التي لا تتناقض مع حبه وعشقه للآخر.

مرت أيام قليلة قبل أن نلتقي من جديد. كان وائل في ذلك اليوم يساعدني كالعادة في مكتبي. حين فرغ المكتب من الزوار والموظفين كنا قد أصبحنا في بداية السهرة. في مثل ذلك الوقت يطيب شرب كأس من الكحول. سألت وائل ماذا يريد أن يشرب.

— كالعادة، وسكي.

أحضرنا بسرعة كأسين وبعض المأكولات الخفيفة. جلس بالقرب مني وأخذ يداعب خصلات شعري، يقبلني ويعتصر جسدي بضمات كلها رغبة حتى أضرم فيه النار والتصق به وبدأنا بممارسة الحب. طلبت منه أن يعبر بالكلام عن حبه لي، أن يقول عبارة: أحبك. أجابني وهو مستمر في مداعبة جسدي: «كل شيء يأتي في أوانه». ضحكت وسألته: «هل ننتظر عشرين سنة أخرى لأسمعها منك من جديد؟». لم يعلق لكنه في لحظة الرغبة القصوى وقبل النشوة بقليل ردد بالفرنسية: «هذه هي الإنسى التي انتظرتها كل حياتي، هذه هي». طربت لقوله ذاك واعتبرت أنه أفصح من عبارة «أحبك» التقليدية والتي طالبته بها.

سعيدة جداً كنت حين افترقنا. تركت شقتي وذهبت إلى بيت أخي وأنا بحاجة إلى أن يعرف الجميع أنني سعيدة. سهرت معهم ونمت تلك الليلة في غرفتي ولم أعد إلى شقتي إلا صبيحة اليوم التالي. لاحظ كل من زارني ذلك اليوم تغيري وانشراحي وحين عبروا عما لاحظوه، أجبتهم: «إني عاشقة».

بعد فترة قصيرة دعتني إحدى الصديقات مع وائل إلى بيتها. سهرنا عندها وشربنا ورقصنا. كانت سهرة ممتعة أكملناها عندي في البيت. في تلك الفترة كنا نهمين جداً لا نلتقي على انفراد إلا مارسنا الحب كأننا نعوض ما فاتنا خلال السنين الماضية. في تلك الليلة لم يتمكن وائل من ممارسة الحب، يبدو أنه أسرف في الشرب. لكنه تابع حتى أوصلني إلى النشوة. قال: «أنا كلي هنا، لا أعرف لماذا جسدي لا يلبي رغبتي؟». أجبته: «المهم هو الحب وليس ممارسة الجنس». لكن تعليقه الطريف أتى بعد أن استلقينا جنباً إلى جنب وهو يغمرني بين ذراعيه: «من الممكن أن نكون، أنت وأنا سحاقيين». ضحكنا طويلاً لهذه الملاحظة التي لا تخطر على بال أحد وافترقنا كالعادة. حتى الآن كلما تذكرت تلك الملاحظة أضحك وحدي.

تتالت اللقاءات والسهرات ونشط العمل والتأم شمل الرفاق من جديد بعد أن بعثره انطوائي في الفترة السابقة. كانت فترة الثلاثة أشهر لموعد حكم الطلاق قد انقضت. سافرت إلى فرنسا والتقيت بكامل في المحكمة. كنا غريبين، كأن أحدنا لا يعرف الآخر. صدر الحكم لينهي علاقة فشلت لأنها تمت في غير أوانها على ما أعتقد. هل لو تمت في

أوانها...؟ قلنا سابقاً إن الـ«لو» تفتح الباب على كل الاحتمالات، تفتح الباب على اللانهائي. لهذا السبب أقفلت الموضوع، استلمت ورقة الطلاق وعدت إلى بيروت.

في اليوم الثاني التقيت بوائل. كان لقاءً حاراً جداً. شعرت خلاله بأن كل كياني يذوب ونحن نمارس الحب. قلت له: «فلنبق هكذا حتى الصباح». وأجابني بالفرنسية: «لا، بل حتى اللانهاية»l'infini ب'jusqu . في المرات اللاحقة أصررت على سماع عبارة: «أحبك». أجابني مردداً ما قاله وتغنستاين في كتابه le tractatus: l'indicible il ne faut pas le dire. كنت قد قرأت هذا الكتاب واعتبرت أن وائل يقصد من كلامه أن ما بيننا هو أكثر من حب، أن الحب الذي بيننا لا يحوشه أي كلام. فرحت به واعتبرت أن إجابته تلك تنهي أي تساؤل عندي حول حبنا الذي كان بالنسبة إلي نموذج الحب الحر الذي لا يخضع لأي قيد.

يبدو أن الأمور تختلف بين الرجل والإنسى في ما يتعلق بالحب ومضامينه. تختلف على الرغم من التماثل في السلوك والكلام فيما بينهما. هذا الاختلاف يضعهما في عالمين مختلفين لا يلتقيان إلا للحظات هي لحظات ممارسة الجنس عند الرجل والتي تكون لحظات ممارسة الحب عند المرأة.

كنت أحب وائل، أو على الأقل كنت أعتقد ذلك. على كل حال لم أفلسف الأمور، انجررت وراء عواطفي ومشاعري وعقلي وجسدي، وراء كل شخصيتي التي خلعت عنها كل العقد والأقنعة. أما وائل فكيف كانت نظرته لكل ما يحدث بيننا؟

— ليال، أنا أصبحت كعود بلا أوتار. قال لي حين التقينا مرة في شقتي كالعادة. بعد هذا القول الذي لم أتوقف عنده لأنني أعرف مدى العمق المأساوي في شخصية وائل، مارسنا الحب كالسابق بكل حرارة وشبق كدت معهما أنسى ما قاله من قبل. لكنه حين انتهينا أصر على متابعة الكلام:

— أنا صحيح كعود بلا وتر...حتى أني ما عدت قادراً على الحب.

— ماذا تعني؟ ألا تحبني؟ وكيف تمارس معي الحب بهذا الاندفاع والشوق و...؟

— إنها ممارسة محض جسدية. وتابع بالفرنسية: c إst purement physique.

سقط علي كلامه كالماء الغالي. حين تلفظ بتلك العبارة مثل أمامي رامي الذي ردد العبارة نفسها حين حاول أن يعتذر عن خيانته لي مع دومنيك. من كثرة دهشتي رددت السؤال: «ألا تحبني؟ ولهذا السبب لم تقل يوماً «أحبك»؟».

— حين قلتها لك منذ سنين لم تسمعيها. فما عدت أؤمن بها. سقطت من قاموسي.

تجمدت مكاني على الكنبة في الصالون. كنت صامتة لا بل مصدومة. نظرت إليه فبدا لي شخصاً غريباً لا أعرفه. لقد سقطت عنه عباءة الجاذبية التي رميتها عليه سابقاً من دون أن أدري. سمعت نفسي أقول له: «تستطيع الانصراف الآن، كلكم ذكور، كلكم ماكينات راغبة وأنا أبحث عن رجل». اقترب مني، قبلني وانصرف. بقيت مكاني شاردة أفكر وأستعيد كل الكلام الذي دار بيننا في لقاءاتنا الأخيرة. استعدت كل التعليقات الطريفة التي كنا نضحك لها... بعد شرود لا أدري كم من الوقت استمر، أدركت أننا نحن من يصنع الآخر. لقد ألبست وائل عباءة من إسقاطاتي، عباءة طرزتها على هواي ولونتها بهواماتي وأوهامي. الآن وقد انسحبت عنه تلك العباءة انتقل من موقع الآخر بامتياز إلى موقع آخر بين آخرين، أصبح جسداً بالياً. قذفت به إلى ذاكرتي ودخلت غرفة النوم لأتمدد وأريح جسدي بعد أن استراح ذهني. لكن كيف دخل وائل ذاكرتي وعلى أية صورة؟

ما كدت أستلقي على السرير حتى فوجئت بجثة هامدة بالقرب مني. قفزت من مكاني وأنا أصرخ: «هل خرج من الباب ليعود جثة باردة إلى السرير؟ هل مارست الحب مع جثة؟». أحسست بالغثيان، تركت الغرفة وركضت إلى الحمام. تقيأت كل ما في داخلي. كنت أتقيأ أحشائي، كل أحشائي وحتى كل جسدي. غسلت وجهي، نظرت إلى المرآة وتساءلت: «ترى أيهما هو؟ هل هو ذلك الرجل الذي كان يجذبني أو هو هذه الجثة الباردة التي تسبب الدوار والغثيان؟».

أبعدت كل سؤال عن ذهني، فتحت خزانة الأدوية وبلعت حبة كي أستعجل النوم الذي سيعيدني إلى ذاتي في الصباح، إلى ذاتي المخففة من كل ثقل الماضي. عدت إلى الغرفة. نظرت إلى السرير ورأيت ثلاث جثث ممددة عليه! هل زاغ نظري؟ أغمضت عيني وأصبت بدوار عنيف. فتحت عيني من جديد علّ المشهد يتغير. كان هو هو. ارتميت على الكرسي وجال نظري على جدران الغرفة قبل أن يتوقف على تلك اللوحة التي تمثل الأهرامات والجِمال. تسمر نظري عليها وإذ بي أرى أحد الجمال يتحرك. ترك رفاقه وخرج من اللوحة. مددت يدي إلى محفظتي وأخرجت المسدس الذي أهداه لي والدي ليلة رحيله. خرجت إلى الشرفة وإذ بي أمام بيتنا في الضيعة. رفعت المسدس وأطلقت ثلاث طلقات متقطعة في الهواء. تجمع الناس يسألون: «من مات؟». رأيت والدي يجر الجمل بالرسن. اقترب مني. طوى الجمل قوائمه وبرك أمامي. كان على ظهره هودج. أشار لي والدي أن أصعد. فعلت وانتظرته أن يصعد إلى جانبي، لكن الجمل نهض ومشى وراء والدي إلى ساحة الضيعة. نظرت أمامي باتجاه الشرق، باتجاه الجبانة، رأيت موكباً صامتاً تتقدمه ثلاثة نعوش خشبية. جلت بنظري لأرى والدي وأقول له إنني أعرف الآن لمن هذه النعوش، لكنه اختفى. أما الجمل فقد أخذت قوائمه تتمدد وتتمدد قبل أن تتحول إلى جناحين ويتحول هو إلى نسر كبير يحلق في الفضاء. شعرت وأنا على ظهره كأنني أتخفف من كل ثقل. كاد النسر يخرج من حقل الجاذبية حين رأيت أن الأرض ليست مسطحة وأنها لا زالت تدور. حين وصل النسر إلى تلك الحدود، تركني على ذلك الخط الفاصل بين الخفة القصوى وانعدام الوزن. كان ذلك الخط مرجوحة أعادتني طفلة في يوم عيد.

* * *

في تلك الليلة كنت لا أزال جالسة إلى مكتبي أراقب ليال، أستمع إليها وأتابع كتابة قصتها. لكنها توارت عن نظري. رفعت القلم عن الورقة وأخذت أنتظر عودتها. طال انتظاري فحاولت البحث عن وائل لأسأله إن كان يعلم أين أصبحت ليال وما كان شعوره حين طلبت منه الانصراف، وهل أدرك أنه انصرف إلى غير رجعة. بحثت بين الوجوه فلم أستطع تمييز وجهه، لقد ضاع بين الوجوه المتشابهة. نسيت أمره وعدت أنتظر ليال. انتظرت، انتظرت إلى أن غالبني النعاس ووقع القلم من يدي، فأدركت أن الكلام انتهى. كان ذلك في منتصف ليل:

مؤلفاتها

إلى هبى، سيرة أولى، (رواية)، دار الفارابي ١٩٩١.

هبى في رحلة الجسد، سيرة ثانية، (رواية)، دار مختارات، ١٩٩٤.

صوت الناي، أو سيرة مكان، (رواية)، دار مختارات، ١٩٩٥.

نحو تحرير المرأة في لبنان، (نظرة شاملة ورؤية مستقبلية)، دراسة، دار مختارات، ١٩٩٦.

أنا، هي، أنتِ، (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠.

حين كنت رجلاً، (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، آب/ أغسطس ٢٠٠٢

(IHSA) EL ULUM

Enumération des Scienses ou Classification des Sciences, Traduction Fransaise avec Introduction et notes, Centre de Developement National, 1991.